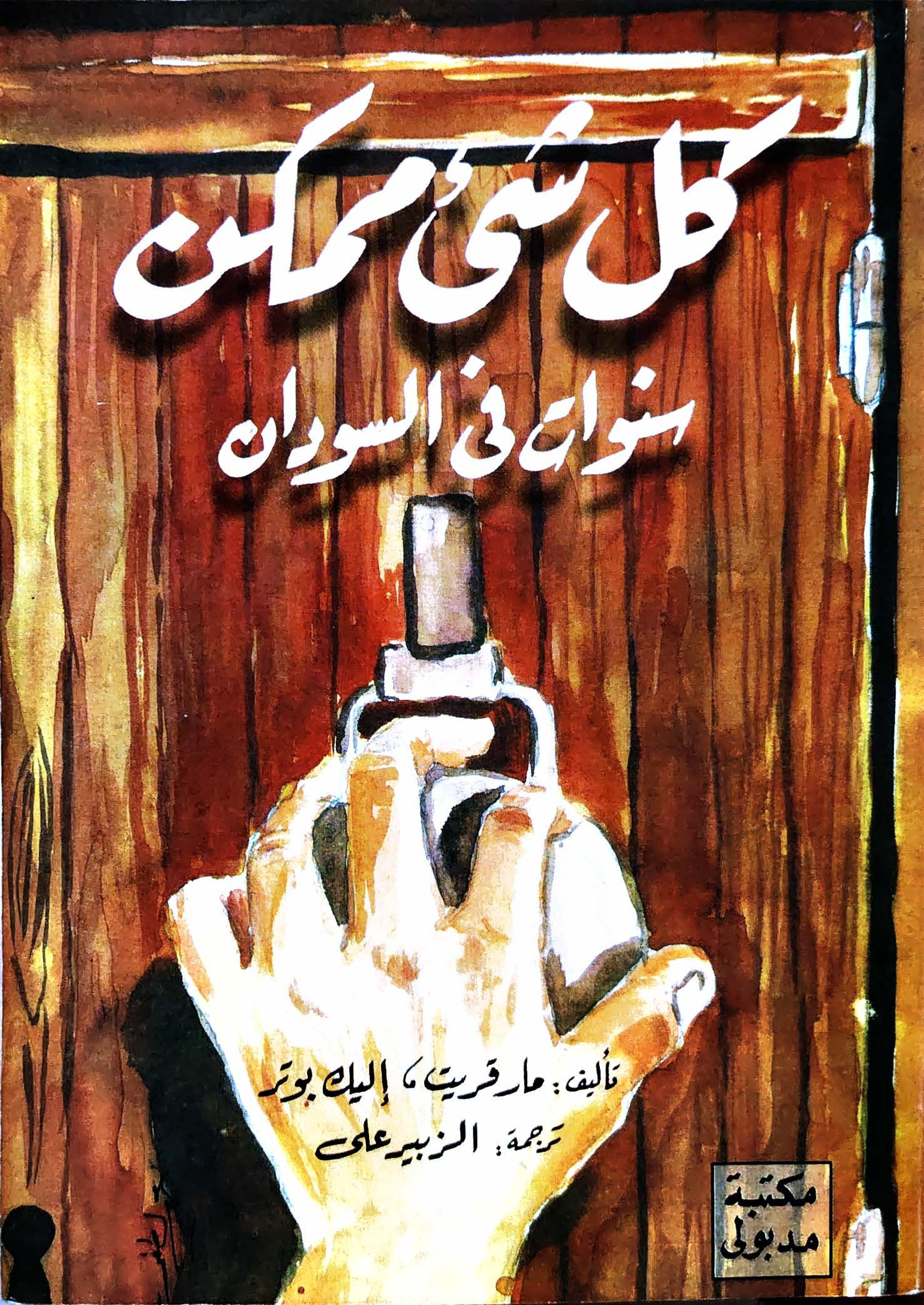

كل شئ ممكن
سنوات في السودان
تأليف: مارقريت، إليك بوتر
ترجمة: الزبير على
مكتبة مدبولى

كل شيء ممكن

سنوات في السودان

الكتاب : كل شيء ممكن
«سنوات فى السودان»
تأليف: مارفريت وأليك بوتر
ترجمة: الزبير على
الطبعـة: الأولى ١٩٩٧
الناشر: مكتبة مدبولى ـ القاهرة
ت: ٥٧٥٦٤٢١ ـ تليفاكس: ٥٧٥٢٨٥٤
رقم الإيداع: ٩٧/٥٠٤٥
الترقيم الدولى: ISBN
977 - 208 - 189 - x
لوحة الغلاف: محمد لطفى
الجمع التصويرى وأعمال الجرافيك: دار جهاد
ت: ٣٥٦٤٧٨٣

EVERY THING IS POSSIBLE

OUR SUDAN YEARS

كل شئ ممكن

سنوات فى السودان

تأليف

مارقريت، إليك بوتر

ترجمة

الزبير على

الناشر

مكتبة مدبولي

المحتويات

الصفحة	

الصفحة

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كتبه البروفسور/ **يوسف فضل حسن**
المدير السابق لجامعة الخرطوم ورئيس
المؤتمر العالمي للدراسات الافريقية.

أحسن الأستاذ الزبير على صنعاً بتعريبه الجيد لكتاب (كل شيء ممكن: سنوات في السودان) لمارقريت وأليك بوتر البريطانيين. فالكتاب من أمتع وأصدق ما قرأت من أدب الرحلات، والمذكرات، التي خلفها الأوربيون عن سودان وادى النيل. وهو واحد من سلسلة من المؤلفات التي بدأت تظهر منذ مطلع القرن الثامن عشر، على أثر توغل بعض الأوربيين في السودان في إطار عملية استكشاف إفريقيا، لمعرفة خصائصه الجغرافية، وإمكاناته الاقتصادية، وروائعه الأثرية، ولإشباع روح المغامرة، وأخيراً وليس آخراً بغية التمهيد لفتح طريق لبلاد الحبشة المسيحية.

كان أول الوافدين جماعة من المبشرين المنتمين إلى طائفتي اليسوعيين والفرانسيسكيين الذين كانوا يسعون إلى ضم الاحباش الأرثوذكس إلى الكنيسة الكاثوليكية. وفي سعيهم لتحقيق هذا الهدف، اتخذوا من سنار، حاضرة سلطنة الفونج الإسلامية، نقطة انطلاق لهم. ونتيجة توغلهم هذا خلفوا تقارير ورسائل قيمة عن أحوال البلاد السياسية والاجتماعية، ويحتل شارلز بونسيه الفرنسي، مركزاً مهما في هذا السجل بفضل ما تركه من وصف مفصّل لمشاهداته بين مشو وسنار عام ١٦٩٨ . وبعد

بضعة أعوام خلف الأب ثيودور كرمب البافارى سفراً ضخماً عن مشاهداته بين الحلفاية وسنار، ولكنها تفتقد العمق وقوة الملاحظة. وأثر رحلته لسنار عام ١٧٩٢ ألف جمز بروس الأسكتلندى كتاباً عن الأوضاع فى سنار. ولكن مؤلفه هذا رغم غزارة مادته وطرافتها ينحى إلى المبالغة ويميل الى إضفاء البطولة والمغامرة على بطلها.

وعلى نقيض بروس نجد الرحالة السويسرى جون لويس بوركهارت المبعوث من الجمعية الأفريقية بلندن، خلف وصفاً دقيقاً للحياة الاجتماعية والاقتصادية فى العقد الثانى من القرن التاسع عشر، ويقارب هذا الأداء الرفيع ما دبّجه يراع الرحالة الإيطالى جيوفانى بروكى بعد عقد آخر من الزمان.

وعلى أثر الغزو التركى المصرى للسودان عام ١٨٢١م زاد توافد الأوروبين على هيئة موظفين، ومهنيين وحرفيين وتجار ومبشرين ورحالة وعلماء آثار. وكان قناصل الدول الأوربية يشكلون دعماً مهماً لهذا الوجود. ورغم التباين الواضح فى الاهتمامات، وفى المستوى العلمى لهذه الفئات فإن تقليد تأليف التقارير والرسائل والكتب ظل مزدهراً. ولكن كثيراً مما كتب دُبّج بعين أوربا، سيدة البحار، ومفجرة الثورة الصناعية الساعية لبسط نفوذها الاقتصادى، ونشر قيمها الحضارية وفرض سيطرتها السياسية على كل ماسواها. كانت أوربا واثقة من نفسها وإمكاناتها. وكان بعض أبنائها يرون أنهم أجدر الناس بقيادة العالم، وأحقهم بامتلاك الأرض ومن عليها. وأخذت روح التفوق هذا مظهر التحيز الصريح والدعاية المغرضة، بل العداء السافر عندما فجّر الإمام المهدى ثورته مبشراً بإعلاء كلمة الله تعالى، وداعياً للتخلص من نير العبودية.

بعد سقوط دولة المهدية الفتية، وقيام الحكم الإنجليزى المصرى واصل النفوذ الأوربى تدفقه فى كنف بريطانيا أقوى الشريكين. كانت الحضارة الأوربية جوهر هذا التوجه فمنها تسربت بعض المفاهيم الفكرية، وسمات من نظم الحكم، وجل نهج التعليم المدنى. ولخدمة أهدافها الاستعمارية أقيمت بعض المنشآت الزراعية، وبعض الصناعات. ومع غلبة السمة الاستبدادية على الحكم فإن جل أفراد المؤسسة الحاكمة، وهم بريطانيو الأصل كانوا من خريجى الجامعات البريطانية، ومن ثم كانوا على درجة كبيرة من الوعى والإدراك فاستثمروا أوقات فراغهم فى جمع الروايات الشفوية عن تاريخ البلاد، وتسجيل عادات القبائل ولغاتها، ورصد الظواهر البيئية والاجتماعية. فعلوا ذلك كله قبل أن تنشأ مؤسسات البحث العلمى ودور العلم الرفيعة. ووجد معظم ما وجدوه سبيله الى مجلة السودان فى رسائل ومدونات الزاخرة بكنوز من الحقائق العلمية والموضوعات الاجتماعية.

فى ظل هذا البلد، مترامى الأطراف، متعدد الثقافات الملئ بالطرائف والأساطير ظل إرث كتابة الرسائل، والمذكرات الخاصة مزدهراً على النسق الذى ألمحنا له، ولكن يبدو أن مخالطة الإداريين البريطانيين للوطنيين فترات طويلة، ولّدت نوعاً من التعاطف المؤسس على التجربة الشخصية والمعايشة الصادقة خففت من غلواء تلك النزعات المتحيزة التى تزخر بها بعض الكتب الأوربية، وصار ما يكتب أكثر اعتدالاً وأقرب إلى الواقع.. ولعل مما قوّى هذا التوجه الموضوعى فى التأليف تطور كلية غردون

التذكارية إلى كلية جامعية ثم إعلانها جامعة باسم جامعة الخرطوم، سنة ١٩٥٦م عام التحرر من الاستعمار.

عنيت الجامعة الجديدة بالدراسات والبحث العلمى المرتكزين على المعايير العالمية ذات التوجه الموضوعى تحت قيادة نخبة مؤهلة من الأساتذة البريطانيين، تساعدهم قلة من المصريين ثم أعداد متزايدة من السودانيين. كان من سياسة الجامعة، وهى تؤطر لدورها الرائد فى تطور البلاد أن تؤصل المعارف السودانية، وأن تنشىء أقساماً للتخصصات التى لم تدرس من قبل مثل علوم الاقتصاد، والسياسة، والاجتماع والآثار والعمارة، والصيدلة وغيرها من التخصصات التى تدعم الأقسام والكليات القديمة.

وكان ممن استقطبتهم الجامعة لتحقيق هذا الهدف أعداداً من الأساتذة البريطانيين الذين وفدوا لتقديم خبراتهم فى بلاد لم تعد جزءاً من الإمبراطورية البريطانية. كانت روح المغامرة والرغبة فى التعرف على بلاد تنعم بفرص واسعة للبحوث العلمية بعض ما حفزهم للقدوم: أتوا مسلحين بالعلم وطرائق نشره وتوسيع دائرته والتعمق فيه على نسق موضوعى فى مؤسسة تغلب عليها السمات الأوربية.

فى أغسطس ١٩٥٨ قدم الدكتور أليك بوتر أستاذ العمارة لإنشاء قسم للعمارة بكلية الهندسة، جامعة الخرطوم وكانت تصحبه حرمه السيدة مارقريت بوتّر المتخصصة فى الفنون التشكيلية. أقام البروفسير بوتّر ثمانية أعوام أنجز فيها مهمته بامتياز، وتطّور قسم العمارة حتى صار مدرسة ذات خصائص فنية تجمع فى كثير من سماتها بين التوجيهات الحديثة للعمارة وبعض الموروثات الإسلامية - السودانية فى تجانس أخاذ.

هذه خلفية لابد منها لوضع هذا الكتاب في المكان اللائق به في سجل المؤلفات الأوربية عن السودان. فكتاب «كل شيء ممكن» مزيج من التوجه المهني ذى النظرة الموضوعية الفاحصة، والانطباعات الشخصية القائمة على المعايشة المؤسسة على الزمالة، والتواصل مع بعض قطاعات الشعب السوداني.

بيّن الكتاب كيف أنشأ الاستاذ بوتّر قسم العمارة بجامعة الخرطوم، والنهج الذى اتبعه في تدريب الطلاب، والطواف بهم على مواضع المنشآت المعمارية الحديث والعريقة: مثل الآثار المروية والمسيحية في حلفا، ودنقلا والبركل ومروى وروائع العمارة الاسلامية في سواكن. كما يسرد تاريخ بعض المنشآت الحديثة كالقصر، وكلية غردون وبنائها على مراحل وأسماء مهندسيها، ولعل من أروع ما يشمله الكتاب قصة تشييد قاعة الامتحانات ذلك الصرح الشامخ الذى نفذ وفق نهج حديث بمواد محلية: شيد من الطوب الأحمر، وخشب المهوقني وزين بآيات بينات من المصحف الشريف في خط جميل رائع، بريشة الفنان عثمان وقيع الله.

ويزخر الكتاب بكثير من الأخبار والمعلومات ذات المغزى الاجتماعي والطبيعي والخرافي. مثل حديثه عن الأسلوب الحضارى الرفيع، والمراسم الطريفة التي صاحبت ترحيل تمثالي غردون وكتشنر لبريطانيا مما يدل على غلبة روح التسامح عند السودانيين، ويصف الكتاب «الحقْ» وصفاً شيقاً، ويبين ما يوضع فيه من عطور. ويعرج المؤلف على أخبار القطط في سواكن وأسطورة الصوت الغريب الذى يدوّى في الصحراء. ويعكس حديثه عن بعض الممارسات الصوفية أن جو طبقات ود ضيف الله ما زال غالباً على بعض قطاعات الشعب السوداني.

ولعل أجمل ما فى الكتاب الانطباعات المؤثرة عن بعض الشخصيات السودانية التى عرفها الأستاذ بوتَّر عن قرب من زملائها، وطلابه دعامة السودانيين. وهذا يعكس روح التفاعل بين الجانبين كما يبين روح الإخاء الصادق والتعاطف الانسانى، الذى يخترق الحاجز العرقى والتباين الثقافى. ويبدو لى أن المؤلف قد انبهر بالشخصية السودانية فكان يرى فيها تسامحاً ولين عريكة (EASY - GOING PEOPLE) وبعداً عن (العصلجة) أو المصادمة بدون داع. ومن ذلك تسميته للكتاب «كل شيء ممكن». ولعله كان يسمعها من كثير ممن تعامل معهم. ربما كان فيما رواه عن إنقلاب الرئيس عبود شيئاً من تلك الروح. فحين ذهب إلى مكتب البريد، فى نفس اليوم، وهو يتلمس طريقه بحذر لم يجد من أثر يدل على شيء غريب سوى دبابة أمام «البوستة» وقد استلقى على ظهره فوقها جندى وراح فى غفوة آمنة.

وخير ما يمثل هذه الشخوص الأستاذ أحمد المرضى جبارة، والسيد ابراهيم أحمد والمهندسان حسن العتبانى وحسن البحر وعبد الباسط عبدالكريم، وداؤد سعد النور. ولعل فى وصفه الدقيق لشخصية أحمد المرضى، مسجل الجامعة، الذى تعامل الاستاذ بوتر معه كثيراً، خاصة عند تشييد قاعة الامتحانات، خير ما يستدل به.

كانت شفافية بوتر الشديدة، وقلقه من امكانية تنفيذ مشروع القاعة تثير عجب أحمد المرضى، ولكن سرعان ما يبدد قلق بوتر بابتسامة واثقة مطمئنة له من أن كل شيء سيسير على ما يرام. ولعل روح الثقة والمرونة الغالبة على الأستاذ أحمد المرضى، هى ما أبرزه المؤلف كسمة غالبة على

الشخصية السودانية، ومنها تسمية الكتاب «كل شيء ممكن». وتبين النماذج التالية عمق ملاحظات بوتر، ووضح ما هدف اليه برسم بعض الجوانب الايجابية للشخصية السودانية.

«مشهد المرضى في جلسته تلك، بتقاطيع وجهه السودانية الأصيلة.. كان جليلاً ويدعو للاحترام. وكان رأسه الأنيق، الذى قص شعره حديثاً، وقد خالط سواده بياض في الأطراف.. مرفوعاً دائماً إلى أعلى حتى في الأوقات، التى كان العمل يتطلب فيها الانحناء والانكباب على الورق». ص٩١.

« ورغم أننا، ما رقريت وأنا، قد تعرفنا بالمرضى قبل فترة قصيرة أولاً كزميل وثانياً كصديق فإننا كنا على إدراك تام بمقدراته العجيبة على إخفاء انفعالاته أو إظهارها حسبما يقتضيه الموقف، أو حسبما يريد هو. وأعتقد أننا قد حفظنا عن ظهر قلب تفسير كل تعبير من تعبيرات وجهه». ص ٩١.

«وعلى سبيل المثال توسيعه المفاجىء لحدقتى عينيه.. وتجعيده لجبهته وتنويعه لنبرات صوته. وفي ذلك اليوم ..... (يوم شاشات السينما) ...بدا المرضى صارماً ومهيباً مثل قاضى يوشك أن يصدر حكماً في جريمة خطيرة» ... « أن الحكم على الرجال العظماء الذين يحتلون المواقع المهمة يتحدد بالطريقة التى يعالجون بها القضايا الصغيرة».

كانت خبرته الإدارية المبنية على أساس أكاديمى صلب قد تلطّفت ورقّت بفضل انسانيته النادرة وروح الدعابة التى طُبع عليها». ص ٩٤.

وفي إحدى زياراته لبريطانيا، واستجابة لدعوة من آل بوتر لزيارتهم في

منزلهم الريفي في ويلز، أخذ المرضي القطار من لندن الى أبرسويث حيث استقبله الأستاذ بوتر. وبينما هما يتجاذبان أطراف الحديث داخل السيارة، يقول بوتر: «وفجأة لا أدرى كيف بدر مني ذلك. وجّهت للمرضي سؤالاً وددت لو انني لم أوجهه اليه. سألته لماذا استقل الدرجة الأولى (ذات التكلفة الباهظة) فقال المرضي. آه ألاحظت ذلك!

بعد فترة صمت قصيرة أجابني المرضي وهو يحدّق بعيداً، ويركّز بصره على نقطة غير مرئية عند التقاء البحر مع الأفق اللانهائي. قال إذا وجد المكان المناسب المريح فإن الدرجة الثالثة هي خياري. ففيها يحظى المسافر بلقاء الناس وذلك يطربني كثيراً. لعلك تذكر منزلي بالخرطوم والذي يعج دائماً بالضيوف، وأطفالهم الذين يلعبون في حديقة المنزل. ولكنني رجل أسود. وفي بلدكم عندما يسافر رجل أسود، في الدرجة الثالثة أحياناً، فان زملاءه في تلك العربة ينظرون اليه على انه أدنى منزلة منهم. انك لتدرك ذلك دون كبير عناء.

فلما تبين ما انتابني من قلق عجّل بطمأنتي قائلاً: «أما اذا استقل الرجل الأسود الدرجة الأُولى فانه يعامل معاملة مختلفة تماماً. ويبدو أن أحدا لا يفطن الى لون بشرته. وحتى موظفو السكة الحديد لا يحاولون اجتنابه وتحاشيه. ويتنافس الحمالون، تصور، على حمل أمتعته..».

« لم يكن في صوت المرضي أى أثر للحقد أو الكراهية، وهو يجيب على سؤالي. وأنا موقن بأنه قد أدرك أن مشاعر الصدمة والخجل التي انتابتني قد ألجمتني، وجعلتني أبحث عبثاً عن الكلمات فلا أجدها. فحتى

تلك اللحظة كنت أعتقد أن مسألة التمييز العرقى والتحيز اللونى هى مشاكل شعوب أخرى (ليس من بينها الشعب البريطانى). ص ٩٩.

هذه لمحات مما يحويه هذا الكتاب المثير المنير، وآمل أن يجد فيه القارىء العربى الفائدة والمتعة.

فالكتاب خفيف الظل، سلس العبارة، جيد البناء. وقد أثرته الفنانة مارقريت بلوحات فنية رائعة جمعت بين جمال الشكل وتبيان المحتوى. فبفضل هذه الرسومات المرهفة، وإن صغرت أحياناً، صار الكتاب أكثر بهاءً فى مبناه ووضوحاً فى معناه.

حافظ الاستاذ الزبير على هذه الخصائص فى أسلوب سلس، وقد تابع الأصل، ولكن بتصرف قليل، نزع فيه نحو الإيجاز أحياناً والحذف أحياناً أخرى.

ومثل ما أحب الأستاذ بوتر السودان وأهله، أُعجب الأستاذ الزبير بهذا الكتاب وسعى لترجمة فصول منه فى جريدة الأيام. وقد وجدت تلك الفصول قبولاً حسناً، وبتشجيع من المؤلف عرّب الأستاذ الزبير جُل ما تبقى من الكتاب، وكنت آمل ألا يستثنى الفصلين السابع عشر والثامن عشر بحجة أنهما لا يهمان القارئ السودانى ولكنها يشكلان جزءاً مهما من البناء الفكرى للكتاب كما أن ما يثيره أحدهما حول الزخارف النوبية، وما تدعيه الأُستاذة ما ريان ونزل من مجانبتها للأصالة وزعمها من أنها قد نقلت من صناديق بسكويت شركة انجليزية يستحق الوقوف عنده.

وانى إذ اشكر الاستاذ الزبير على ... على سؤالى بتقديم هذه الترجمة الجيدة لكتاب «كل شيء ممكن» أحمد له هذا الجهد الطيب الذى ينبىء عن مقدرته الأدبية وسعة إطلاعه واهتمامه بتاريخ بلاده وأحوالها. وآمل أن تتواصل جهوده فى هذا الشأن إذ مازال كثيراً مما ألف عن السودان فى لغات أوربية. وآمل أن تجد هذه الترجمة المكان اللائق بها فى المكتبة السودانية والله ولى التوفيق.

يوسف فضل حسن
جامعة الخرطوم

نبذة تعريفية موجزة

عن المترجم

تلقى دراسته بمدارس الخرطوم.

عمل بمصلحة البريد والبرق، وتنقل لظروف العمل فى كثير من أجزاء السودان، وكان آخر منصب تقلده هو (كبير وكلاء بريد وبرق) قبل أن يتقاعد بالمعاش الاختيارى منذ سنوات.

تفرغ للكتابة متعاوناً مع عدة صحف من بينها: الأيام والسياسة وصوت السودان.

بدأ كتابة القصة القصيرة فى منتصف الخمسينات وقد صدرت له مجموعتان قصصيتان. الأولى هى (النازحان والشتاء) عام ١٩٦٠ بالاشتراك مع خوجلى شكر الله.. وقد صدرت بالقاهرة بمعاونة الدكتور إحسان عباس الذى كان يعمل آنذاك بجامعة الخرطوم، وكان يأخذ دائماً بأيدى الكتاب الشباب.

وصدرت مجموعته القصصية الثانية (المقاعد الأمامية) والتى أصدرها منفرداً عام ١٩٦٩ . وقد طبعتها (مطبعة النيل للطباعة والنشر بالخرطوم).

أصدرت (دار النديم) بالقاهرة فى أواخر الخمسينات كتاباً تحت عنوان: (قصص واقعية من العالم العربى) وكانت لإحدى قصصه وهى قصة (المكافأة) شرف الاختيار لتمثيل القصة الواقعية السودانية. وضم الكتاب

المذكور قصصا ليوسف ادريس، وفاروق منيب من مصر. وعبد السلام العجيلي، وسعيد حورانية، وفاتح المدرس من سوريا، وعبد الملك نورى، وفؤاد التكرلي، ومهدى عيسى الصقر من العراق .... الخ.

في عام ١٩٦٧ ترجمت خمس من قصصه إلى الروسية وصدرت فى كتاب ضم قصصاً مترجمة لعلى الملك، وصلاح أحمد ابراهيم، وأبوبكر خالد ود. الطيب زروق، وعثمان على نور وخوجلى شكر الله.

صدرت مؤخراً بلندن مختارات من القصة القصيرة السودانية بعد أن قام بترجمتها المستشرق البريطانى المعروف دنيس جونسون ديفز. وقد ضمت المختارات إلى جانب قصصه قصصاً للطيب صالح، وعلى الملك والطيب زروق وابن خلدون وعيسى الحلو ومصطفى مبارك وابراهيم اسحق.

قصتى مع هذا الكتاب

فى عام ١٩٨٥ شد انتباهى نبأ ثقافى صغير أوردته مجلة عربية لندنية مفاده: أن كتاباً جديداً قد صدر فى لندن عن دار «ALANSUTTON» للنشر بعنوان [EVERYTHING IS POSSIBLE] وأن مؤلفه هو: البروفسور اليك بوتر (مؤسس قسم المعمار) بجامعة الخرطوم وقد شاركته فى التأليف زوجته الفنانة التشكيلية (مارقريت). ويمضى النبأ فيذكر أن الكتاب يضم ذكرياتهما عن السودان خلال السنوات الثمانى التى قضياها فيه. ومنذ تلك اللحظة صرت شغوفاً بالحصول على الكتاب لسببين.. أحدهما عام والآخر خاص.

أما السبب العام فهو: اهتمامى البالغ بكل ما يكتبه الأجانب عن السودان ...... [المنصف] منهم [والمغرض] على حد سواء. فما يكتبه (المنصف) قد يفتح أعيننا على أشياء يومية ما كنا لنراها على حقيقتها من فرط التعود وما يسدله على أعيننا من أستار، وأما ما يكتبه (المغرض) فهو قد يكشف جلياً ما يضمره لنا بعض الأجانب من شر، ويوسعنا دونما ريب الإفادة مما يكتبه النوعان.

كان هذا هو السبب العام وأحسب أن كثيرين غيرى ربما يشاركوننى نفس الاهتمام بهذا الضرب من المؤلفات . وأما السبب الخاص فيهمنى وحدى. فالأحداث التى يرويها الكتاب يدور بعضها فى أو حول المكان الذى قضيت فيه أروع وأجمل سنوات عمرى.. وهو (متحف الآثار القديم)

المجاور لكلية الهندسة والمعمار، والذى تشغل مبناه الآن مكاتب مدير جامعة الخرطوم.

كنت أبلغ من العمر أربعة أعوام فقط عندما قدمت مع أُسرتى من أحد أحياء الخرطوم الشعبية للإقامة بالمنزل الذى تم تخصيصه لنا فى الجانب الغربى من فناء المتحف. وعندما تم بعد سنوات عديدة تشييد (كلية الهندسة والمعمار) الحالية امتدت مبانيها حتى شملت فى الجانب الشرقى منها منزلنا الذى أُزيل من مكانه لكى يتيح للكلية حيزاً أكبر.

كان والدى عليه رحمة الله أول سودانى يلتحق بالعمل بالمتحف آنذاك.. وكان قد أصبح ملماً إلماماً دقيقاً بتاريخ كل قطعة أثرية وقصة كل تمثال من محتويات المتحف التى لا يدركها الحصر مما مكنه من القيام باقتدار بالشرح والتوضيح لرواد المتحف من السودانيين والسائحين الأجانب. ولهذا السبب مُنح الامتياز بتخصيص منزل له.

لقد عشت في ذلك (الفردوس المفقود) أكثر من ربع قرن.. ومضت أعوامه كما يمضى الحلم الجميل. فقد كان المكان كله أشبه ما يكون بعالم خيالى منه إلى عالم حقيقى.

فى الجزء الغربى من فناء المتحف كانت تصطف عشرات من أشجار البرتقال والأرنج والقشطة والجوافة واليوسفى وشجرة (عرديب) عملاقة (لا تزال باقية حتى اليوم)!

أما الجزء الشمالى من الفناء فكان حديقة جميلة كست أرضها حشائش شديدة الخضرة، وأحاطت بها من كل جانب أعداد هائلة من

نباتات (الأراولة) ذات الأزاهير البهية الخلابة.. والتى كانت تستقبل فى شوق طوال اليوم أسرابًا من الفراشات الزاهية الملونة.

وكانت بالحديقة أيضا بعض شجيرات الليمون والياسمين الهندى والسيسبان والدليب وتتوسطها (نافورة حجرية) أنيقة. (أشجار الدليب والنافورة لا تزال باقية الى اليوم). وفى الجزء الجنوبى من الفناء كانت تقوم بعض أشجار (الآبنوس) ودغل كثيف من أشجار (القنا) وسور ممتد من شجيرات (التمر هندى) و (الدودانية).

أما الجانب الشرقى من الفناء ويبدأ مباشرة بعد ميدان للعب التنس فقد كان يتحول.. خاصة فى الليالى المقمرة.. إلى عالم اسطورى يلفه وتكتنفه الرهبة ويتعذر وصفه.. إذ كانت تختلط فيه الحقيقة بالخيال.. والحلم بالواقع فينتج من ذلك كله مزيج ساحر من الجمال والفتنة الطاغية.

كان ذلك الجانب مليئاً بأشجار (القريب فروت) والمانجو وفصائل نادرة من أشجار النخيل. وبمحازاة الحديقة الخضراء التى كانت تقوم فيها هذه الأشجار كان يتمدد مبنى مشيد بالطوب الأحمر له باب واحد كبير ونوافذ صغيرة متعددة قريبة من السقف على جانبيه. وكان المبنى يظل مغلقا طوال الوقت.. ولم يكن ليفتح الا فى فترات متباعدة . فقد كان المبنى يضم مجموعة كبيرة من الجماجم البشرية التى تم العثور عليها أثناء قيام التنقيب عن الآثار بعملها فى بعض المواقع التاريخية بأنحاء السودان المختلفة، وكانت الجماجم مرصوصة على مناضد بطول المبنى فى صفين متقابلين يفصل بينهما ممر يمكّن الزائر من التجول بيسر.

وفى أعلى المبنى من الداخل كانت عشرات الخفافيش السوداء تلتصق

بالجدران ورؤوسها متجهة الى أسفل !.... وما أن يفتح الباب ويدخل أول شعاع من الضوء حتى كانت الخفافيش تضطرب وتأخذ فى الطيران بلا هدى فوق رؤوس الداخلين! أما فى الليل وبمجرد حلول الظلام فإنها كانت تخرج من مخابئها عبر فتحات بالسقف، وتنتشر بأعداد كبيرة فى الحديقة الشرقية للمتحف. وهنا.. كان يبدأ العالم الاسطورى فى التكوين!.

القمر وضوؤه الفضى المنسكب على أشجار الحديقة والخفافيش التى تطير فى كل الاتجاهات.. والظلال المنتشره هنا وهناك خلف الأغصان الكثيفة.. والمبنى الذى يضم الجماجم البشرية.. و (دراكيولا) مصاص الدماء الذى يشبه خفاشاً عملاقاً والذى كانت أفلامه فى تلك الأيام تلهب خيالى وأخيلة أبناء جيلى بما كانت تقدمه من مشاهد مرعبة وخوارق غريبة يقوم بها (دراكيولا) عند اكتمال البدر!! كان عالماً اسطورياً فريداً توافرت له كل عناصر الاثارة والتشويق!

كل الفصول كان لها طعمها الخاص فى المتحف.. ولكن أروعها على الإطلاق كان فصل الخريف. فعندما تهطل الأمطار وتغسل قمم الأشجار والجدران والحشائش كان يضوع عبق حلو حاملا أريج الورود والأزاهير وشذى أوراق أشجار الليمون والبرتقال واليوسفى والمانجو ويتحول المكان الى مهرجان نادر للعطور!

مشهد شارع (كشنر)... النيل حالياً.. وكذلك مشهد جسر النيل الأزرق خلال هطول الأمطار كان ساحرا وأخاذا الى حد بعيد. أما مشهد سباق القوارب الصغيرة ذات الأشرعة الخضراء والحمراء والزرقاء والبيضاء وهى تنساب فى روعة على صفحة النيل فكان يبعث فى نفوسنا فيضاً من الفرح والابتهاج.

عند القيلولة كان من المألوف أن نسمع كل يوم، ونحن داخل فناء المتحف أصوات ضرب كرات (التنس).. الصادرة من المنزل المجاور للمتحف من الجهة الشرقية. (وتشغل المنزل الآن) مكاتب (نائب مدير جامعة الخرطوم).. وقد تعاقب على هذا المنزل خلال مدة إقامتنا هناك عدد من البريطانيين؛ وكانوا على التوالى: المستر (جيلان) السكرتير الإدارى الأسبق والذى كان يحل محل الحاكم العام عند تغيبه بالإجازة فالمستر (وليمز) مدير المعارف فالمستر (روزفير) الذى خلفه فى المنصب وأخيراً المستر (ولشر) آخر مدير بريطانى لكلية الخرطوم الجامعية. وكانت ابنته (سوزان) وابنه (روجى) يشاركان اخوتى الصغار اللعب بمنزلهم حيناً وبمنزلنا فى أحيان أخرى.

وفى نفس تلك الفترة تعاقب على إدارة المتحف وشئون الآثار عدد من البريطانيين كان أولهم: المستر (جرابهام) وهو أساساً جيولوجى وكانت له اهتمامات بعلم الآثار. تلاه المستر آركل فالمستر شينى فالاستاذ ثابت حسن ثابت، وكان أول سودانى يتولى هذا المنصب.

استميح القارىء العزيز عذرا إن افضت فى الحديث عن (عالم متحف الآثار القديم).. فقضاء أكثر من ربع قرن من الزمان فى مثل ذلك المكان الفريد ليس بالشيء الذى يمكن أن ينسى أو يمحى من الذاكرة. وقد أثار كتاب (كل شيء ممكن) حتى قبل إن اطلع عليه ما كان كامناً من الأشجان وأحيا فى ذهنى من جديد ذلك العالم الزاهى الجميل بكل بهائه وسحره!

إن ما كتبته عن ذلك المكان الرائع ما هو؛ إلا لمحة عابرة واشارة خاطفة

الى (عالم) يستحق الكتابة عنه بتوسع واسهاب. وهذا هو ما أنوى القيام به فى عمل أدبى منفصل آمل أن يرى النور قريبا.

بعد اطلاعى على هذا الكتاب وجدت نفسى أكثر تعلقا به. فالبروفسور (أليك بوتر).. مؤلف الكتاب رجل قد شغف حباً بالسودان والسودانيين. فهو عندما يتحدث عن الأماكن والمدن والناس فى السودان يتحدث عنها وعنهم بحب وود صادقين. وعندما يتحدث عن طلابه بقسم المعمار فهو لايشير اليهم الا (بالأولاد)و... (أولادنا). وعندما خاطبه بعد عودته الى بلاده أحد طلاب المعمار الجدد قائلا:

- (يا جدى) كانت سعادته لتلك المخاطبة غامرة!

ولأول مرة أعرف ويعرف كثيرون غيرى الجهد والعناء العظيمين اللذين بُذلا فى تصميم واقامة (قاعة الامتحانات الكبرى) بجامعة الخرطوم بعد أن أوكل ذلك الأمر إلى البروفسور أليك بوتر. فالاستعدادات والخطوات التمهيدية التى سبقت قيام القاعة.. تسجل ملحمة رائعة من ملاحم الإخلاص والتفانى والمثابرة وتقدير المسؤولية وأبطالها هم: البروفسور (بوتر) والاداريون السودانيون الذين كانوا معه بالجامعة آنذاك مما سيجده القارىء مفصلاً على صفحات هذا الكتاب.

لقد أهدى البروفسور (أليك بوتر) الى السودان كنزا بشرياً ثميناً .. حق لنا أن نفخر به ونعتز .. تمثَّل فى ذلك الجيل والأجيال التى تلته من المعماريين المقتدرين الذين تخرجوا على يديه، وعلى أيدى طلابه من المتخرجين الذين حملوا الراية من بعده.. والذين نشاهد صباح مساء بصماتهم واضحة وجلية فى ما أبدعوه من روائع المعمار فى العاصمة،

وبقية المدن السودانية. وقد يعجب القارئ عندما يعلم بأن للبروفسور (بوتر) رغم عقليته العلمية القاطعة اسلوبا شيقا وجذابا فى الكتابة يرّق... ويشقّ فى بعض الأحيان. حتى يتحول الى لغة شعرية كاملة! ويتمتع (بوتر) كذلك بموهبة الروائى المتمكن المولع بالتفاصيل الدقيقة. وخلال تقديمه لبعض الأحداث وعرضه لبعض المواقف يذكّر اسلوبه بطريقة المخرج المعروف (الفريد هتشكوك)!! ويتضح ذلك بجلاء في (حصار سواكن) و [لغز الصوت الغريب] وغيرهما!، أما زوجته الفنانة التشكيلية (مارقريت).. فقد أثرت الكتاب بلوحاتها الفنية الرائعة وأضفت عليه الكثير بلمسات ريشتها المبدعة.

إن ما دفعنى الى القيام بترجمة بعض فصول هذا الكتاب ونشرها على صفحات جريدة (الأيام) هو اعجابى الشديد بكثير مما جاء فيه. وخلال تلك الفترة اتصل بى الدكتور عبد الحليم عوض وهو من طلاب (بوتر) النوابغ.. وقد ورد اسمه في الكتاب مرات عديدة؛ وكان يشغل آنذاك منصب مدير إدارة التصميم المعمارى بوزارة الأشغال وأبلغنى برغبة البروفسور (بوتر) فيما اذا كنت أوافق على ترجمة بقية الفصول لتصدر مجتمعة فى كتاب. وقد أعطيت موافقتى على ذلك.. وكان البروفسور (بوتر) قد علم من الدكتور عبد الحليم عوض.. عندما كان فى إحدى اجازاته بالمملكة المتحدة.. نبأ ترجمتى لبعض فصول الكتاب فاغتبط كثيراً لذلك. وطلب منه ابلاغى بتلك الرغبة التى سلف ذكرها.

لقد قمت بترجمة ستة عشرة فصلا من فصول الكتاب البالغة ثمانية عشر فصلا، ولم استثن من الترجمة الا الفصلين السابع عشر والثامن

عشر لاعتقادى بأن معظم ما جاء فيهما ربما لا يهم القارىء السودانى والقارىء العربى كثيرا.. وليقينى بأن اغفالهما لن يؤثر بحال من الأحوال على القيمة الكبيرة لهذا الكتاب المهم.

فى نهاية الفصل الثامن عشر وهو آخر فصول الكتاب... كان تأثرى بالغاً.. ووقفت كثيرا عند الجملة التى اختتم بها البروفسور (بوتر) كتابه.

قال (بوتر): (... وعدنا نهائياً إلى المملكة المتحدة بعد انقضاء فترة عملنا بالسودان، وكان ذلك عشية أحد أعياد الميلاد. وكان (جوفرى هتون) أحد طلابنا السابقين فى (XULL) والذى كان ينتظرنا بمطار (هثرو) قد اصطحبنا معه فى سيارته، التى كان يقودها ببطء فى شارع (اكسفورد) وشارع (ريجنت) حتى PICCADILLY CIRCIS لكى نتمكن من مشاهدة (اضاءات الزينة). آلاف الناس كانوا يدورون فى جنون وهم يبحثون عن الهدايا التى سيقومون بشرائها فى اللحظات الأخيرة.

كنا سعداء. ولو أن السودان طاف بأذهاننا فى تلك اللحظة لبدا بعيدا عنا (بملايين) الأميال!! ولكن.. فيما بعد فقط تبين لنا الى أى مدى سوف يصبح السودان قريبا منا الى نهاية سنوات العمر!!).

وفى الختام لابد لى من الإشادة بهذا الكتاب القيم الذى انطلق مؤلفاه من حب حقيقى للسودان وأهله.. والذى كشف لنا الكثير من خفايا تاريخنا القديم والحديث وسلط الضوء على العديد من عاداتنا وتقاليدنا السمحة التى يجدر بنا الحفاظ عليها وعدم التفريط فيها.

الزبير على

مقدمة الطبعة الإنجليزية

بعد هبوط الطائرة القادمة من أوروبا في وادى حلفا ونزول الركاب العائدين من الإجازة الصيفية من على متنها وُوجه هؤلاء الركاب بموجة صاعقة من الحر. كان حراً شديداً لافحاً تلاشت فيه أشكال المبانى والصخور والحجارة تحت (وميض ضبابى) غريب. وكان نهر النيل ينساب فى سلام عبر رمال الصحراء التى كانت تشوى الأقلام رغم انتعال الأحذية.

أما ضفتا النهر فقد لونتهما بخضرة داكنة أشجار النخيل الكثيفة والمساحات الشاسعة المزروعة على الجانبين. وكان على المسافرين فى مثل ذلك الطقس الملتهب إما مواصلة السفر بالطائرة الى الخرطوم التى هى أقل حرارة الى حد ما وإما استقلال القطار اليه فى رحلة تستغرق سبعا وعشرين ساعة. كان عام عمل آخر على وشك أن يبدأ.

فى أعقاب أحداث حرب النهر فى عام ١٨٩٩ أصبح السودان تحت الحكم الثنائى لبريطانيا ومصر حتى نال استقلاله فى عام ١٩٥٦ . وخلال حوالى ستين عاما عمل البريطانيون هناك، وانشأوا الخدمة المدنية والسياسية والقضائية والخدمات الطبية، وقاموا بالتدريس فى كلية غردون التى أصبحت فيما بعد (جامعة الخرطوم).

لم يكن بالسودان مستوطنون أجانب فالأرض ملك للشعب عن طريق الحكومة؛ ولذلك فإن هؤلاء الأجانب كانوا يُعتبرون ضيوفا عابرين حتى ولو

قضوا خمسة وعشرين عاما بالبلاد.

وبخلاف الانجليز كانت توجد جنسيات أخرى من العديد من البلدان المتاخمة للبحر الأبيض المتوسط. فقد كان هنالك اغريق وأتراك ومصريون ولبنانيون وقبارصة وأرمن وايطاليون. وكان معظم هؤلاء تجارا ورجال أعمال ومهنيين.

ومن بين البريطانيين (الذين استطيع أن أتحدث عنهم) أصبح كثيرون متعلقين بهذه البلاد وبأهلها من السودانيين. كان كل الانجليز الذين يلحقون بالعمل فى حكومة السودان يشجعون على تعلم لغة المنطقة التى يعملون فيها. اللغة العربية فى الشمال والوسط، وخليط من اللغات المحلية فى الجنوب والغرب. وكان على اولئك الذين يعملون بالأقالم كمديرين ومفتشى مراكز اجتياز امتحان فى لغة محلية إن كان أحدهم يطمع فى الترقى.

ونتيجة لهذا ذهب هؤلاء الاداريون الى الناس فى مناطقهم للتعرف عليهم والالمام بأساليب حياتهم وعاداتهم. ووجد كثيرون منهم متعة كبرى فى ذلك ورضا وارتياحا لما يقومون به من أعمال.

أما اولئك الذين كانت تخصصاتهم تقتضى منهم أن يعملوا خارج مدينة الخرطوم وفى الأرياف فقد كانوا يستمتعون بمشاهدة المناظر الطبيعية المتنوعة، والالتقاء بالناس فى الأسواق أو اثناء تنقلهم على ظهور الجمال والحمير المحملة بالأعلاف. وكانوا كذلك يتفقدون الحقول والمزارع على طول ضفتى النهر. واحيانا كانوا يقضون الليل عند أحد وجهاء البلدة. ويتأملون الصحارى الموحشة التى تكتنفها الأسرار فى الشمال أو الغابات ومناطق السافنا فى الجنوب.

كان البريطانيون الذى يقتصر عملهم داخل مدينة الخرطوم هم عادة من المهنيين. اقتصاديون وخبراء احصاء ومعلمون وقانونيون واداريون بالسكك الحديدية وخطوط الطيران. وكثيرون منهم كانوا يعملون بالخدمات الطبية.

وكانت الخرطوم مدينة (اصطناعية) تضم بين حناياها دواوين الحكومة ومنازل الموظفين والمتاجر وعددا من الشركات الخاصة. وكانت الخضرة تزركشها من الحدائق وأشجار الظل المغروسة على جانبى الطرقات.

قليلون هم السودانيون الذين كانوا يعيشون فى الخرطوم إذ كان معظمهم يسكنون أم درمان. وكانت هجرة الموظفين اليومية لأم درمان بعد انتهاء ساعات العمل فى الثانية بعد الظهر عبر جسر النيل الأبيض. تحدث ضجة كبرى تتسبب فيها حركة السيارات والتاكسيات والباصات وقعقعة مركبات الترام.

كانت الخرطوم مدينة للأجانب من كل الجنسيات. وكان لكل جنسية ناديها الخاص بها.. ونادراً ما كانوا يختلطون ببعضهم البعض. ولكن بعد الحرب العالمية الثانية حدث شيء من التغيير فى هذا الجانب.

وخلال هذه الأعوام وكما كان متوقعا أخذت المشاعر الوطنية تنمو فى نفوس السودانيين فأنشأوا الأحزاب السياسية. وفى اوائل عام ١٩٥٠ كان واضحا أن السودان سينال استقلاله وحريته فى وقت قريب. وقد أحدث هذا تغييرات ما فى الجو العام. اذ تحول الترحيب الحار الذى كان سائداً الى نوع من التهذيب الفاتر حتى فى الأرياف!

فى الأول من يناير عام ١٩٥٦ نال السودان استقلاله وكوّن

السودانيون حكومتهم التى بسطت سلطتها على جميع ارجاء البلاد. وكان البريطانيون قد بذلوا جهدهم لإعداد السودانيين لتولى المناصب القيادية العليا فى الخدمة المدنية. وكان بعضهم قد تولاها بالفعل. أما العمل اليومى فى المصالح الحكومية فقد كان يؤديه سودانيون منذ أعوام طويلة.

كانت هناك أعداد كبيرة من متخرجى جامعة الخرطوم من السودانيين. وكان بعضهم قد تلقوا تدريباً فى الخارج؛ وعادوا وهو يحملون الدرجات العلمية والدبلومات من جامعات وراء البحار.

وفى معظم الحالات كان يتوافر الموظف السودانى المؤهل، والكفء الذى كان يتسلم أعباء المناصب العليا التى كان يشغلها البريطانيون (الذين كان عليهم ان يغادروا البلاد خلال عام ١٩٥٥). وفى الحالات القليلة التى لم يكن يتوافر فيها موظف سودانى لشغل منصب ما كان يستعاض عنه بموظف أجنبى من غير البريطانيين يتم التعاقد معه لفترة قصيرة..

فى الجامعة كان الاساتذة السودانيون يعملون جنبا الى جنب مع الاساتذة البريطانيين لعدة سنوات. وكانت لغة التدريس فى الجامعة هى الانجليزية باستثناء مواد الدين الاسلامى الأساسية كالتوحيد والفقه.

واعتقد بأنه لن يكون من الحقيقة فى شىء القول بأن الإداريين البريطانيين غادروا السودان دون أن يتركوا وراءهم بعض الاخفاقات. خاصة بعد أن أحسوا فى النهاية بأن ما بقى من الوقت كان قصيراً جداً ولم يكن كافيا لإعداد السودانيين لملء جميع المناصب ذات المسؤوليات الجسيمة.

وعلى كل فإن السودانيين كانوا قد عقدوا العزم على تولى مقاليد الحكم لأن هذه هى بلادهم وأن عليهم إدارتها حتى ولو وقعت بعض الأخطاء فى البداية. وفى الواقع يبدو أن الأحوال سارت بصورة حسنة جدا رغم تغيير الحكومات بين الحين والآخر وفى الوقت الذى جاء فيه آل بوتر الى السودان فى عام ١٩٥٧ كان الحماس الدافق الذى زامل الاستقلال قد أخذ يفتر ليحل محله بجلاء جو من اليقين والثقة بالنفس.

سيكتشف قراء كتاب (كل شيء ممكن) كيف استمتع آل بوتر إلى أبعد مدى بالسنوات التى قضوها بالسودان، وكيف تعلموا وخبروا الكثير عن السودان وأهله، وكيف كان زملاؤهم من الأساتذة السودانيين بالجامعة متعاونين وودودين وذوى مروءة. وسيكتشف القراء كذلك كيف ان آل بوتر صمموا على الترحال فى أرجاء البلاد بقدر ما تسمح به شروط التعاقد ليشاهدوا ويسمعوا بأنفسهم. لقد كانت فترة عزيزة وحميمة بالنسبة اليهم.

وكأستاذ مؤسس لكلية المعمار بجامعة الخرطوم فقد ركز «البروفسور أليك بوتر» كثيرا من اهتمامه على دراسة أساليب وتصاميم المبانى المحلية بالسودان قديمها وحديثها. وكان صاحب مبادرة عملية ونشطة فى هذا المجال. وتقف (قاعة الامتحانات) التى صممها بالتعاون مع (عزرا ليفن) خير شاهد على روح الخلق والإبداع التى يتمتع بها. فقد تم تشييد هذا المبنى الرائع بأكمله تقريباً من الطوب الأحمر وخشب المهوقنى السودانى. وبدا سقف القاعة بالطريقة التى صمم بها وكأنه يرفع المبنى من فوق سطح الأض! وفى الداخل زيِّنت جدران القاعة بزخارف ضخمة من الخط العربى الجميل.

ان مارقريت زوجة البروفسير «أليك بوتر» فنانة تشكيلية يظهر حبها للسودان والسودانيين جليا فى رسوماتها المرهفة، وفى الموضوعات التى تختارها بحدسها الملهم وفى أعمالها الفنية التى تنم عن موهبة عظيمة.

لقد قاد حب آل بوتر للسودان وكرمهم وصلاتهم الحميمة الى نشوء صداقات دائمة مع زملائهم من الأساتذة السودانيين ومع طلبتهم القدامى الذين لا يزالون حتى اليوم يزورونهم بمنزلهم بويلز.

يمر السودان الآن بأوقات عصيبة مثله فى ذلك مثل كثير من الدولة النامية التى تحدق بها المشاكل الاقتصادية.. ويؤدى نقص الوقود والمواد الخام الأساسية فيها الى ابطاء نموها وتطورها. هذا اضافة الى الوضع فى جنوب السودان، والذى كانت تسويته قد تمت مؤقتا فى عام ١٩٧٠ ليعود ويتفاقم من جديد بسبب عدم رضا الجنوبيين.

كذلك ضاعف من حجم المعاناة تدفق آلاف اللاجئين من الدول المجاورة الى السودان عبر حدوده المضيافة أبداً بحثا عن المأوى والغذاء والعناية الطبية وهذه جميعها ليس بالامكان توفير الحد الأدنى منها.

المشاريع الطموحة للسكر والمنتجات الزراعية تتقدم بخطوات بطيئة وذلك على الأرجح؛ بسبب شح الاعتمادات المالية وبيع الصبية الصغار للناس فى أسواق الخرطوم الأكياس التى اعدت أصلا لمشروع سكر «كنانة» ليحملوا فى داخلها مشترياتهم لأن كميات السكر المنتجة قليلة بحيث لاتحتاج لكل هذا العدد من الأكياس! (*)

(*) لقد فات على السيدة مارقريت شينى أن تدرك بأن الأكياس التي كان يبيعها الصبية هي اكياس مستعملة سبق ان ملئت بالسكر من قبل وليست اكياس جديدة كما خيل اليها! (ز. ع)

قليلون جدا من الأجانب كتبوا عن السنوات التى قضوها بالسودان. وكتاب (كل شىء ممكن) يساعد على تلافى هذا النقص ويعمل على سد هذا الفراغ. وبدون شك فإن هذا الكتاب سيكون فى غاية الامتاع لاولئك القراء الذين لا يعرفون شيئا عن السودان. أما بالنسبة للقراء الذى عاشوا فى السودان من قبل فانه سيعيد لهم بكل تأكيد أحلى الذكريات وسيبعث فى نفوسهم مجددا حنينا جارفا لماضى حياتهم بالسودان.

مافريت شينى

عالمة آثار بالسودان فى الخمسينات

مساعدة رئيس تحرير المجلة الجغرافية

للجمعية الجغرافية الملكية بالمملكة المتحدة الآن

مقدمة الناشر

يبدو أن البناء جزء من خصائص الأمم. فعندما تخرج أمة ما الى حيز الوجود يميل مؤرخوها للإشارة الى مؤسسيها بالبناة والى قادتها بالمخططين. ومتى ما تحقق الاستقلال فأن المقدرة على البناء تصبح لدى تلك الدول إحدى العلامات المميزة للحرية وعنصرا من عناصر احترام الذات والاعتزاز بالقومية لا يقل أهمية عن امتلاك قوات مسلحة وخطوط طيران عالمية خاصة بها.

ومما يبرز شدة اعتداد أمة ما بنفسها وهى تبنى وتشيد؛ تمتعها بلغتها الوطنية وبموادها المحلية التى يمكن استخدامها وتطويرها. ربما كانت هذه الحقائق تدور بشكل خفى فى ذهن (أليك بوتر) عندما وجد نفسه.. ولدهشته.. وقد عين فى منتصف الخمسينات أول استاذ للمعمار بالسودان وعهد إليه انشاء (قسم للمعمار) بجامعة الخرطوم.

كانت كل أفكار (بوتر) تجد استجابة لدى زوجته (مارقريت) .... ومن أجل هذا يصر أصدقاؤها على أن الأثنين يفكران كشخص واحد !! وفى الحقيقة لم يتوافر لبوتر وزوجته... الوقت الكافى الذى يمكن من خلاله ايجاد تبرير نظرى لما يمكن أن نسميه (قفزة فى الظلام!!). وانطلقت الأحداث نحو هما وبقربهما حتى تلاشت فى صورة ضبابية وأصبح رحيلها أمراً واقعاً.

وفى ظهيرة يوم سبت حار من أغسطس عام ١٩٥٧ القى (أليك بوتر)

محاضرة فى فرع (جمعية الجورجيين) فى (HULL) عن بعض سمات الطراز المعمارى الايطالى الذى كان سائدا فى عصر النهضة الاوربية. بعدها اندفع الزوجان الى منزلهما لأخذ أشيائهما ... الضروية وايداعها (حقائب الظهر) واغلاق الباب نهائيا على مشهد (مرفأ السفن) فى (HULL)... والذى كان مصدر بهجة لهما طوال الأعوام الثمانية الأخيرة.

وكان عليهما كذلك أن يقرآ للمرة الأخيرة النقش الباهت الذى يحمل شعاراً يقول (PLAIN FARE FOR PLAIN FOLKS) فوق جدران مطعم (سام) الشعبى الذى يقع فى الجوار وبقية أسماء الأماكن المكتوبة باللهجة الانجليزية الشرقية القديمة مثل: (OMARDYKE SI GNAL BOX, GILGERDYKE JUNCTION) الى أن يصلا فى النهاية إلى منطقة (هثرو) حيث مجموعة الأكواخ المختبئة خلف الأسيجة المبقّعة بالوحل.

ولهثرو.. مسقط رأس مارقريت.. سحر خاص فى نفسها يجعلها قادرة على استعادة مشاهد زهور أشجار الكرز المثمرة والسنديان وغيرها.

وعندما كانت المضيفة الجوية.. داخل الطائرة.. تحمل اطباقها .. اختفى مشهد مرفأ السفن فى (HULL)، وأصبحت افريقيا هى الوجهة المقصودة ومدار التفكير، وفى بنغازى تحولت كلمة افريقيا الى واقع حى. وبعد الهبوط فى مدرج ملىء بالمطبات ومضاء بلمبات تعمل بالكيروسين وترسل ضوءا كان يخفق فى جنون استقرت الطائرة أخيراً على الأرض.

وبمجرد أن فتح باب الطائرة اجتاحت أرجاءها روائح حلوة ونفاذة.

وبعد طيران لانهائى فى عمق الظلام بدت اضواء منثورة كيفما اتفق لتكشف عن مدينة أم درمان! وبعد لحظات بدأ الشكل الهندسى لمدينة الخرطوم التى خططها اللورد «كتشنر» وصمم طرقاتها لتكون على هيئة (اليونيون جاك)!

وفى وهج الفجر القرنفلى ظهر الزوجان [مارقريت وأليك) وقام بتحيتهما السائق الخاص الذى كان فى انتظارهما وهو يرتدى زيا شديد البياض وقادهما الى حيث تقف سيارته (الليموزين).

بدت (HULL) الآن على مبعدة دهور! ترى هل حدث على الاطلاق فى سنوات التدريس الثمانى السابقة فى (HULL) وقبلها فى (ليفربول) شىء يمكن تصوره أو تخيله؛ وتكون له صلة بهذا القطر حديث الاستقلال؟!

لقد كان هذا القطر حتى قبل عام واحد من هذا التاريخ (١٩٥٧).. ولمدة ستين عاما خلت تحت الحكم البريطانى، ولقد أشرقت الشمس وغربت على ذلك السؤال مرات عديدة قبل أن تخلد الى الراحة!

أتيح للطلاب الذين كانوا يدرسون العلوم بجامعة الخرطوم توطئة للاختيار بين الهندسة أو الطب خيار ثالث هو (المعمار) ولكن لم يكن بالسودان آنذاك أى أساس أكاديمى لعلم (المعمار) ولم تكن هناك حتى فى اللغة المحلية.. كلمة يمكن أن تميِّز بين المعمارى والمهندس! ولا عجب! فبعد أن قُدمت الخيارات لم يكن بالقسم الجديد الذى أسسه البروفسير «أليك بوتر» أكثر من أربعة طلاب!!

ليس من بين أغراض هذا الكتاب إبراز الدور العظيم الذى لعبه (قسم المعمار) بجامعة الخرطوم... رغم بدايته المتواضعة.. خلال الأعوام السبعة أو الثمانية التالية لإنشائه ... فى تأسيس قاعدة راسخة ومزدهرة للمعمار فى السودان... وتطورها فيما بعد الى واحدة من المراكز الرئيسية لتعليم المعمار فى العالم الاسلامى!

وربما يُستشف شىء من هذا المعنى بين السطور .... ولكن الشىء الجوهرى والأساسى فى الروايات التى أوردها هذا الكتاب هو: اهتمامها (بالتعلُّم) أكثر من اهتمامها (بالتدريس)!

إنها تروى كيف اكتشف آل بوتر العديد من النفائس فى السودان. فى الحياة وفى العادات والتقاليد وفى الآثار التاريخية وقبل كل شىء فى الصلات الانسانية!؟.

جولة ملوكية فى سوق أم درمان!

التقينا بحسن العتبانى لأول مرة بعد أيام قلية من وصولنا للسودان وكان حسن يعمل آنذاك (فى عام ١٩٥٧) كبيرا للمهندسين المعماريين بوزارة الأشغال.

ورغم أن عملى استاذاً للمعمار بالجامعة كان عملا مستقلا تماما عن وزارته فإن حسن كما اعتقد كان يشعر بأننا ربما نكون بحاجة لبعض العون الأخوى. فلم يمض وقت طويل على تعرفنا به حتى قال لنا بصورة لم تترك لدينا أدنى شك فى صدق ما يقول بانه سيكون سعيدا حقا باصطحابنا بعد ظهر ذلك اليوم الى مدينة ام درمان.

لقد كانت أم درمان ولا تزال مكانا رائعا للتسويق والشراء. كل ما كان يعرض للبيع كان صناعة محلية أو محصولا من محاصيل البلاد. السمكرية يصنعون من علب الصفيح المستعملة أباريق وأوانى مختلفة ذات طابع عربى. وصناع الأثاث يشكلون أرجل العنا قريب والكراسى بمخارط تدار بوساطة خيوط موصلة مع أصبع القدم الكبير.

والصاغة الذين يعملون فى الذهب يحوِلُون المعدن الذى أمامهم بمطارقهم الدقيقة إلى اشكال من العقود والحلى يتعذر تمييزها عن تلك العقود، والحلى التى تم اكتشافها فى المقابر النيلية القديمة!!

إن سوق أم درمان مليئة بصنوف متعددة من المعروضات إلى جانب المواد الغذائية والليمون والقريب فروت والمانجو والفول السودانى وغيرها. ويحضر صغار الزراع منتجاتهم هذه داخل سلال تتدلى من جانبى سروج

الحمير، ثم توضع بعد ذلك على مساحة صغيرة من الأرض المفروشة بالرمال وهى تشكل مكان البيع لكثيرين منهم.

وتجولنا داخل السوق مع حسن عتبانى الذى كان محبا للناس وكثيرا ماكان يتبسط معهم فى الحديث، ويداعبهم ويضحك معهم. ووقفنا أمام سيدة لم يكن متجرها الصغير يختلف عن تلك المتاجر التى تعرض مجموعات من الخرز الملّون والبلُّور الصخرى، والتى شملت كل الألوان التى يمكن تخيلها. فهناك الأصفر والذهبى والكاكاوى والكهرمانى والوردى والأحمر والاخضر إلا أن معروضات السيدة كانت قليلة جدا برغم تشابه المتاجر (مساحة الأرض الصغيرة التى تحتلها وتفرش عليها بضاعتها).

كانت أمامها على طبق من السعف أنواع من الحلوى وحب (عباد الشمس) الجاف وأربع خرزات ذات حجم كبير ولون أزرق جذاب شديد الزرقة. وأحس حسن باعجاب «مارقريت» الواضح بالخرزات فاشتراها وأهداها لها. ولكن «مارقريت» مانعت كثيرا من تقبل الهدية ولم توافق على ذلك الا بعد أن قال لها حسن : تقبليها . إنها لا شىء... مجرد زجاج لا أكثر.

أن طريقة حسن فى التسوُّق كانت مطابقة تماماً للأحرف الأولى من اسمه ح. م عتبانى (H.M) أى صاحب الجلالة بالانجليزية! فقد كانت جولتنا فى سوق أم درمان فى ذلك الصباح ذات طابع ملوكى!

وعندما دخلنا السيارة فى طريق العودة للخرطوم خاطب حسن مارقريت قائلا: إن تقلدك لعقد من الخرز الأزرق يدفع عنك الأرواح الشريرة! فاللون الأزرق وحده هو الذى يتمتع بهذه الميزة السحرية! وكنت

أشك أن كان حسن يعتقد حقا فيما يقول. ولكن بعد أن عبرنا جسر النيل الأبيض فى رحلة يقف لها شعر الرأس، والسيارة تنطلق بنا بأقصى سرعة بين الدواب ومركبات الترام العتيقة متفادية فى مرات لا تحصى الاصطدام بعربات التاكسى.. عندها فقد كان العذر فى أن أكون أقل شكاً فى ما يعتقده حسن. خاصة أن لون مقدمة سيارته التى أوصلتنا بسلام وسط خضم المخاطر كان هو اللون الأزرق شديد الزرقة!!

بعد انقضاء حوالى اثنى عشر شهراً تقريبا على جولتنا بمدينة أم درمان. كنت فى زيارة لحسن عتبانى بمكان عمله بوزارة الاشغال العامة. كان مكتب حسن يحتل أحد الأركان الداخلية للساحة ذات الاضلاع الرباعية بالمبنى الجميل، الذى صممه مهندسو الجيش الملكى البريطانى فى اوائل هذا القرن. ويجاور هذا المبنى قصر الحاكم العام مباشرة ويطل على النيل الأزرق.

سألت حسن عن أيامه الأولى للعمل بمصلحة الأشغال فذكر لى أنه فى الفترة بين الحربين العالميتين انشىء قسم المبانى بمصلحة الأشغال على أيدى اثنين من المهندسين المعماريين البريطانيين هما: «المستر برد جمان، والمستر فرانسيس».

اختار المستر «فرانسيس» اثنين من المتخرجين الجدد فى كلية غردون للعمل معه وكنت أحدهما. وتلقيت على يديه (عامين كاملين) من الدراسة والتدريب. لقد كان المستر «فرانسيس» رجلا قاسيا.. ولكنه (وأردف بسرعة فالسودانيون كما عرفتهم لا يئنون من المصاعب)... كان يجب أن يكون قاسيا ويستطيع المرء أن يتفهم ذلك.

استرسل حسن قائلا: إن المستر «فرانسيس» أعطاه مرة (خارطة) لمدرسة وادى سيدنا، وكانت في ذلك الحين ذات طابق واحد وطلب منه أن يعد (خارطة) لطابق آخر للمبنى. ونفذ حسن (الخارطة) ولكن بمجرد أن ألقى عليها مستر «فرانسيس» نظرة قال له: لقد ارتكبت خطأ جسيما. ورد حسن عليه بقوله: لو عرفت الخطأ لقمت بتصحيحه. فسدد اليه المستر «فرانسيس» نظرة حادة وقال له: عليك أن تكتشف خطأك بنفسك.

وفعلاً اكتشف حسن الخطأ فى اليوم التالى بنفسه بعد جهد جهيد وصححه. وعندها قال له المستر «فرانسيس»: والآن كن واثقا يا حسن انك لن تقع مرة ثانية فى مثل هذا الخطأ. ويقول حسن: إنه بعد هذه الحادثة أحس بإغماءة مفاجئة وسقط من مقعده الخشبى المرتفع على الأرض وارتطم رأسه بالبلاط.

ويواصل حسن قائلا: إن الرجل ويقصد فرانسيس والذى كان قاسيا جدا معنا تحول فجأة فى تلك اللحظة الى شخص عاطفى لأبعد حد. حملنى بين ذراعيه الى مكتبه حيث صب على الجرح ماء باردا من (التيرموس) الذى يحتفظ فيه بالماء المثلّج فأوقف نزيف الدم وقال: لى لاتلمس أى شىء وابق مستريحاً على كرسيك. ... ثم نقلنى الى المستشفى حيث عولج الجرح بغرزتين فى الرأس.

ويقول حسن: ان فرانسيس ظل بعد ذلك ولمدة أربعة أيام يتفقد حالتى . ذات يوم كنا جلوسا حسن وأنا بمنزلنا رقم ١٧ شارع الجمهورية وهو من منازل الجامعة وكنت معجبا اعجابا عظيما بالمنزل وخاصة باعمدته

الرومانية التى تقف فى روعة وهى تسند سقف (البرندة) وسألت عن أصل المبنى وتاريخ تشييده.

ولدهشتى علمت أن المبنى حديث وليس قديما كما كنت اعتقد. فلقد بنى عام ١٩٣٦ . وقال حسن: إن مثل هذه الأعمدة الرومانية قد جلبت أصلا عام ١٩١١ من بريطانيا لبورتسودان لتزيين شوارعها اثناء زيارة الملك جورج الخامس والملكة مارى لبورتسودان فى ذلك العام وهما فى طريقهما الى الهند. وبعد انتهاء الزيارة أرسلت هذه الأعمدة التى الخرطوم للاستفادة منها فى بعض المبانى. وقد تم ذلك بالفعل. وكان المستر فرانسيس أول من قام بتصميم أعمدة على هذا الطراز بعد تصغير أبعادها ومقاساتها.

ميلاد مهنة المعمار بالسودان

كان بوسع أى متجول فى أسواق الخرطوم فى الخمسينات أن يدرك بأن السودانيين لم يكونوا غريبين عن فكرة التخصص. واذا استثنينا متجراً أو متجرين فإن المتاجر كانت تقتصر فى عرضها إما على سلعة واحدة أو على سلع محددة بعينها، وكانت كل مهنة تعلن عن نفسها بلافتة مكتوبة بخط اليد وتبدو بارزة من الزاوية اليمنى لواجهة المبنى وتختلف تلك اللافتات اختلافا كليا عن لافتات الزجاج البلاستيكى واعلانات (النيون) الضخمة التى ابتليت بها أسواقنا التجارية فى انجلترا!

لقد أحببنا تلك اللافتات السودانية وقمنا بعمل نسخ دقيقة لأكثرها جمالاً وجاذبية. ولمجاراة ما تتميز به مدينة الخرطوم من تعدد فى السلالات والأعراف فقد عكست اللافتات التهجئة واللفظ المناسبين لدى مجموعات متنوعة من الناس. وحتى فى حياتنا اليومية - على سبيل المثال - فإن أصدقاءنا من المتحدثين بالعربية كانوا عندما يخاطبوننا يقولون بروفسور (BOTTER) بدلا عن (POTTER) لأن حرف ال (P) ليس له مايقابله فى العربية وبالتالى كان من الصعب عليهم نطقه نطقاً صحيحا!

فحقيقة أن [المصنع الحديث للخيزران] [THE MOD-ERNFACTORY OF KHAZARAN] كان يقوم بتصنيع الكراسى لم يكن مفهوما لدى القارئ الذى لا يعرف العربية لأن كلمة خيزران لم تكن مترجمة فى اللافتة الى الانجليزية. ولكن الرسوم التى كانت تحملها اللافتة لعدد من الكراسى كانت هى التى توضح ذلك! أما لافتة صالة عرض (بومبى بازار) المكتوبة على هذا النحو:

BOMBAYBAZAR SHOW POOMS - OARPETS &]

[RUGS فكانت تلفت الأنظار لغرابة الكلمات المكتوبة فيها بخط جميل ومتقن ولكنها تستعصى على الفهم والادراك!

ومن بين اللافتات التى جذبت انتباهنا أيضا فى الخرطوم فى ذلك الحين. لافتة (جراج بوهية شعبان عبد الوهاب للسيارات والموبليات) وقامت مارقريت بنقلها على الورق بعناية.

فيما يتعلق بتجارة التجزئة فى الخرطوم فإن (التخصص) كان هو السمة السائدة. ولكن الأمر كان يختلف تماماً فى مجال تصميم المنازل والمبانى العامة. فحتى ذلك الوقت لم يكن هناك تعريف محدد لمهنة من يقوم بالعمليات الحسابية للضغط والتمديد والإحكام والشد ومهنة ذلك الذى يقوم بتنسيق المساحات واعداد المباني بحيث تروق للعين والعقل معا.. إذ كان يطلق على كليهما كلمة (مهندس)!، وكان كل من يود الحصول على أية استشارة تتعلق بمسائل البناء يلجأ الى (مهندس) ويحدث ذلك أحيانا فى غير مجال البناء. فقد روى لى أحد طلابى: بكلية المعمار أنه كان عائدا ذات مرة من قريته فى أحد الأقاليم البعيدة على ظهر شاحنة كبيرة مع مجموعة من الناس. وعندما تعطلت الشاحنة وتوقفت عن السير.. اتجهت اليه جميع الانظار.. بعد أن أعلن أحد معارفه بأنه (مهندس) آملين أن يقوم باصلاح الماكينة المتعطلة. ولم لا ؟! أليس مهندسا ؟!.

إن كلمة [MUHANDIS] العربية يمكن ترجمتها الى الانجليزية على وجه التقريب بكلمة [ENGINEER] ولو أن هذا المعنى غير دقيق

ومضلل لأن كلمة مهندس عندهم تعنى (صانع الأشياء) تماما مثل كلمة (مسترى) (MISTRI) فى الهند!.

فى مجال البناء لكل من المهندس المعمارى والمهندس المدنى جانب معين ومهم من العمل يعنى به ويقوم بتنفيذه.. ويكمل التخصصان بعضهما البعض. وبالطبع هذا هو الأسلوب الأمثل فى هندسة البناء.، ولكن ذلك قد لا يتوافر دائما فيقوم المهندس المدنى بكل العمل... ما يخصه وما يخص المهندس المعمارى. وهذا يتوقف على مقدرته وسعة أفقه.

ولقد كان من الغرابة بمكان أن الذى قام بالتصميم والاشراف على تشييد (القصر) بالخرطوم وأبدع هذا الحلم من (العقود) البيضاء الرائعة ودرجات السلم الخارجى العريضة والنوافذ الجميلة الواسعة لم يكن مهندسا معماريا؛ ولكنه كان مهندسا من مهندسى الجيش الملكى البريطانى حول نفسه الى معمارى عندما كلفه كتشنر بذلك!!

والمهندس هو الملازم الشاب (جورنج) والذى رقى فيما بعد الى رتبة (نقيب). وكون ان (جورنج) لم يجتز أى امتحان فى المعمار. ..... كان مشكلة بسيطة.. فهو أصلا لم يدرس المعمار !! فقد سلمه كتشنر عدداً من التصميمات المتنوعة، وطلب منه أن يختار من بينها ما يراه مناسباً . بعدها أحضر (جورنج) مجموعة من كتب المعمار من انجلترا للاستعانة بها. ويقول (جورنج) نفسه (أنه بمشاهدة تلك (الخرائط) والتفاصيل الموجودة فى كتب المعمار قام بتصميم القصر الجديد!...... ذلك القصر الذى يعطى مبناه المتين الهائل والمطل على النيل انطباعاً بأن الذين شيدوه قد أتوا ليبقوا!!

إن مشهد مدينة الخرطوم من النهر وقد احتضنتها الأشجار الخضراء الكثيفة لهو مشهد ساحر وفاتن.. خاصة عقب الوصول اليها بعد رحلة طويلة بالقطار عبر الكثبان الرملية الممتدة من وادى حلفا....

قام (جورنج) بعد أن توصل الى هذا الطراز من البناء بتصميم (خرائط) لعدد من المبانى الضخمة المواجهة للنيل الأزرق والموجودة حتى اليوم. وقد شارك (جورنج) كذلك فى العمل بمبنى كلية غردون التذكارية.. ذلك البناء الجميل الذى يشكل الآن قلب جامعة الخرطوم.

صمم خارطة الطابق الأرضى للكلية (فابريكياس بيه) المهندس المعمارى لخديوى مصر. وعلى أساسها قام (جورنج) بتصميم تلك السقوف الشاهقة المهيبة بعقوداتها الإسلامية البالغة الروعة.

وكان هذا المبنى.. هو ذات المبنى الذى وجدت نفسى فيه بعد سنوات وبالتحديد فى عام ١٩٥٧ وأنا اتحدث وأشرح لحشد من طلاب الهندسة الجدد فكرة حديثة وثورية الى حد ما. وكانت الفكرة تتلخص فى أنه من الآن فصاعدا سيتم تقسيم الطلاب الذين يدرسون (صناعة البناء) الى مجموعتين: معماريين ومهندسين مدنيين. وسيعنى المعماريون بالجوانب الجمالية والفنية والاجتماعية عند تصميم البناء.، بينما يعنى المهندسون المدنيون أساسا بالمشاكل المتزايدة المتعلقة بمتانة المبنى وثباته.

ولما كنا ننوى بذر فكرة المعمار فى تربة لم تعرفها من قبل.. كان لابد لنا قبل أن نبدأ ذلك اعطاء الطلاب الذين رشحناهم لدراسة المعمار... ومعظمهم كانوا من الأقاليم البعيدة.. بعض (الاستمارات) المعينة. وقد زودناهم فى تلك (الاستمارات) بمعلومات قليلة عن المعمار وطلبنا من

كل واحد منهم أن يبين فى الاستمارة خلفية مختصرة عن موطنه وعن اهتماماته وطموحاته فى المستقبل اذا قدر له أن يكون مهندسا معماريا.

بعض البسطاء من الطلاب وصفوا أنفسهم (بالمولعين بالجمال) أو بتعبيرات مشابهة.. ولكن الطالب عبد المطلب بلة من مركز الدويم كتب فى استمارته قائلا: اذا قدر لى أن أصبح مهندساً معماريا فإننى أكون قد تلقيت تدريبا فى مهنة تعنى بجعل الحياة أكثر راحة وبهجة.

وقال طالب: من الجريف انه يفكر فى دراسة العوامل المناخية والاجتماعية والاقتصادية ليستخلص منها أشياء تكون ذات فائدة لعامة الناس. وقال طالب آخر: إن المعماريين يعدون بين الشعراء والفنانين.. أولئك الذين يرشدون الناس ويقودونهم.. ويكونون دائما على صلة لصيقة بهم وبالتالى فهم فى خدمتهم فى جميع مناحى الحياة..

أما الطالب [برنارد بودا جيت] من واو فقد قال: - «إننى أتمنى أن اكون معماريا لأذهب الى أهلى فى الجنوب وأساعدهم فى تصميم وتشييد منازل أفضل ... تستطيع الصمود أمام الأعاصير العنيفة والأمطار الغزيرة». لقد كانت معظم الافادات الجميلة والرائعة من الطلاب القادمين من أقاصى البلاد.

فى السنوات الاولى للحكم الثنائى فى السودان أقيم نظام للتعليم كان يعنى أساسا بالمستويات الأولية. ولكن السودانيين أبدوا فى وقت قصير استعدادا طيبا لمستويات تعليمية أعلى. وبعد مد خطوط السكك الحديدية وشق قنوات الرى وادخال شبكة التلغراف وانشاء الموانىء والتى أعقبت الحرب العالمية الأولى.. برزت بوضوح الحاجة الملّحة الى مهندسين ذوى

كفاءة عالية من الطراز البريطانى. وقد أدى هذا الى قيام مدرسة عليا للهندسة فى الخرطوم وادخال نظام المنح الدراسية لتمكين السودانيين من تأهيل أنفسهم بالحصول على درجات علمية أعلى فى الهندسة من خارج البلاد.

وكان الذين حصلوا على مثل تلك الشهادات متخصصين عادة فى فرع واحد من هذه الفروع: كهرباء - ميكانيكا - هندسة مدنية - هندسة علم السوائل المتحركة (اليهدروليكا). وكانوا جميعهم يعتبرون أنفسهم مهندسين. ولذلك كنت أشرح للطلاب المحتشدين أمامى بأن مهنة جديدة هى (المعمار) يجب أن تنمو وتزدهر فى السودان جنباً الى جنب مع المهن الهندسية الأخرى والتى توطدت جذورها فى البلاد منذ زمن بعيد.

لم تكن هذه الفكرة نابعة منى ولكنها كانت جزءا من التغييرات الكثيرة التى بدأت تعم السودان. وكان العام السابق.. عام ١٩٥٦ قد شهد فى أوله مولد الاستقلال والعلم الجديد بخطوطه الزرقاء والصفراء والخضراء وكذلك النشيد الوطنى المفعم بالحيوية.

وبعد مضى ستة أشهر على هذا التاريخ تحولت كلية غردون لتذكارية الى جامعة الخرطوم. وفى الحال طالب عدد من قدامى متخرجى الهندسة من السوادنيين بضرورة الاسراع بانشاء (قسم للمعمارى) بالجامعة وأن الوقت لتحقيق ذلك ملائم الآن إن لم يكن متأخرا.

وكان طبيعيا أن يتساءل المرء عما اذا كان هذا التمييز بين المعمار وبين بقية التخصصات الأخرى.... والذى استحدث مؤخرا... سيقود الى نوع من التنافس الحاد. ولكن لحسن الحظ اتخذت الأمور منحى آخر. فقبل

مغادرتنا السودان بعد اتمام المهمة التى قدمنا من أجلها قال لى من أثق فيه من متخرجى المعمار:

- إننى أنوى تكوين فريق من المتخصصين فى مجال البناء... لأن مثل هذا الفريق يمكنه أن يقدم عملا أكثر اتقانا وفعالية]. وكتب لنا متخرج آخر ونحن فى المملكة المتحدة معبرا عن نفس المعنى تقريبا بقوله: وهو يشير إلى التخصصين الاثنين (الأسرة الكبيرة للمهندسين والمعماريين).

لقد أمكننا فى السنوات القليلة التى قضيناها بالسودان أن نضع الأسس فقط.. ولكن عندما سمعنا وقرأنا مثل هذه التعليقات جرؤنا بأن نأمل الكثير من الأمور الحسنة فى المستقبل. ويا له من مستقبل ملىء بما لايمكن التنبؤ به من الامكانات ذلك الذى ينتظر طلابنا وينتظر بلادهم فى ذلك الجزء من العالم.

الجـــذور

كان هناك هدوء شامل يحيط بمكتبة السيد ابراهيم ولكنك اذا أصخت السمع فربما تسمع حفيف الهواء الصادر من واجهة المبرِّد المثبت فى الجدار... وكانت للرجل مقدرة فائقة فى أن يخلق حوله جواً من السكون المريح. تلك كانت موهبته الكبرى إلى جانب الثقافة العالية التى كانت يتمتع بها والتى كانت ملائمة تماماً لمنصبه كمدير عام لبنك تحت التأسيس.

ويسطع المشهد فى ذاكرتى واضحاً وجلياً بكل تفاصيله. رأيته جالسا خلف منضدة داخل مكتبه ذى الجدران البيضاء على كرسى عادى وأجلسنى على كرسى وثير.. فالكرسى الوثير كان دائما للزائر.

كان إبراهيم رجلاً طويل القامة فى الخمسين من عمره وسيم المحيا ذا بشرة سمراء غامقة مثل أكثر أهل السودان الشمالى.. وبعد أن فرغنا من مناقشة بعض المقترحات المتعلقة بتشييد البنك المزمع انشاؤه جلسنا معا ونحن نرتشف مشروب الليمون المثلّج من أكواب بلّورية بالغة الصفاء. وتحول مجرى حديثنا إلى منطقة النوبة.

قال الرجل: لعلك تعلم اننى انحدر مع أصل نوبى من أقصى شمال السودان. لقد ولدت بقرية صغيرة مجاورة لوادى حلفا. وككل القرى النوبية لم تكن قريتنا أكثر من مجموعة من المنازل الطينية. وحتى المسجد كان أيضا من الطين. وابتسم الرجل وهو ينظر إلىّ فى حياء، ثم واصل حديثه قائلا: أعتقد انه ليست فى مثل هذه الأمكنة الكثير مما قد يثير اهتمام المعمارى.

ترقد هذه القرى على مبعدة معقولة من نهر النيل حتى لا تحتل المنازل الأراضى الخصبة المحازية للنهر. إن منطقتنا ليست غنية كما قد تعلم..... والأراضى الخصبة فيها ضئيلة جدا.... نحن نغرس أشجار النخيل للاستفادة من ثمارهاومن جذوعها التى نجعل منها سقوفا للمنازل. كما نزرع شيئا من الخضر والبقول ونربى قليلا من الضأن والماعز.

خلف المنازل ترتفع الأرض التى هى خليط من الرمال والأحجار تدريجيا، حتى تصل الى القمم المنبسطة للتلال وهى تمثل الطبيعة المميزة لمنطقتنا.

توقف الرجل عن الحديث برهة ثم استرسل فى سلاسة ودون تردد: ذات أصيل كنت أجلس مع والدتى على كثيب من الرمال. وكانت ظلال المنازل أسفل التل تستطيل وتتجه نحونا. كان ذلك وقتا ملائما للحديث. فقد بدأت حرارة الشمس فى التلاشى وأخذت النسمات المعتدلة تهب، ولكنها كانت لا تزال مشبعة بالدفء الذى ينبعث من الأرض. وكان لدينا الكثير مما نود قوله... خاصة وأن أُمى كانت تتحرق شوقاً لمعرفة شىء عن أسفارى مؤخراً لأوروبا وفى الحقيقة كانت تلك أول مرة أُسافر فيها الى انجلترا.

قالت أمى: أخبرنى يا ولدى عن أسفارك. هل هى بعيدة تلك البلاد التى سافرت اليها؟ واجبتها بانها بعيدة جدا. فوجهت إلىّ سؤالا آخر: ... قل لى: .... هل هى أبعد من مكة؟! فأنا أعلم ان مكة ايضا بعيدة جداً. ولما قلت لها بأنها بالفعل أبعد من مكة خاطبتنى بقولها: إذن لقد شاهدت مكة... أخبرنى يا ولدى عن مكة كيف هى؟! وعندما اخبرتها بأننى لم

اشـاهد مكة سـألتنى بدهشـة... : . قل لى يا ولدى كـيف يكون هذا؟ أنت تقول بأن البلاد التى سافرت اليها أبعد من مكة ومع ذلك فأنت لم تشاهد مكة؟ فكيف تفسر هذا الأمر الغريب؟!.

أصبح صوت السيد ابراهيم خافتا عند هذه النقطة من فرط التأثر وخاطبنى بقوله: إن والدتى متقدمة جداً فى العمر. وعندما كانت صغيرة لم تكن بالنوبة مدارس. ولهذا السبب فقد كان من الصعب عليها أن تفهم ماقلته لها. وحاولت بقدر المستطاع توضيح الأمر لها واعتقد انها ارتاحت لشرحى فى النهاية! بعد ذلك سألتنى والدتى سؤالا فى موضوع آخر. قالت: تلك البلاد التى زرتها هل هى بلاد جميلة؟ وهل هى فى مثل جمال قريتنا ونهرنا ونخيلنا؟!.

لبعض الوقت لم أعرف كيف أجيب! فكرت طويلا وطافت بذهنى مشاهد من البلاد التى زرتها... تعريشات الكروم والأودية المزروعة أرزاً فى ايطاليا والمساحات الشاسعة والمزدهرة أبدا بفرنسا... وذلك النمط الفريد من الأشجار المورقة فى انجلترا. وقارنت كل ذلك بالأرض التى كانت تتمدد أسفل الكثبان الرملية أمام أعيننا.

عند الأفق كانت السماء قد اصطبغت بلون وردى فاتن، وأخذ اللون يتحول ببطء الى لون أحمر قان.. كأنّ جذوات من نار هائلة كانت تضطرم تحته. والقى ذلك كله بغلالة أرجوانية ساحرة على الرمال. وكانت المزروعات فى أوج نضرتها؛ وقد تخللتها الظلال فاكسبتها روعة فوق روعتها. وأسفل كل نخلة كانت ترتسم على الرمال نجمة سوداء كبيرة شكلتها أشعة الشمس الغاربة. وأمامنا كانت نسوة فارهات الطول يخطرن

في فساتين سوداء طويلة تلامس أطرافها الأرض وقد حملن على رؤوسهن جرارا مملوءة بالماء!.

وعندئذ فقط عرفت كيف يجب أن يكون ردى على سؤالى والدتى! وكان ردى على هذا النحو: لا يا أمي. إن ما نشهده أمامنا الآن لهو فى نظرى أجمل وأروع من كل البلاد البعيدة التى زرتها!!

وبدت أمي سعيدة بهذه الاجابة. وغادرنا الكثيب معاً إلى المنزل...

الفصل الأول

قاعة النجاح

واجهت فى السودان واحدا من اكبر التحديات فى حياتى المهنية وذلك عندما طلبوا منى تصميم وتشييد قاعة كبرى للامتحانات . فقد كان على هذه القاعة أن تتسع لخمسمائة طالب يجلسون بطريقة مريحة.. كل طالب على منضدته التى تفصله عن الآخرين مسافة معقولة... وأن تمكن مراقبتهم جميعا من موقع محدد فى سهولة ويسر كما كان مطلوبا أيضا أن يصبح فى الامكان الاستفادة من القاعة حينما تكون هناك تجمعات عامة كبيرة، وأن تقسم القاعة الى عدة أقسام بحيث يمكن أن تلقى عدة محاضرات فى وقت واحد، دون أن تشوش إحداها على الأخرى. وكان لابد كذلك أن توضع فى الاعتبار الحرارة المنبعثة من أجساد خمسماية طالب.. إضافة الى حرارة الحمى التى تجلبها الامتحانات!

وحتى بالمقاييس الأوربية لذلك الزمان فان مبنى بمثل هذه المواصفات كان لابد أن يكون فيِ غاية الاتساع. أما بالنسبة للمبانى التى كانت موجودة بالسودان فيعتبر شيئا ذا ضخامة هائلة. وهذا هو ما جعل الشك يساور الكثيرين فى أن مثل هذا العمل يمكن أن ينجز. ولكن عندما تم انجازه فيما بعد نال كثيراً من الاطراء والمدح!

أما كيف تحقق هذا العمل فوراء ذلك سلسلة من الحكايات المتصلة. وكمقدمة يستحسن ايراد وصف للقاعة حسب التصور الذى وضع لها آنذاك.

(قاعة ذات تصميم أخاذ وجديد وغير تقليدى.. مساحتها واسعة وأرضيتها خالية تماما من الأعمدة رغم سعتها وفى أعلاها لا توجد دعامات أفقية ولا تأخذ شكل القباب المعروف فى السودان. ولكن بدلا من ذلك يرتفع ويمتد سقف متموج مصنوع من خشب المهوقنى الفخم ذى اللون البنى الضارب الى الحمرة).

وكان العنصر الأساسى الثانى فى التصميم يتألف من أربعة نصوص اسلامية مكتوبة بخط اليد فى حجم هائل. ثلاثة منها باللون الأسود وواحد باللون القرمزى وجميعها مخطوطة مباشرة على الجدران البيضاء. وكما سوف يرد فى حكايتنا فيما بعد فقد كان لادخال هذه الخطوط أثرها الفعال والواضح فى اضفاء كل هذا الجمال وكل ذلك الرونق على المبنى الكبير المسقوف بالمهوقنى).

كانت فكرة إنشاء قاعة بهذا الحجم جديدة تماما فى السودان. ولم يكن نظام تكييف الهواء قد أدخل الا فى نطاق ضيق اذ كان لا يزال فى مستهل مراحلة الأولى. وكانت كل التجمعات الكبيرة مثل حفلات تقديم الشهادات العلمية والمآدب الرسمية والعروض السينمائية ونشاطات الغرف الموسيقية الطلابية تقام فى الهواء الطلق فى جو الأمسيات المعتدل.

وحتى فى (قاعتنا) فإن وسيلة التهوية كانت بدائية ومتخلفة فقد كانت تعتمد أساسا على نظام تهوية (متقاطع) وعدد من المراوح ذوات القاعدة.. إضافة الى تنفيذ بعض الأفكار الملهمة التى ومضت فى الذهن فى لحظات مفعمة بالحيوية خلال عملية تشييد البناء.

وذا كان حجم القاعدة والأغراض المتعددة التى توفرها يشكل تحدياً

مثيراً فان موقعها أيضا يشكل مثل هذا التحدى. ومن يزر قاعة الامتحانات اليوم سيجد انها تحتل موقعا بارزاً داخل حرم (كلية غردون التذكارية) التى وضع لها حجر الأساس (اللورد كرومر) فى الخامس من يناير ١٨٩٩.

إن الذين خططوا وأقاموا هذه الكلية عند منعطف القرن. لم يشيدوا المبانى فحسب؛ ولكنهم ظللوا أرجاءها بأيكات نضرة من أشجار (النيم) المقصوصة على هيئة قباب عالية. وفى الطريق المؤدى الى المبنى الرئيسى اصطفت أعداد من النخل الملوكى شبيهة بأقواس النصر!

لقد كانت المناظر الطبيعية الرائعة تحيط بالكلية من كل جانب ولحسن الحظ أمكن ايجاد متسع من الأرض وسط هذا الجمال لاقامة القاعة فوقه. وكانت القاعة بسقوفها المقوسة وجدرانها المصنوعة من القرميد تبدو من وجهات نظر متعددة وكأنها تتنافر مع تلك العقود والأعمدة البنية اللون التى تتألف منها مبانى الكلية!

أحياناً يتحالف القدر والظروف معاً فيخلق أحدهما التحدى ويعمل الآخر على توفير الوسائل التى تمكّن من الاستجابة للتحدى!! وقد حدث لنا ذلك مرة بعد أخرى من البداية إلى النهاية بسبب هذا التحالف غير العادى.

قبل الشروع فى عمل التصميمات لقاعة الامتحانات برز سؤال مهم يتعلق بنقطة الانطلاق أو البذرة التى يمكن أن يقوم عليها التصميم. لم نكن فى حاجة إلى البحث عن إجابة. فقد كانت الإجابة تتردد أصلا فى رؤوسنا.

قمنا بزيارة خاطفة الى تركيا. فقد رأينا انه من المستحسن ونحن نعمل في بلد اسلامي أن نطلّع على كنوز الفنون والمعمار الاسلامي الاسطورية في تركيا وان نغذي الحماسة المتقدة في نفوسنا بالخبرة الذاتية.

وفي صباح يوم ربيعي رائع وجدنا أنفسنا محلقين فوق سماء (قبرص) وكانت (نيقوسيا) تبدو تحتنا في غاية الصفاء والشفافية ونحن نطير على ارتفاع أربعة عشر ألف قدم. وبعد دقائق معدودة كانت جبال (TAURUS) التي غطتها الثلوج تلوح لنا من ذلك العلو في لون أبيض مائل الى الزرقة.

ولما بلغنا الأجواء العليا لمدينتي (BURSA) بورصة، واستطنبول وبحر (مرمرة) والتي كنا نتوق ونتلهف لمشاهدتها حرمتنا السحب المتراكمة من هذه المتعة.. ولكننا لم نعبأ لذلك كثيرا.. اذ قدمت لنا في الطائرة في نفس تلك اللحظات أطباق شهية من الكافيار والبيض (مكدسة مثل الركاب!) وأطباق من سمك (السلمون) المنضج بالبخار وكذلك أطباق من البطاطس والبسلة ولحم الدجاج والأرز والحلوى وبعض ألوان الطعام الاضافية.. إلى جانب النبيذ الأبيض والأحمر والويسكي والقهوة! ولكن برغم كل ذلك فان المتعة الحقيقية البالغة الروعة والتي فاقت كل تصوراتنا أتت بعد هبوطنا.

كنا مسحورين بمساجد مدينتي (اسطنبول) و بورصة (BURSA) التي كانت تحتجز منذ قرون تحت قبابها الضخمة.. المسنودة من الخارج بصورة تدعو للدهشة.... بأقواس رفيعه مدعومة بركائز عملاقة.. مساحات فسيحة من الأرض!

وفى الخارج كانت المآذن العالية تخترق الآفاق على مد البصر وحيثما نظرنا كان اللون الفيروزى والأزرق الداكن والأحمر.. هو اللون الغالب للزخارف القديمة على الجدران والأضرحة والقصور والمساجد. ولكن أعظم اكتشافاتنا اثارة كان هو الخط العربى الاسلامى الذى تمكنا من دراسته ليس فقط فى المخطوطات فحسب؛ ولكن على وجه التقريب فى كل مكان... حيث كان الخط يستخدم عادة كأحد عناصر تصميم المبانى.

ولأن الاسلام يحظر اقامة التماثيل التى تصور الإنسان والحيوان فقد امتنع المسلمون عن التعبير بالفنون التصويرية فى وصف قصصهم المقدسة وفضلوا بدلا عن ذلك الاستعاضة باالخط لتحقيق هذا الهدف. ولهذا السبب أيضا فإن النصوص القرآنية المتعددة تثرى وتزخرف المبانى فى جميع أرجاء العالم الاسلامى بوساطة فن (السراميك).. واكدت لنا زيارتنا لتركيا هذه الحقيقة . وقد ترك الجمال المطلق للخط العربى الذى شاهدناه فى مبانى مدينة بورصة (BURSA) أثراً عميقا فى نفوسنا. وتقع هذه المدينة على مسافة ستين ميلا جنوبى (استنبول) وتبعد بأميال قليلة.. داخل البلاد.. عن ساحل (بحر مرمرة) الذى يفصل القارة الاوربية عن قارة آسيا.

وقد كانت هذه المدينة منذ قديم الأزمان نقطة التقاء بين الشرق والغرب، واشتهرت بصناعة الحرير والنسيج وكانت العاصمة الأولى للامبراطورية العثمانية. وفيها تأسست جماعات كثيرة منحت المدينة العديد من المساجد العظيمة والاضرحة وأضفت شيئا من قداستها على المدينة ذاتها. وكان أروع هذه المبانى فى نظرنا هو مسجد (ULU CAMI) الذى تم تشييده

فى القرن الرابع عشر الميلادى والذى يتميز أساسا بالبساطة وعدم التعقيد فى الشكل.

يتألف المسجد من عشرين قبة كثيرة موزعة على خمسة صفوف كل صف به أربع قباب وتستند جميعها على جدران حجرية خارجية واثنتى عشرة ركيزة ضخمة. وتشكل تلك الركائز المطلية بالجص الأبيض الناصع الخلفية الرئيسية للنصوص العربية المخطوطة عليها باللون الأسود الفاحم والتى يبلغ ارتفاع بعض حروفها حوالى ثلاثة أمتار! وكان التماثل هو الهدف الرئيسى لبعض تلك الزخارف الخطية. اذ كان بالامكان قراءة بعضها من اليمين الى الشمال أو من الشمال الى اليمين!! وحتى الخطوط التى كانت تفتقر الى التماثل كانت تعطى انطباعا بتمتعها بتوازن كامل ودقيق!!

ترى الى أى حد كانت ستبهج تلك التصميمات والجمال الكامن فيها قلب (ليون باتستا ألبرتى) ذلك المعمارى الفلورسى الفذ الذى عاش فى القرن الخامس عشر الميلادى والذى لا تزال تعريفاته المعمارية محفورة فى أذهان المعماريين حتى عصرنا هذا: (توافق وتناسق ربطا بين جميع الأجزاء فى اتساق وانسجام جعلا من المستحيل اضافة شىء أو حذف شىء.. أو تغييره دون أن يكون ذلك الى الأسوأ !).

عندما عدنا إلى افريقيا كانت بحوزتنا بطاقتا بريد عليهما صورة مسجد (ULU CAMI) وثلاث أو أربع صفحات من (الاسكتشات) التى نقلنا فيها بعض النصوص الاسلامية المخطوطة على جدران المسجد وركائزه. واضافة الى ذلك كنا متحمسين لأن نشاطر

(أولادنا) تلك الروائع الفنية. وكان يملؤنا طموح خفى بأننا سوف نجسدها فى عمل حقيقى.

وبعد ثلاثة أسابيع من عودتنا من تركيا تسلمت رزمة من الأوراق كانت تحتوى على (متطلبات) انشاء القاعة وكان علينا أن نترجمها الى رسومات وتحديد مواصفات انشاء مبنى .. وأصبحتُ المعمارى المسؤول عن انشاء (قاعة الامتحانات). وفى اليوم التالى لاسناد هذه المهمة اليّ حظرت الحكومية التى كانت تعانى من متاعب مالية صعبة حظراً تاماً استيراد أية مواد بناء من خارج البلاد!

نظرياً كان هذا شيئاً يستحق الترحيب لانه كان سيعمل على ايجاد بعض التجديدات على أساليب البناء الممعنة فى القدم فى السودان والتى كانت تعتمد أساساً على مشتقات التراب.. ولكن الأمر كان محبطاً لنا بعد أن علمنا ان المواد المتاحة لن تتعدى الطوب الأخضر وجذوع وسعف النخيل وورث البهائم وبعض أنواع الخشب القوى (الفلنك).، وقد اثبتت هذه المواد فعاليتها من قبل فى تشييد وسقف المبانى ذات المساحات الصغيرة..، ولكن كان من الصعب تصور كيف سيكون الحال بالنسبة للمبانى ذات المساحات الكبيرة وسقوفها التى يجب أن تغطى كل هذا الفراغ الشاسع دون أن تسندها أية أعمدة!

عندما واجه المعماريون البريطانيون فى السودان مثل هذه المعضلة فى وقت من الأوقات اعتمدوا على القضبان الفولاذية المستوردة لدعم العقود المشيدة بالطوب. ويعود تاريخ هذا النوع من أساليب البناء الذى استخدم فى تشييد كلية غردون.. الى مطلع القرن التاسع عشر فى بريطانيا.

ومن بين الخيارات القليلة المتاحة كان خشب (الفلنك) يمثل الحل الوحيد. ولكن كيف يمكننا استخدام هذه المادة التى كانت حتى ذلك الوقت لم تستخدم فى السودان الا كدعامات لخطوط السكك الحديدية وكان هذا هو السؤال الذى حملناه معنا... بعد أسابيع قليلة.. فى أجازتنا التالية لبريطانيا الى (EZRA LEVEN) لنتبادل معه الرأى حوله.

كان (EZRA) يعمل كبيراً للمعماريين لجمعية (أبحاث وتطوير الأخشاب) وكان فى ذات الوقت صديقا قديما.. مبدعاً وخلاقاً وممتلئا بالحماس.. ومصدرا لا يخذل أبدا للأفكار النيرة. وبالفعل وجدنا عنده الاجابة الشافية. قال (EZRA): (إن الحل يكمن فى استعمال (الخشب المصفّح) وهو خشب يتكون من طبقات رقيقة مضغوطة.. وهذه تقنية جديدة سبق أن جربت ولكن لايزال تطويرها مستمرا حتى الآن بوساطة (جمعية أبحاث وتطوير الأخشاب) التى استخدمت هذا النوع من الأخشاب فى عمل السقوف) واستطرد (EZRA) قائلا: (والسقف المصنوع من هذا الخشب يشبه (قشرة البيضة) فى رقته ولكنه متين بسبب تقويسه فى بعدين اثنين وليس بعدا واحدا فحسب ومن ثم صار يعرف باسم (SHELL METHOD) ويفضل هذه (التقنية) اصبح بوسعنا الاستفادة من مصادر الأخشاب الهائلة بالمديرية الاستوائية بجنوب السودان لحل معضلة سقف قاعة الامتحانات بمساحتها الواسعة دون الاستعانة بأية أعمدة على الاطلاق!).

لم يستغرق الأمر منى وقتاً طويلا لكى أتبين أن شكل هذه (القشرة) قد أقيم على نظرية هندسية أصبحت غائمة على مر السنين فى أذهان

الكثيرين... وأنا من بينهم.. ولم يكن من السهل تصورها أو تخيلها. ولهذا السبب كان وصفها للآخرين أمراً عسيراً إلى حد بعيد.

وأخذت افكر في الشرح الذى سأقوم بتقديمه للجنة المبانى بالجامعة فى هذا الشأن. وعندما تذكرت أنه لابد لى كذلك من توضيح الخطط المطلوبة لمقاولى البناء السودانيين تعمق التشاؤم الذى كان يسيطر على تفكيرى وتحول الى كآبة وغم!

واقترح علينا (EZRA) بأن نقوم بزيارة لمبنى أقيم مؤخرا فى (ESSEX) صُمم سقفه بطريقة (SHELL METHOD)... على أن نصطحب معنا الاستاذ أحمد المرضى جبارة مسجل جامعة الخرطوم آنذاك وعضو (لجنة المبانى) بالجامعة والذى كان يزور لندن فى مهمة رسمية..

وافق المرضى على الاقتراح ولم يكتف باعادة ترتيب جدول مواعيده المزدحم ليلائم اقتراحاتنا.، ولكنه عرض علينا وأقنعنا بأن لاشيء سيبهجه أكثر من رحلة بالقطار عبر برارى (ESSEX). وعملاً بالقاعدة التى تقول [اختيار اليوم الأفضل يحقق العمل الأفضل] قمنا بتلك الرحلة فى أحد أيام (الجمعة) (حيث أن يوم الجمعة عند المسلمين هو اليوم الموازى ليوم الأحد عندنا).

سافرنا عبر أحياء لندن الشرقية تحت وابل من المطر الذى سرعان ماتسربت مياهه من خلال إطار نوافذ السيارة وتجمعت تحت أقدامنا مكونة بركاً صغيرة!..

كان المبنى الذى جئنا لمعاينته مدرسة وكان ذلك فى يوم عطلة. ولدى

دخولنا حدقنا فى (القشرة) التى يتكون منها سقف (قاعة الاجتماعات) بالمدرسة. أحسست وأنا انظر الى السطح الأصفر اللامع بشعور مفاجىء بالصدمة وخيبة الأمل. اذ كنت أتوقع ... بصورة لا مبرر لها.. أن أرى على الأقل ولو لمحة من ذلك السقف المتوهج... الشديد الاتساع وسطحه البنى الفخم الذى بدأ يرسخ فى ذهنى تحت تأثير حماسة (EZRA)!.

لحسن الحظ يبدو ان أحمد المرضى لم يكن يشاركنى الاحساس بخيبة الأمل. فقد تناول بهدوء قطعة طباشير... ولدهشتى وابتهاجى فى نفس الوقت.. وكتب على السبورة بحروف عربية كبيرة هذه العبارة: (التحية لطالبات وطلاب هذه المدرسة من طالبات جامعة الخرطوم!!).

وأغرق أحمد المرضى فى الضحك وهو يتخيل منظر الطلاب الانجليز عند عودتهم لحجرة الدراسة فى اليوم التالى بعد أن تقع اعينهم على تلك الكلمات المكتوبة بلغة غريبة وغير مفهومة بالنسبة لهم!.

فى الاجتماع الذى اعقب عودتنا من (ESSEX) أخذت الأشياء تبدو واعدة ومبشرة بالنجاح. فبدأنا على الفور فى عمل التخطيطات التجهيزية للمشروع. وثبت لنا جليا أن من المستحيل اكمال العمل كله قبل انتهاء أجازتنا. ولكن (EZRA) تطوع فى شهامة ونبل باكمال الرسومات بنفسه. وعندما فرغ من ذلك قام بارسالها لنا بالطائرة بعد أربعة أيام فقط من وصولنا للخرطوم.

كانت هناك الآن حاجة ملّحة لتقديم الدليل على أن التخطيطات لقيام القاعة قد بدأت تأخذ شكلا معينا. وكان ضروريا أيضا عمل بعض التقديرات الأولية لتكلفة المشروع فاتصلت بالسيد حسن عتبانى كبير

المعماريين بوزارة الاشغال العامة للاستعانة به فى هذا الشأن. وأذكر جيدا أن عتبانى خاطبنى بقوله: (انكم فى منتهى الشجاعة أن تحاولوا فى الخرطوم اقامة مثل هذا المشروع الذى لا يمكن لأحد يتمتع بكامل قواه العقلية أن يفكر فيه!) واعتبرت أنا قوله هذا اطراء شكرته عليه!.

وتابع حسن عتبانى حديثه مذكراً إياى بأن (لجنة المبانى) التى هو عضو فيها ستجتمع قريباً لاعطاء الموافقة النهائية على المشروع قبل بدء العمل فيه.

ولكن تحت وطأة الحر القاسية وعناء الساعات الطويلة بعيدا عن (EZRA) وتأثيره الملطف والمساند بدأت ثقتى فى (الفرضية العلمية) التى ذكرها لى عن سقف (القشرة) .... تضمحل وتتلاشى. وعلى سبيل المثال كانت هناك المحادثة غير الموفقة التى جرت بينى وبين استاذ الرياضيات الهندسية بجامعة الخرطوم والتى شرحت له فيها السمات الرئيسية لتصميم القاعة. وقد علق على ذلك بقوله: (بأن ليست لديه أدنى فكرة عما كنت اتحدث فيه!!).

وقد جعلنى هذا الموقف آمل بأن تتحاشى (لجنة المبانى) عند انعقادها الخوض بتعمق فى تفاصيل الخطط التى قد مناها والأفكار التى تتضمنها وذلك بسبب ما يشاع من أن العرب حساسون عادة تجاه كل ما يكشف عن حدود معرفتهم وعلمهم حتى لا يفقدوا اعتبارهم واحترامهم!!

ولكن برزت الآن مشكلة مهمة. فقد قال لى أحمد المرضى: بأنه يشك إن كان بوسعنا الاعتماد على أن الأخشاب المرسلة من جنوب السودان ستصل فى الموعد المحدد. وعلمت وقتها أن كل كميات الأخشاب سيتم

نقلها على البواخر النيلية من جوبا على بعد آلاف الأميال جنوبى البلاد. ومعنى ذلك أن تشق البواخر طريقها عبر منطقة (السدود) حيث كانت (أعشاب النيل) ونبات (البردى) تتكاثر وتنتشر وتعوق مجرى النهر بصورة لم يسبق لها مثيل.

وتحدث أحمد المرض قائلا: (إن المبلغ الذى اعتمد للمشروع هو (عشرون الف جنيه سودانى) دون زيادة قرش واحد!) وهو يعنى بهذا (كل العمل)! ولم يكن مستغربا بعدها أن اذكر (لازرا) فى أحد خطاباتى باننى أتنبأ بأنه ربما استقر بنا الأمر الى الغاء (البلاط) وجعل أرضية (القاعة) من الرمال والاستغناء عن ادخال الكهرباء!!

ولكن قبل هذا كان لابد من بذل أية محاولة مهما كانت فيما يتعلق باستعجال ارسال الأخشاب. على سبيل المثال كان لابد من اتصالى الشخصى بوزير الزراعة الذى أصبح منذ الثورة وزيرا ايضا للمواصلات. وكان بالتالى مسؤولا عن القطارات والبواخر النيلية والجمال والحمير!!.

كانت هناك عشرات النقاط والتفاصيل التى يتوجب الاتفاق حولها قبل ذلك الاجتماع البالغ الأهمية (للجنة البناء بالجامعة) وكانت مسألة التحكم فى درجات الحرارة داخل القاعة إحدى هذه النقاط. وللخروج بنسبة تقديرية لمستوى الحرارة داخل القاعة قمت بعملية حسابية بسيطة على هذا النحو: الحرارة الصادرة من أجساد خمسمائة طالب ربما تعادل (125 TWO KILDWATT FIRE) وذلك دون أن نضع فى الاعتبار الحرارة التى تجلبها حمى الامتحانات!... وبدت لى الفكرة غير محتملة تماماً وأنا أدق بانأملى على (آلتى الكاتبة) المشبعة بالعرق).

(لجنة المباني) التي كانت ينتظر منها أن تضع حدا للحيرة والتردد لم تفعل شيئا من هذا القبيل. لقد كان اجتماعها طويلا وغير حاسم. بدأ في العاشرة صباحا واستمر حتى الثانية بعد الظهر. وقد تم خلاله صب قدر وافر من الماء البارد على المشروع!!).

قيل لي: إن المبنى لن يصمد طويلا!! فقد قال أحدهم (ان الطبقة الخارجية للسقف.... وهي التي تقيه من الماء... ستتداعى عندما يرتفع السقف ثم ينخفض نتيجة للتغيرات التي تطرأ على درجات الحرارة) وقال آخر: لا يمكن ان يتم تشييد المبنى في الموعد المحدد. وكان أسوأ التعليقات على الاطلاق هو الذي يقول: انهم لن يتمكنوا من اقامته هنا أبدا!! لقد كان هذا التعليق الأخير أشبه ما يكون بضربة مؤلمة في المفصل!

وعلى النقيض منهم كان نائب مدير الجامعة والذي ترأس اجتماع (لجنة المباني) مليئاً بالتفاؤل والثقة. فقد تحدث عن الجامعة ودورها الطليعي في قيادة البلاد. ثم خاطب المتشككين بحزم قائلا: (لقد فهمت من البروفسور بوتر بأن كل تلك النقاط التي أثيرت في الاجتماع قد سبق ودرست بعناية وادخلت في الاعتبار عند التصميم).

طوال الوقت الذي كان فيه نائب مدير الجامعة يقدم تلخيصا لما توصل اليه في نهاية الاجتماع. كنت أركزّ بصري على سطح المنضدة الموضوعة أمامي والمصنوعة من خشب الزيتون. وقادتنا فكرة تصميم سقف القاعة الى زيارة أماكن حفظ الأخشاب بمصلحة الغابات. وكنا ونحن نملأ أنظارنا من خشب المهوقني الرائع ونتشرب عبيره قد أسكرنا إحساس قوي بأننا بسبيل تشييد (مبنى عظيم الأهمية).

وقررنا بعد عمليات حسابية بأن نطلب على الفور ما قيمته ثلاثة آلاف جنيه سودانى من الأخشاب وهو الكمية التى ستكفى لكل المشروع. وكان رجاؤنا الوحيد أن يتم تجفيف الأخشاب فى جوبا وضمان وصولها الينا فى الخرطوم فى الوقت الذى نريده. وبما أن مثل هذا المبلغ الكبير يستحق قدراً من التحوط قمت بكتابة رسالة الى (EZRA) قلت فيها:

كما ترى من المرفقات فإن طلب شراء الأخشاب قد تم على أسس غير رسمية على الاطلاق! فأنا الذى أقوم بشرائها من حر مالى!... اذ كانت هذه هى الطريقة الوحيدة الممكنة فى هذه المرحلة. وعليه فإذا لم يتم انشاء تلك السقوف فمار قريت وأنا سنبدأ عملا تجاريا فى الخرطوم كمصدرين للأخشاب! وسوف نعتمد عليك فى إقامة مكتب مماثل فى المملكة المتحدة للقيام بتفريغ آلاف وآلاف من ألواح خشب المهوقنى (سمك ثلاثة أرباع البوصة) وطرحها فى الاسواق المحلية!!).

بعد تقديم طلب الشراء لم نتمكن من الحصول على تواريخ محددة معقولة لاستلام الأخشاب من مصلحة الغابات.، فاتجهنا الى مهمة الحصول على التصديقات الضرورية من مختلفة المصالح والمكاتب بالحكومة المركزية والمحلية. ورأينا أنه لو استطعنا ان نثبت للاجتماع القادم (للجنة المبانى) بأن كل العقبات قد ذللت فان ذلك سوف يخدم قضيتنا. وكتبت رسالة عاجلة الى (إزرا) قلت فيها:

(انهم مهتمون حتى بأصغر التفاصيل وطلبوا منا الاطلاع على عملياتنا الحسابية. لقد أمضيت يوما كاملاً ونصف يوم وأنا أجمع

التصديقات وتوقيعات المسؤولين بالمكاتب الحكومية المختلفة فى جميع أرجاء المدينة.

لم يبق لنا الآن سوى الحصول على موافقة مهندس البلدية ولكن ليست هنالك مشكلة. فالرجل شهم ولا يتردد فى تقديم المساعدة اضافة الى انه مهندس بارع. أعتقد ان كل شيء سوف يسير على ما يرام).

قلت لما رقريت: لقد قمنا بطلب الأخشاب ومجموعة كبيرة من التصديقات تستقر فى الملف.. ترى هل بقى شيء لم نقم باعداده ليوم (اتخاذ القرار) ؟! وأجابت مارقريت بقولها: أعتقد انه سيكون شيئا مفيدا ومؤثرا لو أمكننا عمل (نموذج) رائع للقاعة اضافة الى الخطوات الأخرى التى قمنا بها.

بدا لنا أن ما تبقى من الوقت.. قبل انعقاد الاجتماع الحاسم... كان غير كاف لعمل (نموذج) كبير للقاعة يستحق العرض أمام (لجنة المبانى) ولكن برغم ذلك كان لابد من بذل محاولة.

قررنا أن يكون المقياس فى [النموذج] هو (سنتمتر واحد مقابل كل متر فى الأصل) أو (بوصة واحدة مقابل كل ثمانية أقدام واربع بوصات). ولأن الشكل الهندسى للتصميم كان (CRUCIAL) استخدمنا المهوقنى الحقيقى فى عمل الأسقف الثمانية.. بطريقة تظهر كل لوح فى التركيب النهائى للنموذج (موسوما بعلامة) فوق سطحه الداخلى.

كان (النموذج) لايزال غير مكتمل حتى عشية اجتماع [لجنة المبانى.. مما جعلنا نعمل طوال الليل على تكملة الأجزاء الثانوية المتبقية. وفى النهاية لم يكن (النموذج) يفتقر إلا إلى شيء بسيط ولكنه مهم وحيوى

وهو تثبيت (برج صغير) في أعلى نقطة من السقف الرئيسى. كانت مهمة هذا (البرج) في المبنى الأصلى تتعلق بالتهوية والاضاءة. ولكن في النموذج كان الهدف منه هو استخدامه كمقبض... مثل مقبض (الكزرونة) ليمكن عن طريقه رفع السقف وابراز الأجزاء الداخلية للنموذج لكى تبدو جلية وواضحة للعيان. واستغرقت منا اللمسات الأخيرة للنموذج ما تبقى من ساعات الليل. وعندما كنا نرتقى درجات السلم الخشبى الذى يفضى الى سطح المنزل حيث موضع نومنا كان ضوء الفجر الضارب للخضرة قد أخذ يومض فى السماء. وفى ذلك الجو الساكن ارتفعت أصوات المؤذنين وهى تشق الفضاء من فوق المآذن العالية: (أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله).

كنا راضين وكان بوسعنا أن ننال قسطا قليلاً من النوم. وكنا سعداء بإحساسنا بأن أعضاء لجنة المبانى سيتمكنون بمجرد أن تقع أنظارهم على (نموذج القاعة) معرفة الأهداف التى كنا نرمى اليها.... وبوضوح تام.. لم تستطع الرسومات ولا الكلمات تحقيقه.

لقد فاق تأثير (النموذج) على أعضاء (لجنة المبانى) كل توقعاتنا. فبينما كنت أدخل عليهم وأنا أحمله بين يدى خيمّ على المكان سكون مطبق. أنزلت (النموذج) بحذر ووضعته أمامهم على المنضدة، ثم أمسكت بالسقف الرئيسى من المقبض (البرج) وأزحته عنه فبدا كل شيء تحته واضحا وجليا لأبعد الحدود. وتحولت (الفرضية العلمية) المعقدة التى لم تكن أكثر من معادلات رياضية وتصميمات معمارية... الى أشكال دقيقة وعملية وحقيقية مثل أجنحة الطيور!

وكان هناك شيء آخر. فقد أوحت لنا ساعات الليل بفكرة رائعة لم تطف بأذهاننا في اليوم السابق. وتتلخص الفكرة في زخرفة الجدران البيضاء للنموذج والمحيطة بمساحة داخلية واسعة بنصوص إسلامية مكتوبة بخط عربي جميل.

فجأة أصبح تبادل الأفكار بيننا وبين أعضاء (لجنة المباني) سهلا بصورة مذهلة. ووجدت نفسي مندفعا في عفوية وأنا أشرح كيفية خروج هذا التصميم الى حيز الوجود.

كنا قد اتخذنا قرارا بتزيين الجدران بالخط العربي في الحادية عشرة قبل منتصف الليلة السابقة، وبحثنا عن الالهام في الخطوط التمهيدية التي نقلتها (مارقريت) من داخل مسجد (ULU CAMI) بمدينة بورصة (BURSA) بتركيا. ومضيت أحدث أعضاء (لجنة المباني) بان مارقريت بتمعنها في تلك (الخطوط العربية).... التي لا تعرف معانيها ... ونقلها على الورق قد استنبطت خطة للعمل!

كان من رأيي أن تقوم (مارقريت) قدماً بكتابة (الخطوط العربية) على الجدران... ولكن (مارقريت) بحذرها المعهود وصبرها اللانهائي كان لها رأى آخر. فقد (أمرتني) في تلك الليلة بلهجة رقيقة ولكنها حازمة في ذات الوقت بأن أحمل معي (الخطوط) التمهيدية التي أحضرناها من مسجد (ULU CAMI) وأن أعرضها على أحد طلابنا ليحولها الى كلام مفهوم دون أن تفقد جمالها من زاوية تصميمية!

كان تنفيذ (الأمر) الذى أصدرته (مارقريت) في ذلك الوقت المتأخر من الليل شيئا صعب التصديق. ولكن لحسن الحظ التقيت في أحد ستديوهات التصميم بالجامعة بالسيد الأمين مدثر الذى كان ساهرا هناك... والأمين كان

واحدا من طلابى بكلية المعمار وهو مسلم ملتزم ... وقد أدرك بسرعة ما جئت من أجله.

تأمل الأمين للحظات (الخطوط) التى نقلتها (مارقريت) ثم التفت نحوى مبتسما وهو يقول: (لماذ تريدون تبديل هذه (الخطوط) ؟ إنها مكتوبة بلغة عربية سليمة. وفى الحقيقة هى العربية (الكلاسيكية) الأصلية... وأنا شخصياً اعتبر ما جاء فيها أنسب زخرفة يمكن أن تزين بها قاعة امتحانات. لأن المعنى الذى تتضمنه هو: (إن الله هو مانح النجاح).

واختتمت حديثى لأعضاء (لجنة المبانى) قائلا: عدت الى المنزل لاخبر (مارقريت) بما قاله الأمين مدثر. وبوسعكم أن تتصوروا الآن ما كانت عليه مشاعرها فى تلك اللحظات!

عندما كنت أتحدث الى أعضاء (لجنة المبانى) كان نائب مدير الجامعة وهو رئيس اللجنة فى نفس الوقت يستمع الى بكل حواسه وكان يبدو مبتهجا لكل كلمة أتفوه بها. وعندما فرغت من حديثى كانت عيناه تفيضان بالفرح ووجهه الذى ينضح بالطيبة ويشرق بالابتسام والسعادة.

وانتصب الرجل واقفا وقال: إننى استبين هنا توفيق الله وعليه اقترح وأوصى بشدة ان نبنى (القاعة) على هدى هذه (الخطوط) ومن الآن فصاعدا لن يكون اسم هذه القاعة الكبرى مرتبطا بالامتحانات وبدلا من ذلك سوف نطلق عليها اسم (قاعة النجاح)!.

الفصل الثانى

قاعـــة النجـــاح

كان تصميم قاعة الامتحانات وتحديد مواصفاتها وبيان المقادير المطلوبة من المواد مكتملا وجاهزا. كذلك كانت التصديقات الضرورية للبدء فى البناء قد تم الحصول عليها. ولم تكتف (لجنة المبانى) بالموافقة على المشروع فحسب، ولكنها كانت تلّح على ضرورة عرض نموذج (القاعة) بالمعرض الذى سيقام (بمناسبة عيد الثورة) وأن يتم لفت انتباه ضيف البلاد الكبير الرئيس جمال عبد الناصر الى هذا المبنى ذى الشكل الجديدوالفريد.

كان وقت المناقشات قد انتهى. وكان المطلوب منا فى هذه المرحلة الشروع بأقصى ما يمكن فى تنفيذ البناء ولذا كانت مهمتنا الأولى هى طرح العمل فى (عطاءات) حسب الطريقة المتبعة فى السودان. وقد فاز بالعطاء السيد (جابر ابو العز) على منافسيه الخمسة بفارق كبير فى السعر أدنى كثيراً مما قدموه. وكان منافسوه ثلاث شركات سودانية وشركة واحدة بريطانية وأخرى مصرية.

كان (جابر أبو العز) رجلا حاد الذكاء وذا حاسة مهنيـة خارقة.... وكنت واثقا الى حد ما فى مقدرته على التعامل مع أسلوب جديد فى التصميم ... ولكن برغم ذلك كان يخامرنى الشك فيما اذا كان جابر قد تفهم تفهما كاملا الرسومات المتعلقة بالقاعة.

ومن خلال (مسألة) شجرة (البانيان) العملاقة التى كانت تحتل الموقع الذى اختير لتشييد القاعة تأكدت لنا حقيقة أن آخرين كانوا يعيشون معنا مشاكلنا.

على أحد أطراف الموقع كانت تقع مباني (كلية القانون) وعلى الطرف الآخر كانت توجد مباني ادارة الجامعة وبها مكتب (مسجلنا) أحمد المرضى جبارة والذى كان يدير منه الشؤون المالية للجامعة وبعض الأعباء الأخرى المتعددة. ولم يكن هناك من هو أفضل منه في معرفة المخاطر المتعلقة بالبناء والعقوبات التى يمكن أن تترتب على التأخير في الانجاز. ففي نفس اليوم الذى تم فيه توقيع العقد المبرم بين الجامعة وبين السيد جابر أبوالعز... تبدت لي ما خمنت وقتها بأنها البصيرة النافذة التى يتمتع بها (السيد المرضى)....
ثم تأكدت لي فيما بعد بأنها الحقيقة فعلا لا تخمينا وذلك عقب عودتي لتناول الغداء بالمنزل.

كانت شجرة (البانيان) العملاقة قد اقتلعت فجثمت على الأرض وجذورها متجهة الى أعلى بصورة غير طبيعية وتناثرت منها مئات الأغصان والأفرع والأوراق مغطية مساحة كبيرة من الأرض. وفي الطريق المحازى للموقع اصطف طابور طويل من العربات التى تجرها الدواب ليتم تحميلها بأجزاء الشجرة المقتلعة.

كانت (الطواقي البرتقالية تتراقص بفعل الحركة فوق رؤوس العمال الذين كانوا يقومون بشحن (العربات)... وقد بدا منظر اللون البرتقالي فريداً وسط ذلك البحر الزاخر من البشر الذين يرتدون الملابس البيضاء.. والخضرة اليانعة التى تحيط بالمكان من كل جانب. وكانت الحمير والبغال تمضغ في سعادة ودعة أغصان (البانيان)... تلك المأدبة التى بدت دون نهاية!.. أما الشجرة نفسها فقد امتدت اليها عشرات الأيدى بالفئوس والمدى وبأية آلة حادة أمكن العثور عليها.. اذ كان خشب الوقود شيئا عزيزا في الخرطوم آنذاك!

كان مشهد الشجرة التي اجتثت من جذورها أمراً يبعث على القلق الى حد ما. لنفترض بأننا لم نستفد من ميزة التفكير المتقدم (للمرضى) ولنفترض أيضا أن هذه الشجرة العملاقة ظلت قائمة في مكانها لمدة أربعة أيام.. وذلك الجيش الجرار من عمال البناء التابعين لجابر أبو العز ينعمون في ظلها براحة غالية (التكاليف)!! لقد أمكننا تحاشى الوقوع في مثل هذا المأزق بفضل حكمة وبصيرة زميل ودود. ولكن ترى كم من المآزق لا تزال في انتظارنا؟!.

وفجـــأة وجـــدت نفـــسى منجـــذباً بشدة الى ذلك المبدأ المهنى الذى كنت أسير على هـــديه فى الماضى والذى يقـــضى بأن يعمل المعمارى داخل نطاق مؤسسة معمارية راسخة ذات خبرة مهـــنية رفيعة.. وأن يتلقى العون والنصح الفنى الضـــروريين من جهة مهنية أيضـــا ذات صلات حميمة به وأن يكون العون والنصـــح فى متناول يـــده دائما وفـــى أى وقت.

حقيقة كان بوسعنا دائما اللجوء إلى (EZRA) من أجل التوكيد والطمأنة والمساعدة حينما تتعقد الأشياء... ولكن عندما كنت أمشى مجهدا فى طريقى الى المنزل والرمال الساخنة تشوى قدمى من خلال نعل (المركوب).... كان التفكير بانتظار العون من (EZRA) يبعث على الكآبة أكثر منه على التشجيع وشد العزم.. لأن عوالم بعيدة كانت تفصلنا فى تلك اللحـــظة عن (EZRA) الـــذى كـــان مـــوجـــودا آنذاك فى حى [ST. JOHNS WOOD] بلندن.

ثم وبدون أية صلة بهذا الموضوع كما يبدو.. ومضت في ذهني ذكريات قديمة. اذ تخيلت نفسي أمام مدير مدرستنا السابق وهو يستمع باستهجان ونفاد صبر خفي الى محاولاتي في الترجمة عن اللاتينية ثم مخاطبته لي بقوله: يا بوتر... إن ما يحاول (هوراس)[1] أن يخبرك به ولكن لايبدو أنك تفهمه هو هذا (المقطع): -

(سيصبح استدعاء تلك الأشياء في الذهن في مقبل الأعوام... أمراً يبعث على البهجة!).

بالطبع! فمهما كان البحر هائجاً ومضطرباً اليوم فإنه سوف يصبح هادئاً وساكنا في الغد! وكنت شاكرا لذاكرتي تحويلها (المقطع) إلى مثل شعبي قمت بتفسيره لفائدة (مارقريت) بمثل شعبي آخر!

قالت (مارقريت) التي كانت كعهدها دائما تملك العديد من الاقتراحات العملية: (يستحسن أن يتم دق الاوتاد في الموقع بكامله يوم غد الجمعة فهو يوم هادىء. فاذا تمكنا من البدء مع الخيوط الاولى للفجر فانه سيكون بوسعنا الفراغ من العمل عند موعد الغداء. وسيهيىء ذلك (الجابر) بداية موفقة).

وهكذا كان الأمر. عندما بدأنا العمل كانت السماء تتوهج باللون الأحمر الوردي قبالة منطقة (بري). وكانت الحمير ترحب بمقدم النهار بنهيقها المتواصل!

---

(١) هوراس: شاعر روماني تدور قصائده على محور الحب والصداقة. عاش حوالى عام (٦٥ - ٨ق.م). (المورد) لمنير البعلبكي - (معجم الأعلام) صفحة ٤٥.

حملنا داخل سيارتنا أدوات مسح الأراضى الخاصة بالجامعة. (مجموعة) من الأعمدة السوداء والبيضاء والحمراء. سلاسل وأشرطة القياس والأسهم التى توضح العلامات. (ازميل بارد) ومطرقة (مرزبة). وخلال دقيقتين فقط بالسيارة وصلنا الى الموقع. ولم يكن هناك أثر لشجرة (البانيان) العملاقة. ولأول مرة كان بامكاننا رؤية كل مساحة الموقع بنظرة خاطفة.

لقد دلّت التجارب على أن العمل فى ساعات الصباح الأولى فى المناطق الحارة والجافة مثل أواسط السودان يجلب الكثير من المتعة. كان علينا أن نبدأ العمل على الفور. أخذت أحفر بالازميل البارد [الزمبة] والمطرقة الثقيلة أول حفرة فى الأرض لنثبت فوقها أحد أعمدة المسح.

قالت (مارقريت) بعد ساعة من بدء العمل: هذا شىء غريب حقا. لقد بدا الموقع أصغر مساحة بعد ازالة شجرة (البانيان)!! كنت اعتقد أن المبنى سيكون مبنى ضخما.. ولكن هل تعتقد أنت بأنه سيكون مبنى صغيرا؟!

أحسست عندئذ بالضيق وبالحر الذى كان أشد وطأة من ذلك الذى تسببه الشمس والاجهاد. كانت (خارطة) الموقع التى سلمت لنا قد عُلّمت عليها الأبعاد. أخذنا نراجع المقاييس ونعيد مراجعتها على الأرض فاكتشفنا انها لا تتفق مع تلك التى على (الخارطة)! حاولنا زحزحة الحدود الخارجية للموقع ولكن ذلك لم يكن ممكنا اذ كانت الحدود تصطدم فى موضع مع مبنى كلية القانون وفى آخر مع مبانى الادارة!

قالت (مارقريت) في نبرة حزينة: انني آسفة من أجل شجرة (البانيان)! رددت عليها بقولي اللعنة على تلك الشجرة! إن كل من بالجامعة سيعلم بالأمر. فشجرة بمثل ذلك الحجم لا يمكن أن تجتث دونما سبب.

استطاعت (مارقريت) أن تفسر ما كان يعتمل في ذهني المضطرب في تلك اللحظة عندما قالت: إن الناس لا يذهبون بعيدا في ملاحظاتهم. ثم أضافت في خبث: ألا يمكنك أن تقتطع مجرد خمسة أمتار من كل جانب؟! إن هذا لن يتسبب إلا في أن يجلس كل طالب وقد اقترب اكثر من زميله بمسافة بالغة الضآلة!

كان هذا الاقتراح مخجلا ولكنه لم يكن خاليا من الوجاهة.. وهو يستحق التفكير فيه.. في هدوء وعزلة. وعلى كل كان موعد الغداء قد اقترب فقلت (لما رقريت): أعتقد بأنه كلما أسرعنا بفتح تلك الزجاجة من (بيرة أبو جمل) كان ذلك أفضل!.

في لهب الظهيرة كنا نجلس مسترخيين على مقعدينا (طراز القرن التاسع عشر) وأرجلنا ممددة على (مسندى القدمين) الى آخر مدى. وكانت قطتانا السودانيتان ترقدان في الظل وقد بسطتا أذرعهما.... وخاصرتاها بلونهما الأبيض والأسود والبني تتموجان وتهتزان. وكانت مخالبهما مشرعة لالتقاط أية ذرة عابرة من النسيم.. ولساناهما الأحمران الصغيران خارجان من فميهما المفتوحين!!

كان الهواء جافاً للدرجة التي حالت دون (تكاثف) قطرة واحدة على زجاجة البيرة أو الأكواب برغم حرارة اليوم وبرودة البيرة!!

وقالت (مارقريت): لا معنى لازعاج (المرضى) في (يوم جمعة) اذ بإمكانك الانتظار والترقب. بعدها أخرجت (مارقريت) أدوات التطريز الخاصة بها وشرعت في مواصلة العمل الذى كانت قد بدأته قبل ثلاث سنوات. وحينما انهمكت (مارقريت) في درزها وتطريزها استغرقت أنا في تفكير عميق.

لقد قامت جهة حكومية بعمليات المسح وأخذ المقاييس لموقع القاعة. ونحن من جانبنا شرعنا في العمل.. ببساطة.. على ضوء الرسومات التى زودونا بها. ولكن ألم يكن الأجدر بنا أن نراجع ونتأكد من تلك المعلومات في وقت مبكر؟! وفكرت بأن لا معنى الآن لاثارة مثل هذه الأسئلة.

والحقيقة لم تكن هناك أسس واضحة يتم بموجبها تحديد مهام كل جهة لأن ذلك لا يتفق وطريقة تفكير السودانيين! فالسودانيون بوجه عام يميلون الى الاعتماد على تقليد غير مكتوب يتوارثونه جيلا عن جيل. وكانت السمة الرئيسية لذلك التقليد كما علمت.. هى أنه طالما وضعت الثقة فيك لانجاز أمر ما فإن من المفروغ منه بأنك ستبذل قصارى جهدك لانجازه على الوجه الأكمل!

لم تكن هناك اتحادات لتخاطب المخدمين بما يجب عليهم أن يفعلوه أو لا يفعلوه بقواهم العاملة. وبالمثل لم يكن هناك (معهد ملكى) يناقشنى الحساب اذا قصرت ويؤازرنى ويساندنى فى أوقات الشدة. لقد قبلت بكل هذا. وبقدومى الى السودان اخترت الحرية. والآن فأنا أعايش الجانب الصعب من الاختيار!.

كنت استلقى فى استرخاء وهدوء تحت شجرة البرتقال بحديقة المنزل. وكانت أعضاء الشجرة مثقلة بأعداد وافرة من البرتقال الاخضر الذى كنا سنقوم بقطفه صباح الغد لتصنع منه (مارقريت) مربى (المارمليد) وسيكون ذلك عقب مقابلتى لمسجل الجامعة. وبرغم استعادتى لمعنوياتى فإنه كانت فى الأفق نذر شر مستطير عندما يتكشف الأمر بأن عقدا قد أبرم مع مقاول ليشيد مبنى ضخما على موقع لا يتسع له!

فى الثامنة من صباح اليوم التالى (السبت) كنت انتظر فى مكتب مسجل الجامعة عندما وصل (المرضى جبارة) ليبدأ عمله الاسبوعى. لم يكن من المناسب ذكر [الموقع] سيئ السمعة أو التنصل من مسؤولية ما تم اكتشافه. وتحاشيا لأى نوع من التعليق قدمت الحقائق دفعة واحدة فى موضوعية موجعة.

فى بداية سردى الموجز للمشكلة كان (المرضى جبارة) مبتسماً.. وعندما انتهيت من حديثى كان مستغرقاً فى الضحك!... وسألنى: هل هذا هو كل ما هناك؟! الآن فطالما ثبت أن (الموقع) الأصلى لا يلائم (القاعة) لا بد من ايجاد موقع آخر مناسب! إن المواقع كثيرة ومتوافرة. فالسودان بلد شاسع وليست هنالك مشكلة! سنذهب معاً لمقابلة نائب مدير الجامعة).

كان (المرضى) فى حديثة أشبه ما يكون بصانع ماهر... وهو يشرح (لصبيه) المشدوه بطريقة سهلة ومبسطة أحد اسرار المهنة!.

وسرنا جنباً الى جنب. رجل أسود ضخم الجسم وآخر أبيض ضئيله! وكان كلانا يرتدى قميصاً أبيض مفتوحاً عند العنق و(شورتا) أبيض

وجوارب بيضاء طويلة. ولكن المرضى كان ينتعل حذاء بنياً لامعاً مصنوعا من الجلد الانجليزى.. بينما كنت أدس قدمى فى (مركوبى) الأثير المصنوع من الجلد البرتقالى والذى اشتريته من سوق الخرطوم.

سرنا على الطريق المشجّر وسط الجامعة. فى البداية كنا نمشى تحت أشجار النيم.. ثم بين أشجار النخل الملوكى ذات السيقان (المفضضة) وبعدها كنا نستنشق عبير نبات (البطونية)[1] الذى كانت زهراته تصل إلى أحجام مذهلة فى هذه البلاد ذات الحرارة المرتفعة. وصعدنا على الدرجات العريضة للسلم الذى يقود الى مكتب نائب مدير الجامعة بالطابق الأول من المبنى الرئيسى لكلية غردون.

كان مكتب نائب المدير مكتباً رائعاً بحق وكنت أشعر دائما وأنا فى ساحته الفسيحة... الجيدة التهوية بأن النشاط والحيوية قد أخذا يتجددان فى خلايا عقلى وذهنى. فقد كان كل ما بداخل المكتب يبعث على الارتياح والطمأنينة.

(السقف الناصع والجدران المطلية باللون الأبيض الشديد البياض والستائر البيضاء المتماوجة أبداً إلى الداخل بفعل هبات النسيم القادمة من النيل الأزرق عبر النوافذ الكبيرة البارزة. وقطع الأثاث البسيطة ذات اللون الأصفر الهادىء.) وكان سحر المكتب فى ذلك الصباح أروع منه فى أى وقت مضى.. وازداد تعلقى به على مر الشهور والأعوام..

---

(١) البطونية نبات أمريكى من الفصيلة الباذنجانية - (المورد) لمنير البعلبكى صفحة ٦٧٩.

كانت عينا نائب المدير تطرفان اثناء سردى للمشكلة. ورغم أن (المرضى) لم يكن قد اتصل به قبل هذه المقابلة فإن رد فعله تجاه المشكلة كان مشابها تماما لرد فعل (المرضى). فقد تحولت ابتسامته الهادئة فى بداية السرد الى ضحكة عالية فى النهاية.. ربما أعلى من ضحكة (المرضى) نفسه فى تلك المرة!!

قال نائب المدير: إن علينا ايجاد موقع جديد للقاعة. وبالطبع سيكون هناك اجتماع (للجنة المباني). ترى هل يكفينى يومان لكى أقوم باقتراح عدد من المواقع مع ابداء تعليقاتى على كل موقع؟!

كان وجهه يفيض بابتسامته المألوفة ونحن نخرج من مكتبه متخذين طريقنا نحو السلم. وبمجرد عودتى الى المنزل سألتنى [مارقريت] فى لهفة وقلق عن كيفية سير الأمور. وأخبرتها بسرعة عما تم التوصل اليه. وهنا حدث شيء غريب. فقد عبرت (مارقريت) بنفس كلمات (المرضى) فى الصباح الباكر لذلك اليوم (الحمد لله!!).

الفصل الثالث

قاعـــة النجـــاح

عجوز فى أسمال سوداء!

لا أحد يستطيع أن يوجه اللوم الى المقاول جابر أبو العز على أى تأخير يمكن أن يحدث فى تشييد (قاعة الامتحانات). فقد أعلن جابر بوضوح منذ البداية وحتى النهاية بأن هذا المشروع هو مطمحه وهدفه المرتجى. ولهذا فقد كان حريصا وفى غاية الدقة وهو يدخل (الموقع) دخولا دراميا فى الموعد المحدد!

حقيقة لم تكن هناك مراسم أو فرقة موسيقية. فهذا هو السودان حيث يسود الاتزان والتعقل. والسودان لا يعرف الجماعات الدينية والسياسية المتعصبة ذات الآراء المتطرفة. وهو يتخذ دائما مواقف الاعتدال والتوسط فى كل شىء.

كانت اللحظات التى سبقت بدء العمل فى تشييد القاعة مثيرة للاعجاب. فى المقدمة كان جابر أبو العز داخل سيارته الأمريكية الكبيرة.. شبه الجديدة التى كانت تتهادى فى أبهة. وخلف السيارة كان يسير عدد كبير من العمال الذين هم على الأغلب من جنوب السودان ويستطيع المرء أن يحكم على ذلك بقاماتهم الفارعة الطول وبلون بشرتهم السوداء. وكان كل واحد من هؤلاء العمال يحمل نوعاً ما من أدوات العمل البدائية. وكان آخرون يدفعون بالأيدى خلاطاً عتيقا للاسمنت نحو الموقع. وفى مؤخرة الموكب كانت تتحرك شاحنة متهالكة ربما كانت من مخلفات الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ وهى تصدر صوتاً انفجارياً متقطعاً وخافتاً!.

وبما أن معظـــم العمـــال قد وفدوا من مناطق بعيدة من الخرطوم كان

لابد من إيوائهم بتدبير مساكن مؤقتة لهم. وخلال ساعة واحدة كانت هذه (المساكن) المتواضعة قد أقيمت على أطراف الموقع.. وكانت معجزة في الارتجال والسرعة.. وكانت المواد التي استخدمت في اقامتها تتألف من صناديق التعبئة الفارغة وفروع الأشجار والقش وبعض مواد البناء التالفة!.

وبرزت فجأة.. وكأنها قدمت من (اللامكان)... عجوز طويلة الجسم في أسمال سوداء! وسرعان ما تبين أن مهمة العجوز هي الاشراف على قاطني (المساكن) المتواضعة من فرق العمل المتناوبة، وتلبية احتياجاتهم المعيشية. وكان بالامكان رؤيتها في كل يوم وهي تشق طريقها عبر أكوام الطوب والسقالات وقد استقر على كتفيها عود من الخشب يتدلى من طرفيه (دلوان) سعة كل منهما خمسة جالونات من الماء.

من وقت الى آخر كان يرتفع عمود من الدخان وكان ذلك دليلاً على أن عمليات الطهو قد بدأت مثلما كان نشر الغسيل على الحشائش يقف شاهدا على أن العجوز كانت تقوم بغسل ملابس عمال البناء!

طالما ظل رجال السيد جابر يعملون في تشييد جدران القاعة بالطوب.. وكانت الجدران تشكل القدر الأكبر من الجزء الأسفل من المبنى. لم يكن هناك سبب عاجل يجعلنا نخشى حدوث تأخير من جانبنا... نكون نحن مسؤولين عما يترتب عليه. ولكن ماذا سيحدث بعد أن يتم تشييد الجدران ويصبح الأمر متوقفا علينا لنبدأ مرحلة السقف؟!.

إن الطوب متوافر بكثرة فهو يصنع محلياً هنا في الخرطوم؛ ولا يشكل الحصول عليه أية صعوبة للمقاولة، ولكن بالنسبة لخشب المهوقني النفيس الذي قمت بطلبه من جنوب السودان فإن الأمر يختلف تماما. ولو قدر لتلك الألواح أن توضع متراصة في خط مستقيم اللوح بعد الآخر لبلغ طول ذلك الخط ميلا كاملاً!! وتخيلت في قلق وتوتر (دواليب التجديف)

فى الباخرة النيلية التى تحمل ألواح المهوقنى وهى تشق طريقها عبر مائتى ميل من الرواسب الطينية وأعشاب النيل.

هل كان بوسعنا فعل شيء لاستعجال شحن المهوقنى ؟! بالتأكيد. فبالإمكان إرسال برقية وسلطات الغابات بالخرطوم على استعداد دائم لعمل ذلك.

عندما تم مد خطوط التلغراف بجنوب السودان قبل خمسين عاما كانت الأفيال تطيح بالأعمدة بمجرد اقامتها ... بينما كانت التماسيح تلتهم العمال الذين كانوا يقومون بتوصيل الأسلاك واصلاح الخطوط[1] !! وحتى موظفى التلغراف فى مكاتبهم كانوا عرضة للازعاج من قبل الخفافيش الحية منها والميتة! وقد أوحت لنا جولاتنا بالجنوب فى حوالى عام (١٩٥٧) بأن الأحوال لم تتغير تغيرا جوهريا. أما كيف كانت تعمل خدمات التلغراف فهذا يعتبر شيئا ثانويا بالقياس الى أنها لا تزال باقية!

قامت سلطات (الغابات) بإرسال برقية تستحث فيها المسؤولين بالسكة الحديد لاستعجال موظفيها بالمحطة النهرية بجوبا على سرعة شحن الأخشاب. وكانت مخاوفنا تزداد كلما ارتفعت الجدران. وقد تفوق (جابر) على كل توقعاتنا . وحقيقة إن عماله كانوا لا يعرفون شيئا عن (عربة اليد) ذات الدولاب الواحد أو الدولابين والتى تنقل عليها مواد البناء.، لم يكن يمثل أى عائق. فقد كانت المواد مثل الطوب والأسمنت والرمل والملاط (المونة) يحملها اثنان من العمال بنفس الطريقة التى يحمل بها رجال الاسعاف عندنا المريض فوق نقالة! واحد فى المقدمة والآخر فى المؤخرة وقد أمسكا بكل يد طرفى عمودين افقيين يستقر بينهما وعاء كبير يحتوى على مواد البناء.

(١) قبل الاستقلال وبعده كان قد تم ربط كثير من المدن بجنوب السودان ببعضها البعض وبالخرطوم عن طريق التلغراف اللاسلكى.

وما أن بلغت الجدران ارتفاعها المنشود حتى كانت السقالات الخشبية قد نصبت داخل المبنى، لكى تشكل قاعدة يمكن أن يقف فوقها العمال الذين سيقومون بتركيب (سقف المهوقنى). كانت الأعمدة والألواح والكتل قد سمرت الى بعضها البعض حتى صارت أشبه ما تكون بغابة من الأخشاب. وقد أوضح ذلك بجلاء كيف عالجوا فى الامبراطورية الرومانية القديمة اقامة قبة (البانتيون) أو كيف نفذ المعماريان الفذان ARTHEMIUSو ISODORUS سقف مبنى HACIASOPHIA فى CONSTATINOPOLE.

حتى الآن لم تكن قد وصلتنا أية أنباء عن شحن المهوقنى ولكن الإعداد للاحتفال بافتتاح القاعة كان يسير سيراً حسنا. وقد علمنا... والشكر لمعهد (جوته).. بأن أعضاء من (أوركسترا راديو (كولون) السيموفونية) سوف يقدمون عرضا موسيقيا ليلةالافتتاح.

فى هذه المرحلة تدخل القدر. فقد بدأت أحس بأننى لست على ما يرام وبأننى كثير العرق بصورة غير عادية حتى بالنسبة للطقس الذى كان سائداً. وعندما ظهر طفح أحمر وانتشر فوق عنقى وصدرى مصحوباً بألم فى الحلق لجأت (مارقريت) الى كتاب للسيدة (بيتون) (الشؤون المنزلية والأسرية) وبحثت فيه عن حالتى تحت باب (الأمراض). ونتيجة لما توصلت اليه «مارقريت» بعد قراءة (الباب) تم استدعاء الطيب الذى شخص مرضى بانه (الحمى القرمزية)! وقد برهن هذا المرض الطفولى على أن اصابة البالغين به ليست نكتة! ولمدة ثلاثة اسابيع على وجه التقريب كنت مريضاً جداً ومجهداً. ثم كان ذلك اليوم الذى استيقظت فيه

وأنا واهن الجسم وشاحب الوجه لأجد أمامى مندوبنا فى (الموقع) وهو يتسم وقد أمسك بيده قطعاً من خشب المهوقنى.

تناولت منه القطعة شاكراً ومررت بيدى على سطحها الأملس المصقول واعجبت بلونها الأرجوانى الداكن وباتجاه الألياف الفائق الجمال آلذى تتمتع به. وفى هذه الاثناء أبلغت بأن شحنة الأخشاب يتم انزالها الآن فى موقع البناء. وان المشكلة الوحيدة حسبما أخبرونى تتمثل فى ايجاد المكان الذى يمكن أن تحفظ فيه هذه الأخشاب. وعند هذه النقطة جاء الطبيب ليصف لى زجاجة مثلجة من بيرة (أبو جمل) أقوم بشربها فى صحة مصلحتى الغابات وخدمات التلغراف لتغلُّبهما على كل المشاكل التى تعوق أداءهما!

ان الصيف فى السودان حار عادة ولكن صيف ذلك العام الذى بلغت فيه درجة الحرارة فى الظل ١٢٠ درجة فهرنهايت كان صيفا استثنائيا! ولذا كان لابد من حماية العمال الذين يعملون فى تركيب السقف باقامة بعض المظلات المصنوعة من المشمَّع. ولكن كانت لا تزال هناك مشكلة أخرى. فقد كانت المسامير المستخدمة فى تثبيت الألواح الخشبية تصبح شديدة الحرارة بمجرد تعرضها للشمس ويستعصى الامساك بها بالأيدى! وأمكن حل هذه المشكلة بإفراغ المسامير مباشرة فى أوان مليئة بالماء البارد.. وتجديد الماء بين كل آونة وأخرى وجعل المسامير فى متناول أيدى جميع العمال!!

يبدو أن أهمية تصميمات زخارف الخط العربى الأربعة التى لعبت دورا حاسما قبل مولد قاعة الامتحانات قد أخذت تزداد يوما بعد الآخر كعنصر أساسى من عناصر تصميم القاعة. وكان الجدران المحيطان بالمنطقة الوسطى للقاعة هما المكانان المناسبان لكتابة كلمات النقشين المتماثلين

لنص (وما توفيقى إلا بالله) بنفس حجم تلك الحروف فى مواقع اخرى داخل القاعة.. استطعنا أن نقنع (مارقريت) دون عناء كبير بأن تقوم بنفسها بتنفيذ عملية نقل النقوش الخطية بحجمها الكبير من الورق الى الجدران. ولكن قبل ذلك كان لابد من إعداد النقوش الخطية اعداداً فنياً جيداً. وحالفنا الحظ فى أن نلقى بالخرطوم فنانا مبدعاً وخطاطاً من الطراز الأول هو السيد عثمان عبد الله وقيع الله.

لقد كان شيئاً رائعاً بحق متابعته وهو يغمس فى الحبر الهندى أدوات الخط ذات الأحجام المختلفة والمصنوعة من البوص (المبرى). وأعجب النقش الذى خطه وقيع الله لأسم (الله) ثلاثتنا على الفور.. أما النقش الآخر الذى يحمل كلمات (وما توفيقى إلا بالله) والذى وضع له تصميمين مغايرين فقد وجدنا صعوبة كبيرة فى المفاضلة بينهما. اذ كان كلاهما فاتنين. واستقر الاختيار فى النهاية على أحدهما بدعوى انه يلائم بصورة أفضل إلى حد ما الملامح المعمارية لتصميم القاعة!

كانت مهمة (مارقريت) هى تكبير الخط من حجم الورقة الى حجم الجدار ثم نقله بالفرشاة والطلاء على الجدران. كانت النقوش الخطية المنقولة على الجدران الشديدة البياض تحمل اللون الأسود الفاحم فيما عدا كلمة (التوفيق) فى أحد التصميمين المتماثلين فقد كانت تحمل اللون القرمزى لاعتقاد (المرضى) بأن هذا اللون سوف يضفى على النقوش لمسة من الجمال.

فى أصيل كل يوم ولأكثر من شهرين كانت (مارقريت) تقوم بتنفيذ هذا العمل لمدة ساعتين أو ثلاث على نحو موصول.. فى الوقت الذى كان

فيه بقية أهل الخرطوم يخلدون الى نومة القيلولة! ولكن كان هناك استثناء واحد فلم تكن السيدة العجوز تركن الى النوم برغم أنها لابد أن تكون متعبة نتيجة لكدحها منذ الصباح!

كانت العجوز تقف يوميا ودون انقطاع بقرب السلم الكبير الذى كانت «ما رقريت» تعمل من فوقه وهى ترقب كل حركة فرشاة! وعندما أكملت (مارقريت) نقل آخر النقوش الجدارية الأربعة طلبت منها العجوز أن تهديها (المرطبانات) التى كانت تستخدمها فى مزج الطلاء وتنظيف (الفرش)!.

بعد الفراغ من تركيب السقف ونقل النقوش على الجدران كنا فى النهاية على استعداد لتوصيل التجهيزات الكهربائية وتثبيت بقية المعدات.

قمنا بعمل تصميم الكراسى جلوس من خشب آل (DAROUT) الأصفر.. بظهور مضلعة ومساند ناعمة للأيدى من المهوقنى الأحمر الغامق. وقام السيد جابر أبو العز بصنعها لنا على نحو رائع خاصة بالنظر الى أنه لم يعالج من قبل قط عملا بمثل هذا الطموح فى مجال صناعة الأثاث. وعهد جابر بصنع الوسائد الجلدية الخاصة بالكراسى إلى مجموعة من النسوة المسنّات اللائى يقمن بامدرمان. وقد أصطحبنا جابر يوماً إلى هناك فى سيارته الزرقاء العملاقة لتفقد سير العمل.

كانت الوسائد تبدو رائعة حتى قبل أن يتم حشوها بوبر الجمال. وكانت النماذج العشرة للزخرفة العربية التى قدمناها لهن... ومعظمها باللونين الأخضر، والأسود قد تم تثبيتها على الوسائد بوساطة سيور جلدية رفيعة. وكان لون الجلد الذى صنعت منه الوسائد هو اللون

البرتقالى الزاهى وهو اللون الأثير عند السودانيين... وهم يستخدمونه فى العديد من الأغراض.

اثناء وجودنا هناك كانت النسوة المسنات يقمن بعملية الصقل النهائية للوسائد مستعينات فى ذلك بحصوات ملساء مستخرجة من نهر النيل الذى يقع فى الجوار.

كان قد أصبح واضحاً الآن بأن الفرقة الموسيقية التى سبق ذكرها سوف تقوم بالعزف ليلة افتتاح القاعة. وكان الموعد الذى حدد للافتتاح قريباً بصورة غير مريحة وتدعو للتوتر.. اذ كان جابر أبو العز بمصر وكانت بعض الأعمال المهمة داخل القاعة لم يتم انجازها بعد...وقد علمنا بأن اكمالها قد عهد به الى جهات أخرى.

على سبيل المثال لم تكن الكهرباء قد أدخلت فى المبنى وهذا أمر خطير نسبة الى أن (الاوركسترا) ستقدم عروضها الموسيقية مساء.

الأرقام (العربية) للساعات الكبيرة والتى قمنا برسمها فى حجمها الكامل وطلبنا تصنيعها من النحاس فى لندن كانت قد وصلت الى ميناء بورسودان. ولكن الترحيل إلى الخرطوم كان متعذراً آنذاك بسبب ايفاد سائق القاطرات إلى خارج البلاد للتدريب على قيادة نوع جديد منها فى (CREWE) !!.

كانت جميع أبواب القاعة قد أحكم اغلاقها بربطها (بالدوبارة) فى انتظار وصول الأقفال والمقابض التى تتناسب مع تصميمها والتى لم تكن متوافرة محلياً.

بعد عناء عظيم تمكنا من اكتشاف عنوان جابر أبو العز فى مصر

القديمة.. وكتبنا له طالبين منه العودة الى السودان. وعاد الينا جابر بسرعة مذهلة ووجهه يفيض بالبشر والرغبة الصادقة فى التعاون.

وفى زمن قصير جداً أقيم هيكل هائل من الحديد (المزوًى) ليشكل القاعدة التى جهزت بأربع وثمانين (لمبة فلورسنت) كانت تتدلى من وسط سقف القاعة.. حسب التصميم الذى أعددناه.. مثل (كعكة زفاف) مقلوبة!!.

تم قطع (ميناء) الساعات الكبيرة الثلاث من ألواح الألومنيوم.. وانطلقت شاحنة الى بورتسودان لاحضار الأرقام (العربية) المكملة لها والمصنوعة من النحاس.

شركتا (الخطوط الجوية البريطانية لما وراء البحار) و(مصر للطيران) وافقتا على المساعدة بالبحث عن اقفال ومقابض أبواب (القاعة) ذات المواصفات الخاصة.. فى المدينتين اللتين حددناهما لهما وهما (شفيلد) و(بيرمنجهام).

فى النهاية كان حشد كبير من العمال يقوم بكنس (القاعة) وازالة النفايات وفضلات مواد البناء من داخلها ومن حولها وحَملها داخل سلال من السعف (قفاف) وافراغها فى أحشاء الشاحنة العتيقة المتهالكة.

تغير الطقس فجأة وكأنه يعبرّ عن اكمال عمالنا لواجباتهم! ففى مساء ذات اليوم الذى فرغ فيه العمال صباحاً من ايداع آخر سلة من النفايات داخل الشاحنة العتيقة. كنت أقف فى (فرندة) منزلنا وقد انتشرت فى الجو حرارة مشبّعة بالرطوبة والأتربة التى كانت تهب فى ضراوة من قفار منطقة البطاحين الرملية ومن سلسلة الجبال شمالى المدينة المعزولة!

ومن خلال كتل السحاب المتراكمة كان بوسعنا أن نرى بين الحين والآخر على ضوء البدر المكتمل فى تلك الليلة ... أشجار (البو)[1] فى حديقتنا وهى تنحنى انحناء كاملاً بفعل الرياح.. وأوراقها التى تشبه الأصابع تتراقص في جنون!.

وهطلت الأمطار فقفزنا ونحن لا نزال فى ملابسنا الاستوائية الخفيفة إلى داخل سيارتنا واندفعنا فى لهفة الى (قاعة الامتحانات) للاطمئنان على أن (الميازيب) العملاقة تعمل لأقصى مدى. كانت وظيفة هذه (الميازيب) هى قذف المياه من فوق أسطح القاعة بعيداً عن المظلات الواقية من الشمس حتى تسقط.. أو هكذا خططنا لها ... داخل (حابسات) المياه المشيدة على الأرض.

وعند وصولنا كان (الحابس) الرئيسى وطوله خمسة عشر قدما ويشبه... الى حد بعيد... نصف قشرة بيضة هائلة قد امتلأ بمياه الأمطار التى يعلوها الزبد. وكان شلال هادر يشق طريقه من السقف ويصب مياهه وسط (الحابس) في جلبة وصخب. كان مشهداً فاتناً. ضوضاء عالية وحركة وسحب من الرذاذ!! وأخذت عاصفة رعدية عنيفة تجتاح سماء الليل.

كان مبنى كلية غردون يبدو فى تلك الليلة كمسرح خرافى؛ وقد وقف أمامه صفان من أشجار النخل الملوكى. وكانت الأشجار وهى تتمايل وتترنح وتندفع الى الأمام من شدة العاصفة تبدو أشبه ما تكون بمجموعة من راقصى الباليه السكارى!! وبما أننا كنا أصلا مبتلين ابتلالاً كاملاً فقد اندفعنا فى مرح طفولى لنغمر أجسادنا بمياه (الشلال) المتساقطة من عل!.

---

(١) (البو) شجر (شمال أمريكى) ذات زهرات أرجوانية لها ثمر أصفر يؤكل . [المترجم]

بعد عودتنا إلى المنزل فقد تذكرت بأننى نسيت أن أطلب من السيد جابر أبو العز بأن يبذل جهدا آخر ويقوم بتوصيل السلك النحاسى الخاص الذى يثبت فى أعلى المبنى ويتم ربطه بالأرض ليعمل كمانع للصواعق.

ليلة الافتتاح كانت القاعة على سعتها .. قد امتلأت تماما وكانت السيارات السوداء الفارهة تقف تحت أشجار النيم المنتشرة فى المكان ويهبط منها علية القوم من كل شكل ولون. بعضهم فى بزاتهم العسكرية والبعض الآخر فى ملابسهم الوطنية ذات التشكيلات المتنوعة والمترفة. وكانوا جميعهم يتجهون من هناك الى أبواب الدخول الرئيسية والتى كانت أقفالها ومقابضها قد ثبتت فيها لحسن الحظ.

وواحداً بعد الآخر جلس المدعوون على الكراسى الوثيرة وغاصوا فى الوسائد المحشوة بوبر الجمال.. وقد صاحب جلوسهم صدور هسيس خافت سببه خروج الهواء من داخل الوسائد!

من السقف كانت تتدلى مجموعة لمبات (الفلورسنت) التى تشبه (كعكة الزفاف) المقلوبة وهى تتوهج بينما سلط ضوء كشاف على أجزاء من السقف لابراز تقويساته وانحناءاته وظلاله وألوانه.

خلف المسرح علقت ستائر سوداء عليها بعض الزخارف النوبية الملونة. وقد قامت «مارقريت» بتثبيت هذه الزخارف عليها مستعينة بماكينة الحياكة اليدوية القديمة التى نملكها - ولا أعتقد أن والدتى أو جدتى قد دار بخلديهما أن ما كينتهما النفيسة ستدور يوماً ما؛ لكى تنجز مثل هذا العمل.. فى مثل هذا المكان... فى مثل هذه الفترة الموغلة فى البعد من المستقبل!

واستغرقت فى تفكير عميق. أن ما لا يمكن التنبؤ به يحدث دائما وبالفعل حدث ذلك. فى صباح نفس ذلك اليوم. فبمجرد أن ظهر للعيان

فوق المسرح عازفو آلات النفخ الموسيقية (لأوركسترا راديو كولون السيمفونية) وهم في ملابس السهرة البالغة الأناقة وملأوا القاعة بأصوات موسيقية عناية في الوضوح والصفاء استعدت في ذهني ما دار في ذلك الصباح بيني وبين قائد الاوركسترا (ولهم ريشا) فقد أعجب السيد (ولهم) إعجاباً كبيراً بالتجهيزات الصوتية بالقاعة، والتي كان يعتقد جازما بانها أصلا (قاعة موسيقى)! ولما أوضحت له بأنها في الواقع (قاعة امتحانات) وليست قاعة موسيقى. كان لا يزال مصراً على اعتقاده فقد خاطبني قائلا: تهاني! ولكن يمكنني الزعم بأنك تضحك عليّ! إنها (قاعة موسيقى)!!.

في تلك اللحظات كان يغمرني ذلك الشعور المدهش بالنشاط والشفافية، والذى يمكن للأفكار خلاله الانطلاق في يسر عبر القارات! وعندما انتهت الفرقة من عزف مقطوعة (كارل استامتز) الرباعية وكانت تمثل الجزء الأول من الحفل الموسيقى. كنت بعيدا جدا بأفكارى للدرجة التي أصبت فيها بصدمة عندما أضيئت الأنوار ووجدت نفسى في افريقيا! وحدث لغط وضجيج وغمغمات مختلفة بين الحاضرين ولكنها سرعان ماتلاشت بمجرد أن ظهرت أمامهم سيدة عجوز طويلة الجسم في أسمال سوداء. كانت العجوز تشق طريقها من الجانب القصى للقاعة إلى حيث كنا نجلس في الصف الثاني. كانت تمشى في كبرياء منتصبة القامة وهي تمر أمام المسرح وأمام علية القوم. وعندما اقتربت منا نهضنا من مقاعدنا ووقفنا.

تناولت السيدة بين يديها في صمت اليد اليمين (لمارقريت) ورفعتها إلى أعلى ثم ضغطتها على شفتيها. بعدها استدارت لتعود أدراجها من حيث أتت؛ دون أن تلتفت يمينا أو يسارا حتى خرجت تماما من القاعة واحتواها الظلام!.

العبور إلى جبل البركل المهيب

كان لدينا سبب محدد لكى نعبر النيل عند هذه النقطة. فقد كان جبل البركل المهيب يقف هناك بالضفة الشرقية لنهر النيل وحوله مجموعة من الأهرامات وبعض المبانى الأثرية المهمة وكعل من حجارة منحوتة تحمل نقوشاً غاية فى الجمال. وكان منظر طلابنا وهم يندفعون فى حماسة نحو الموقع أشبه بأسراب من النحل الطنّان وهى تغزو حقول الفول المزهرة فى فصل الربيع فى انجلترا!!.

وعلى مسافة ليست بالبعيدة كانت تقع بلدة [الزومة]. وفى منطقتها الأثرية هبطنا إلى الحجرات المقابلة تحت الأرض، ونحن نحمل الشموع فى أيدينا. وكانت الحجرات مزينة بلوحات ملونة تمثل ملوك السودان القدماء وهم يرقدون على بطونهم ورؤوسهم مرفوعة الى أعلى.. وقد ظلوا على هذا الوضع الأبدى المُتعِب فوق أرائك ملكية ذات تصميمات غاية فى الغموض والغرابة.

عندما نصبنا خيامنا بالقرب من جبل البركل كان التعب قد أخذ منا كل مأخذ. وفجأة ونحن على هذه الحال من الارهاق تذكّرنا الخطر المحدق بنا فامتلأت نفوسنا بالقلق والتوتر.

كانت تلك المنطقة كما علمنا من بعض الأهالى مليئة بالعقارب وبنوع خطير وشرس من الثعابين الصغيرة البنيّة اللون.، والتى يصعب تمييزها لأنها بلون الرمال التى تعيش فوقها. وكان على الثعابين أن تكون بحق بمثل تلك الشراسة طالما كانت تقوم بحراسة الكنوز المدفونة تحت الأرض هناك!!.

وعلى مقربة من مكان معسكرنا كانت تبدو فى الظلام مدافن قديمة تحتل مساحة كبيرة من الأرض. وفى تلك الليلة ... كما اعتقد.. لم يكن داؤود هو الشخص الوحيد الذى أخذ جرعة مضاعفة من الأسبرو لتهدئة أعصابه!

فى الجنوب الغربى من نبته ومروى على مسافة ٢٥٠ ميلا وبالتحديد بالقرب من شندى توجد منطقة أُخرى غنية بالمبانى التاريخية الرائعة. وكانت تلك المنطقة هى الهدف التالى لرحلتنا. وللوصول اليها كان لابد لنا من أن نعبر النهر مرة اخرى الى الضفة الغربية وننطلق عبر الصحراء.

وهناك مررنا بكنيسة قديمة و(بدير الغزالى) وهما مبنيان قد يثيران اهتمام الجيولوجى أكثر من إثارتهما لاهتمام المعمارى!!

وعندما توسطت الشمس كبد السماء بدت لنا فى الأفق البعيد نقطة صغيرة مبهمة. وكلما اقتربنا منها أخذت معالمها فى الوضوح شيئا فشيئا حتى وجدنا أمامنا رجلا على ظهر جمل. وبمجرد أن التقى بنا طفق يحدثنا بصوت متقطع مكتوم عن آلام قاسية قال: إنه عانى منها فى ظهره وكتفيه وذراعيه. وبطريقة غريزية كان يوجّه حديثه للطالب محمد محمود حمدى مفترضا أنه الشخص الذى يقوم بعلاج أفراد الفريق!

وفى الحال انبرت له ما رقريت (طبيبتنا) أو (عرّافتنا) كما كان يحلو لنا أن نسميها.. مستجيبة لاستغاثته ومستعدة لعمل ما يمكن لتخفيف شقائه وتعاسته.

أخرجت ما رقريت من بين حوائجها علبة معدنية كبيرة كانت تخص فى الأصل والدتى.. وعهدى بهذه العلبة منذ الصبا الباكر. فقد أعطتنى اياها والدتى فى ذلك الزمن البعيد؛ وطلبت منى الاحتفاظ بها مع تحذيرها

الشديد لى بألا استعمل ما تحتويه من دواء الا عند الضرورة القصوى ... لأن المادة التى يتكون منها الدواء مادة قوية المفعول لدرجة كبيرة. وأنا أشك إن كان غطاء هذه العلبة قد رفع عنها منذ الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨!.

فى تلك الفترة كنا نقطن قبالة مكتب المجندين الجدد. وكانت والدتى تقوم بتلطيف آلام المصابين منهم بداء التهاب المفاصل؛ بوضع قدر من محتويات هذه العلبة على المواضع المتأثرة بالالتهاب ومن ثم يتم تجنيدهم وحشر أجسادهم داخل (البزات) العسكرية! وكانت والدتى (تزعم) إن العلاج بمرهمها ذلك ناجح مائة فى المائة! ومنذ سنوات بعيدة انتقلت (العلبة) من يدى ليد مارقريت التى لا ترمى شيئا أبدا وظلت تحتفظ بها طوال هذه المدة.

بدأ الرجل الذى على ظهر الجمل يترنح ويتأوه... ربما كان ذلك من تأثير نوبة من الألم المفاجئ داهمته فى تلك اللحظة. وحرّك تأوهه مشاعر مارقريت ذات القلب الرقيق. فدفعت اليه بالعلبة باكملها وطلبت أن يوضحوا له بأن يمسح المرهم على مواضع الألم. بعدها استأنفنا رحلتنا نحو عطبرة وشندى. واختفى الرجل وجمله فى ذلك النهار القائظ وسط وميض ضبابى وصخور بلّورية منتشرة فى كل مكان.

استغرقت مارقريت فى تفكير عميق بعد رحيل الرجل ثم قالت مخاطبة حمدى: أنا افترض إنك قد أوضحت للرجل وبجلاء أن يضع المرهم على أماكن الألم لا أن يأكله! وكان رد حمدى أبعد ما يكون عن طمأنتها!.

قال حمــــدى: (إنه لمن الصعب جداً فهم طريقة تفكير هؤلاء الناس. انهم يتنـــــاولون أى دواء عن طريق الفم! وكذلك فهم يأكلون كل مايجدونه أياً كان ذلك الشيء!! ثم لا أدرى لماذا يعتقد الجميع بأننى طبيب؟!). وصمـــت حمـدى برهة قبل أن يضيف قائلا: إن هذا الاعتقاد لهو إحدى مشاكلى..

عنـــدها صـــاحـــت مارقريت فـــى أسى واشفـــاق: (ولكـــن ذلك أمر فظيع!.. فظيع!) ولولا أن شاحنة مرشدتنا «آن قراهـــام» والتى تسير دائما فى المقدمة كــــانت قد ابتعدت عنــــا بما يقـــارب ثلاثة أربا ع الميـــل لبـذلنا جهدنا فى اللحاق بالرجل وتبصيره بالطريقة الصحيحة لاستعمـــال الدواء.

ولما لم يكن ذلك ممكنا فقد صرفنا النظر عنه واستأنفنا الرحلة فى تلك المنطقة الصعبة التى تزخر بالبراكين الهامدة منذ عهد موغل فى القدم حسبما تبين الخرائط الطوبوغرافية التى كانت بحوزتنا.

وعنــــدما وصلنا الى مدينة عطبرة كان ذلك عشية عيد الميلاد.. وقد رتبت اقــــامتنا بإحدى المدارس الواسعة الأرجاء. ولأول مرة منذ رحلتنا أمكننا أن ننعم باغتسال كامل بالماء. وفى صبيحة عيد الميلاد واثناء وجبة الافطار قدّم لنا (الأولاد) بطاقتين جميلتين من اعدادهما مرسومتين بقلم رصاص.

كانت البطاقة التى أعطيت لما رقريت تحمل فى أعلاها هذا العنوان: (الإقامة بجوار اهرامات نورى) وكانت البطاقات تصور مشهدا يضم خليطاً عجيبا من الأشياء. (كراتين معبــــأة.. طلاباً يرتدون (البالطوهات).. أطباقا..

صفائح..) ووسط هـــذا الخليط كانت مارقريت تجلس في هدوء ورزانة. وكان من السهل تمييزها بشعـــرها المعقـــوص والمنتهـــى بعقدة في قمة رأسها.

أما البطاقة التي قدمت لي فقد كانت غامضة الى حد ما.. ولكنني تمكنت من فهم الرسالة التي كانوا يريدون توصيلها إليّ عن طريقها. وكانت رسالة نبيلة ولا يمكن نسيانها.

سائقا الشاحنتين والطهاة الثلاثة وآن قراهام ومارقريت وأنا كنا ضيوف الطلاب في حفل العشاء في تلك الأمسية. وكان الحفل مقاما في حجرة واسعة من حجرات الدراسة.

إن المشهد الذي وقعت أعيننا عليه للوهلة الأولى لدى دخولنا حجرة الاحتفال كان شيئا فريداً بحق. توسطت الحجرة مائدة في غاية الضخامة مطلية باللون الأخضر، ومغطاة بقماش أبيض كاسها بأكملها ولم تبد منها سوى الأجزاء السفلى من أرجلها. وكانت على المائدة مجموعة من الأطباق التي رُصّت في تنسيق بديع، وقد حوت اللحوم والأسماك والخضر والفاكهة والخبز والحلوى.. وقد قام الطلاب بشراء كل هذه المواد الغذائية من مدينة عطبرة.. وقاموا كذلك بطهوها واعدادها بأنفسهم.. ابتداء بالأطباق الرئيسية وانتهاء بالأطباق الصغيرة الكثيرة، والتي كانت موضوعة على مائدة جانبية وبها تشكيلات متنوعة من (السلاطات) والمشهّيات ذات المذاق الحريف. وكان من المستحيل تميز أي نوع منها على وجه التحديد!.

بعد العشاء جاء وقت تقديم الهدايا. كانت هدية مارقريت عبارة عن (محفظة) نقود تتدلى من العنق بسيور جلدية. أما هديتي فكانت طاقية

برتقالية أنيقة مثل تلك التى يضعها السودانيون تحت عمائمهم البيضاء.

كانت هذه الطاقية هى المفضلة عندى. ولكن مارقريت حرمت على اعتمارها بالسودان وقالت إن علّى أن احتفظ بها للاستعمال اليومى بعد العودة لبلدتنا (ابرستويث) بويلز!.

أحد الطلاب قال معتذراً: لقد بحثنا بحثاً مضنياً فى جميع أرجاء سوق عطبرة ولم نجد هدايا مناسبة لكى نقدمها لكما. كان حديث الطالب مؤثرا وقد عكس حقيقة مشاعرهم نحونا.

مشهد الريف السودانى ونحن نتجه جنوبا نحو الخرطوم كان يختلف اختلافا كبيرا عند مقارنته بتلك القفار الجرداء، التى قضينا فيها معظم أيام الرحلة. فقد كانت حقول الذرة تمتد لمسافات بعيدة على جانبى النهر. وخلف الحقول كنا نرى أعداداً من الماعز والجمال وهى توعى أشجار السنط المتفرقة هنا وهناك..

كانت الماعز تقضم الأغصان المنخفضة وكانت الجمال تقضم الأغصان المرتفعة، ولهذا السبب اتخذت الأشجار شكلا يشبه شكل نبات (عش الغراب)!! وشمخت المآذن البيضاء عالية تشق طريقها نحو سماء زرقاء ذات عُلوٍ غير محدود. وانتشرت فى الجوار مجموعات من المنازل الطينية الأنيقة التى بدت كأنها نبتت من نفس الأرض التى تقف عليها وهى فى الحقيقة كانت كذلك!..

وفى وسط تلك المجموعات الصغيرة من المنازل كانت هناك أعداد من (أكشاك) بيع الفاكهة.. وقد عُرضت فيها أنواع من الفاكهة من بينها موز أخضر اللون ولكنه ناضج رغم ذلك! اضافة الى أعواد قصب السكر والجوافة..الى جانب اكواب الشاى والقهوة...

في طريقنا الى شندى مررنا بمنطقة زاخرة ببعض من أروع الآثار السودانية.. وهى المنطقة التى تقع فيها مدينة (مروى القديمة)... وتعتبر هذه المدينة هى الموازى التاريخى لمدينة (بومبى) الشهيرة!!.

اكتشفنا فى أسفل قاعدة أحد الأعمدة (بمعبد الشمس) لوحة مؤثرة تذكّر بما كان يلاقيه (أسرى الحروب) من ويلات فى الزمان الغابر.. واثناء تسلقنا للمنحدرات الحجرية بعيداً عن مجرى النيل، كنا نمّر عبر صف طويل من الأهرامات المقامة على سهل مرتفع ويبلغ عددها حوالى الخمسين هرما.. وكان بعضها فى حالة تكاد تكون جيدة حتى اليوم.

كنا نقف فوق ربوة عالية محاطة بأعداد هائلة من كتل الصخور الأُرجوانية المبعثرة فى عشوائية.. كأن قبيلة من العمالقة المازحين قد ألقت بها كيفما أتفق!

لم يكن هناك أثر للحياة أسفل الربوة لولا تلك القافلة من الجمال التى كانت تشق طريقها شرقا نحو البحر الأحمر، أو نحو نهاية الكرة الأرضية!!... وغير بعيد من هذا الموقع عند (النقعة) وقفنا على عدد من المعابد المشيدة على الطراز الرومانى والمصرى.. ووجدنا طريقا.. تحيط به من الجانبين كباش منحوتة من الصخر... وقد استعاضت الكباش عن المرعى والعلف بالنوم لعدة قرون وسط الرمال المحرقة!!.

وبعد قضاء ليالى أُخرى بمعسكرنا هناك. تحركنا عائدين عبر صحراء مترامية الأطراف وطرق صعبة مليئة بالأخاديد العميقة التى خلّفتها اطارات الشاحنات. وعندما اجتزنا جسر النيل الأُزرق فى تلك الظهيرة ووصلنا إلى منازلنا كانت الخرطوم كلها هادئة وهى تنعم بإغفاءة ساعة القيلولة.

محلات فانيان فى الخمسينات وطابعها المتفرد

لقد بدت لنا أن الأشجار كانت جزءا من شخصية الخرطوم فبدونها كانت الخرطوم ستكون شيئا مغايرا تماما. جمالها كان سيتحول الى قبح وأماكنها العامة كانت ستصبح كئيبة ومقبضة. أما شوارعها المشتعلة تحت حرارة تتجاوز المائة درجة فهرنهايت فلا أدرى ولا استطيع أن اتصور مدى ما كانت ستؤول اليه من بشاعة وقسوة.

كانت الأشجار فى كل مكان بالخرطوم. فى حدائقها الخاصة والعامة. فى (غابة السنط) المجاورة. وقبل كل هذا وذاك فى شوارعها وطرقاتها. كانت الخرطوم مدينة البهجة.

ظلال أوراق الأشجار الكثيفة وأشعة الشمس الساطعة كانت تطرّز الطرقات بأبسطة موشّاة رائعة تتغير نقوشها وأشكالها بين كل آونة وأُخرى الى لوحات بالغة السحر؛ بفعل تمايل الأغصان ونفاذ أشعة الشمس من خلالها! وكان باستطاعة المرء أن يلمح للحظات فقط المنازل المشيدة بالطوب الأحمر على جانبى الطريق فقد كانت الأشجار الخضراء المتشابكة تحيط بالمنازل وتكاد تحجبها عن الأنظار ولا تتيسر رؤيتها إلا بين فرجات بعض الأغصان الكبيرة عندما تحركها الريح ذات اليمين وذات اليسار.

والشىء المدهش أن أكثر هذه الأشجار كانت تظل محتفظة بأوراقها الخضراء طوال أشهر العام. وحتى تلك التى تفقد أوراقها كانت تعوّض ذلك برشاقتها وتناسق أغصانها. ومعظم هذه الأشجار كانت من النيم واللبخ وأشجار المهوقنى الدائمة الاخضرار والتى تتمركز أساساً فى شارع النيل.

أشجار النيم تتميز بجذوعها المستقيمة البِنّية اللون وأوراقها الصغيرة ذات الخضرة الغامقة. أما أشجار اللبخ فهى من فصيلة (البانيان) واسمها العلمى هو [FICUS BENGHALENSIS] وموطنها الأصلى شرق الهند ويصل ارتفاعها الى اكثر من مائة قدم.

ومن طبيعة هذه الشجرة كما وصفها ملتون (*) فى ملحمته الشعرية الكبرى (الفردوس المفقود) أنها ترسل الى الأسفل حبالا ليفية غليظة تنغرس فى الأرض وبمرور الزمن تصبح هى الاخرى جذوعاً اضافية للشجرة.

وأوراق هذه الشجرة تشبه شكل القلب وهى كثيفة وذات خضرة داكنة. ولون جذعها وأغصانها هو اللون الرمادى الذى يخالطه البياض.

إن عشرة آلاف شجيرة لبخ قد استجلبت من الهند عام ١٩٠٥. وغرست فى شوارع الخرطوم. وتم تعهدها بالرى والعناية حتى أكملت نموها على النحو الذى رأيناه، وأصبحت تجمّل شوارع العاصمة بتنسيقها الرائع وبظلالها الوارفة التى تمتد لعدة كيلومترات.

وبفضل هذه الأشجار كان التجول لمسافات قصيرة داخل مدينة الخرطوم عبر شوارعها التى تظللها الأشجار متعة وأى متعة. أما التحرك لمسافات أبعد فكانت أفضل طريقة لذلك هى التنقل على متون الدراجات.

لم تكن مارقريت وأنا نحس بالتعب أبدا ونحن نقود دراجتينا بسرعة

(*) ملتون هو الشاعر الانجليزى الذائع الصيت جون ملتون ١٦٠٨ - ١٦٧٤ والذى يعد من أعظم الشعراء الانجليز بعد شكسبير وقد كتب هذه الملحمة عام ١٦٦٧ أى قبل وفاته بسبع سنوات.

[المترجم].

محببة بطول جسر النيل الأزرق وعبر بوابة القصر، والتى كانت تحمل لافتة معدنية صغيرة تحذّر السائقين من إطلاق أبواق سياراتهم اثناء اجتيازهم الطريق أمام مبنى القصر.

وكانت نهاية المطاف بالنسبة لنا هى منطقة (المقرن) حيث يلتقى النهران الأزرق والأبيض ويتلاشيان فى بعضهما البعض.. وكنا نرقب فى مهابة واجلال اتحاد نهرين من أعظم أنهار العالم. ولم يكن معنا فى تلك الأوقات أى مخلوق سوى أسراب البجع التى كانت تمرح فى سعادة وهى تصيد الأسماك من حوافى الماء.

وعقب احدى جولاتنا مارقريت وأنا على دراجتينا وجدنا انفسنا داخل محلات (فانيان) فى قلب الخرطوم. وكان المتجر بمعايير المدينة فى ذلك الوقت متجرا كبيرا وعصريا. ولكن الشىء المهم فى الأمر لم يكن حجم المتجر بقدر ما كان (الطابع) الذى تميز به . فقد كانت للمتجر نكهة خاصة لا تتمتع بها إلا قلة من المتاجر فى هذه الأيام!.

كانت محلات فانيان تذكر المرء الى حد ما بصورة مصغرة لمخازن الجيش والبحرية، عندما كانت فى سابق عهدها بشارع فكتوريا بلندن. نفس خزانات العرض المحتوية على الأوانى المذهبة والفضية والزجاجية بحافاتها البرونزية. ونفس أكداس السجاجيد الفاخرة التى تزينها رسومات تمثل أكاليل الغار. وكذلك نفس الاهتمام البالغ برغبات وأهواء كل زبون. وحتى الأشياء التى لا تكون من بين معروضات المتجر ويرغب الزبون فى الحصول عليها كان من الممكن توفيرها له رغم أن ذلك ربما يستغرق بعض الوقت بطبيعة الحال.

فى ركن قصى من المتجر كانت هناك كميات من (الخوذات) أو

البرانيط التى تقى الرأس من حرارة الشمس. وكذلك مجموعة كبيرة من أجهزة ومعدات السفر.

خلال وجودنا داخل المتجر قام السيد فانيان بتقديمنا لشخصية سودانية كبيرة. كان الرجل مهيبا وذا طلعة جليلة تدعو للاحترام. وكان الرجل يسعى للحصول على طائرة خاصة صغيرة!.

بعد أن فرغ السيد فانيان من الترحيب بنا وتقديمنا الى الشخصية السودانية الكبيرة.. التفت مرة اخرى إلى الرجل وقال له: على مسمع منا (إن الطائرات ليست الآن من بين المواد التى تتعامل فيها). كانت نبرات صوته وهو يتحدث مفعمة بالأسف ولكنها لم تكن تنم عن الانهزام!.

وواصل السيد فانيان فى صوت ثابت وقوى وهو لا يزال يوجه حديثه الى الشخصية السودانية الكبيرة: (ولكن ورغم عدم امكان تحقيق رغبتك فى الوقت الحاضر فإن كل حاجة ممكن!) قالها بالعامية السودانية ثم أردف: بكرة.. بعد بكرة من يدرى فمثل هذه الأشياء تحتاج الى وقت كاف.

كان اسم الرجل ذو الطلعة المهيبة هو (على) وكان حسبما علمنا من السيد فانيان نائبا فى أول برلمان سودانى فى ذلك الوقت وهو من بلدة على النيل الأبيض تبعد حوالى مائتى ميل عن مدينة الخرطوم وكان (على) سعيدا أن يلتقى بشخصيات من الجامعة فقد كان هو نفسه من الخريجين. وضاعف من سعادته لقاؤه بالرجل الذى يشغل منصب عميد كلية المعمار التى أنشئت مؤخرا (أى شخص).

خاطبنى (على) ووجهه الودود يشرق بابتسامة عذبة قائلا: فى الحقيقة إننى بسبيل تشييد (فيلا) جديدة فى ام درمان. وإذا لم يكن لديك

اعتراض فانه ليبهجنى أن تقوم بعمل الرسومات الخاصة به . وفى هذه الحالة يستحسن أن نلتقى مرة اخرى. أجبت عليه بأننى أوافق. وكان هو فى هذه اللحظة قد قطع نصف الطريق نحو الباب الخارجى للمتجر!!.

كان الغرض من زيارتنا لمحلات فانيان فى ذلك اليوم هو تقدير قيمة (عقد) نادر يخص مارقريت توطنة للتأمين عليه عند إحدى شركات التأمين.

ونحن في طريقنا إلى دراجتينا اللتين كنا قد اسندناهما على إحدى أشجار الظل بالطريق العام.. أخذت مارقريت وأنا نتحدث عن الرجل الذى تعرفنا به قبل قليل وعن (الفيلا) الجديدة التى ينوى تشييدها.

قال مارقريت إننى اتساءل: الن تشعر ببعض الغرابة عندما تحضر على متن دراجة لتشرف على تشييد (الفيلا) الجديدة بام درمان؟! فى الحقيقة علّى أن اعترف باننى لم افكر مطلقا فى أمر تحركى بتلك الوسيلة، ولكن الشيء الذى كان يهمنى هو كيفية ترحيل اثنين من كراسى الجلوس اللذين كنا قد حصلنا عليهما في صفقة طبية بأحد المزادات العامة.. ولم يكن بالامكان نقلهما إلا على سيارة . فالدراجة لا تصلح لمثل هذه المهمة.

ونتيجة لبعض المصادفات التى تتدخل أحيانا فى حياتنا.. وربما فى حياة كل إنسان... عُرضت علينا بعد يوم أو يومين من تساؤل مارقريت سيارة كان مالكها يرغب فى بيعها. اشترينا السيارة على الفور بعد أن قام بفحصها وتزكيتها لنا أحد الميكانيكيين. ولكننا عقب تسلمها بفترة وجيزة أصبنا بخيبة أمل كبيرة.

كان معظم طلائها قد زال بفعل الأهوية وذرات الرمال. وكانت مقابض الأبواب لا تعمل بصورة فعالة. وأسوأ ما فى الأمر أن البابين الخلفين للسيارة كانا ينفتحان فجأة ولأقصى مدى عند المنعطفات والمنحنيات ولقد قمنا بعلاج ذلك بشـّد البابين لبعضهما البعض بسلك متين يمر عبر الباب

الخلفي للسيارة ومثبت في المقبضين من الداخل!! ورغم أن هذا الحل قد سبب بعض المضايقات.. زيادة على تقليص الحيز داخل السيارة فإنه كان الحل الوحيد المتاح.

فالسيارات الجديدة لم تكن بالامكان الحصول عليها. ورخص الاستيراد كانت لاتمنح إلا في أضيق نطاق. ولذا فقد كانت تلك السيارة برغم كل عيوبها وسيلة ترحيل لا تقدر بثمن في التحرك لحضور المناسبات، والحفلات في أنحاء مختلفة من مدينة الخرطوم. ولكن شهر العسل مع السيارة لم يدم طويلا فقد انتهى بعد ثلاثين يوما فقط من بدايته!.

كانت مارقريت تقود السيارة عندما تعطلت فجأة فرملة اليد وفرملة القدم معا!!. حدث ذلك ومارقريت تقترب من (صينية حركة) بشارع الجمهورية وكانت مجموعة من المصلين الذين اعتادوا على الصلاة فوق الحشائش الخضراء داخل (الصينية) يصطفون ويتأهبون لصلاة المغرب. كانت مارقريت تقود السيارة بسرعة معقولة ومع ذلك فقد فشلت في ايقافها. وكان عليها أن تفعل شيئاً ما على أية حال.

أبطلت محرك السيارة وجلست في ثبات وهي تمسك بعجلة القيادة ثم أخذت تطوف (بالصينية) لعدة دورات لا تعرف كم كان عددها إلى أن أبطات السيارة ثم توقفت تماما في النهاية!

تقول مارقريت: إن السيارة في تلك اللحظات كانت أشبه ما تكون (بفرس هارب) أو أسوأ من ذلك. لأنه لم يكن بوسعي أن أفعل شيئا لكبح جماحها أكثر من الطواف حول (الصينية)!! وتضيف مارقريت بأن الرجال الذى اصطفوا تأهبا للصلاة كانوا ذوى مروءة وعملوا أقصى ما يمكن لمساعدتي.

وبعد هذا الذى حدث كان علينا ان نتصل بشأن هذه السيارة بشخص

يدعى (عزت قصار) وهو من أولئك الذين قدموا من شمال شرقى البحر الأبيض المتوسط ثم استقروا فى السودان. وكان عزت وابناء جلدته يقومون بالعديد من الأعمال. فإلى جانب اصلاح السيارات والأدوات الكهربائية وبعض الأعمال الاخرى كانوا يقومون أيضا بعمل الأيسكريم!!

وكان عزت كمعظم عشيرته جادا مثابرا فى العمل ولم يكن يستنكف من أن يتسخ جسمه أو ملابسه اثناء العمل إذا لزم الأمر. كان يستلقى تحت السيارة ليتفحصها بنفسه دون أن يكلف أحدا ليقوم بذلك بدلا عنه.

استطيع أن أتخيل (عزت) الآن بقامته المديدة وجسده الضخم بصورة لافتة .. مرتديا بصفة دائمة قميصا أبيض مشربا بالعرق و(شورت) كاكى فضفاض وصندلا.

كان عزت يتمتع بقدر وافر من المرح. وكان ينشر حوله دائما روح التفاؤل حتى وهو يستلقى تحت سيارة على أرض قذرة وشديدة الحرارة بالمنطقة الصناعية بالخرطوم.

ورغم أن عمل عزت الأساسى كان اصلاح السيارات فإنه كان يقوم بأعمال اخرى من بينها (السمسرة) وكان قادرا على اتمام صفقة واحدة بأكثر من اسلوب.

فى البداية لم نكن متأكدين تماما عن ماهية نوع هذه الخدمة أو الخدمات التى يمكن أن يؤديها عزت نيابة عنا. وقال عزت: سأتولى اصلاح سيارتكم ثم أقوم ببيعها. ولكن قبل أن يتم ذلك يستحسن أن تجددوا لها الطلاء حتى يصبح منظرها مقبولا وبالفعل عملنا بنصيحته. وتحت أقرب شجرة (لبخ) من تلك الأشجار التى تحيط بشارع الجمهورية قرب منزلنا قمنا بطلاء السيارة.

بعد أيام قليلة كنا نحتسى القهوة مع عزت (بجراجه) بالمنطقة الصناعية بالخرطوم وكان ذلك عقب اتصاله بنا وابلاغنا بان السيارة قد أصبحت الآن معدة للبيع. واثناء وجودنا معه اتصل هاتفيا مع احد الأشخاص وقال لنا: وهو يغطى بكفه سماعة التليفون: سأتحدث الآن مع أحد الأثرياء الكبار وهو يريد سيارة مثل سيارتكم تماما!.

كان ابتهاجه بالصفقة الموفقة التى يوشك أن ينجزها واضحا وجلياً مما جعلنا لا نستفسره عن سبب رغبة رجل بمثل ذلك الثراء. شراء سيارة مثل سيارتنا؟! وشيء آخر ربما أن عزت وبخبرة الميكانيكى المتمرس قد اكتشف فى السيارة ميزات هندسية غابت عنا معرفتها. وربما كانت تلك الميزات هى ما كان عزت يعددها فى الهاتف بلغة لم تكن مفهومة لنا!.

بعد الفراغ من المحادثة أبلغنا عزت بأن الثرى قد وافق على الشراء وبسعر مجز. وانه ما علينا إلا أن ننتظره بمنزلنا حوالى الثانية والنصف. وبقينا بالمنزل ونحن نترقب فى لهفة وشوق وصول الرجل.

ولكن الساعات مضت دون أن يحضر. ولما اتصلنا بعزت انزعج فى بادىء الأمر ولكنه كعادته سرعان ما عاد اليه مرحه وقال : سنحاول مع آخرين. ونجح عزت أخيرا فى بيع السيارة وبسعر لا بأس به على الاطلاق.

وهكذا... فكما أن الرجل الثرى لم يتصل بنا فإن النائب البرلمانى الذى قابلناه فى محلات فانيان ووعد بلقائنا مرة أخرى للتباحث فى أمر رسم الخرائط «للفيلا» الجديدة لم نره منذ ذلك الوقت ولا أظن أنه شيد تلك (الفيلا). وحتى إذا كان قد شيدها فإننى أشك فى استفادته منها لأن انقلابا عسكرياً (أبيض) كان قد وقع بعد اثنى عشر شهرا من ذلك التاريخ. وبالتحديد فى نوفمبر من عام ١٩٥٨!.

يوم شاشات السينما

رن جرس الهاتف وكان المتحدث على الطرف الاخر السيد المرضي الذي بادرني بقوله: لقد وصلت الي مكتبي الآن المعدات السينمائية التى طلبتها.. خمس عشرة (شاشة).. وآلة عرض سينمائى واحدة!!! ويؤسفني أن أقول لك: يا بروفسير أليك ان ذلك قد استنفد أكثر من المبلغ المخصص لك فى الميزانية!!

وفي الحال وبعد انتهاء المحادثة الهاتفية مباشرة اتخذت طريقى نحو مكتب السيد المرضي مسجل الجامعة. كان المرضي رجلاً وسيماً متين البنيان ضخم الجسم.. وكان يجلس خلف مكتبه الكبير الذي يلائم حجمه وقد تكدّست أمامه أكوام من الورق.

مشهد المرضي في جلسته تلك بتقاطيع وجهه السودانية الأصيلة كان جليلا ويدعو للاحترام. وكان رأسه الأنيق الذى قص شعره حديثًا وقد خالط سواده بياض فى الأطراف.. مرفوعًا دائمًا الى أعلى حتى فى الأوقات التى كان العمل يتطلب فيها الانحناء والانكباب فى الأوراق!

كان المرضى يرتدى قميصاً ذا أكمام قصيرة مفتوحاً عند العنق. وكان بوسع الجالس على كرسى منخفض أن يرى أسفل مكتبه(بنطلونه) القصير (الشورت) الناصع البياض والذى لا تشوب بياضه أدنى شائبة. وكذلك ركبتيه السوداوين القويتين وجواربه البيضاء الطويلة وحذاءه الجلدى ذى اللون البنى الشديد اللمعان!!

ورغم أننا .. مارقريت وأنا.. قد تعرفنا بالمرضى قبل فترة قصيرة أولاً كزميل وثانيا كصديق إلا اننا كنا على إدراك تام بمقدرته العجيبة على إخفاء انفعالاته أو أظهارها حسبما يقتضيه الموقف أو حسبما يريد هو!. وأعتقد أننا قد حفظنا عن ظهر قلب تفسير كل تعبير من تعبيرات وجهه.

وعلى سبيل المثال توسيعه المفاجيء لحدقتى عينيه.. وتجعيده لجبهته وتنويعه لنبرات صوته. وفى ذلك اليوم.. (يوم شاشات السينما).. بدا المرضى صارماً ومهيباً مثل قاض يوشك أن يصدر حكماً فى جريمة خطيرة!

كانت عيناه مفتوحتين إلى آخر مدى حتى أوشكت الحدقتان أن تختفيا عند نهاية البياض ! وكان حاجباه مقطبين وشفتاه مذمومتين وكانت كلها نذراً بأن العاصفة على وشك أن تهب! وقلت فى نفسى: ألم يكن المرضى مبالغاً إلى حد بعيد فى رد فعله تجاه(مأزقى) الذى لا اعتقد انه كان بالخطورة البادية على وجهه؟ إن المرضى لم يصل أبدا إلى هذه الدرجة من الغضب من قبل فى سعيه الدائم نحو الكفاية والكمال فى الأداء.

وفجأة وبعد أن تبين له بوضوح إننى بلغت أقصى حد من التوتر والارتباك مال برأسه إلى الخلف وأخذ يضحك ضحكات مجلجلة وجسده كله يهتز تبعاً لذلك!! بعدها توقف قليلا عن الضحك وخاطبنى قائلاً: (لا تنزعج يا أليك.. أعتقد أن الخطأ تسبب فيه موظفنا المسئول عن المشتريات فى لندن..وذلك بوضعه علامة الوقف بعد الرقم (واحد) بطريقة جعلتها تشبه (الخمسة) باللغة العربية وعند نقل الرقمين إلى الانجليزية صارا يقرآن

خمسة عشرة بدلا من واحد!! ويمكنكم في كليتكم الاستفادة من الشاشات الأربع عشرة الزائدة على الحاجة ببيعها بيعا مجزيًا وتوريد قيمتها لخزينة الكلية!.

ولكى يزيل أى أثر ربما يكون غضبه قد تركه في نفسى روى لى المرضى حكاية مشابهة ذكر إنها حدثت قبل فترة ليست بالبعيدة. قال: إن وزارة النقل كانت قد طلبت من انجلترا عربة واحدة من عربات اطفاءالحرائق لمدينة الخرطوم. ونتيجة لسوء فهم أو خطأ مثل الذى أعتقد انه قد حدث لشاشات العرض السينمائى وصلت عشر عربات بدلا عن عربة واحدة.

ويضيف المرضى قائلا: ولحسن الحظ فنحن في السودان شعب يعرف كيف يحل مشاكله بطريقته المتفردة.. وهى محاولة التكيف مع المشكلة وتحويلها الى شىء نافع! وقد برهن الوزير المختص على أنه ليس استثناء من هذه القاعدة. فقد أمر بأن توزع هذه العربات لكل مدن السودان ومن بينها واو. وقد تم توزيعها كما أمر.

وعند هذه النقطة عاد المرضى إلى ضحكاته المجلجلة مرة أخرى وقال: وهو لايزال يهتز من الضحك:(تخيّلت إحدى هذه العربات بلونها الأحمر القانى وجرسها النحاسى الضخم وسط غابة كثيفة من أشجار (التيك) ولا أثر يرى لطريق يمكن أن تسير عليه!.

إن الحكم على الرجال العظماء الذين يحتلون المواقع الهامة يتحدد بالطريقة التى يعالجون بها القضايا الصغيرة.. وعن طريق هذا الاختبار أمكننا أن نضع المرضى في المكان الرفيع اللائق به في نفوسنا ونفوس الآخرين.

ولقد تبين لنا أن هذا الرجل الذى يشغل منصب المسجل وتقع تحت إمرته مسئولية إدارة الجامعة بكاملها لم يكن موظفاً (بيروقراطيا) قاسى القلب كما هو الحال عند بعض الاداريين الرديئين. بل على النقيض تماما كان المرضى إنسانا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان.

كانت خبرته الإدارية المبنية على أساس :اكاديمى صلب قد تلّطفت ورقّت بفضل انسانيته النادرة وروح الدعاية التى طبع عليها. وكان المرضى حائزا علـــى شهـادات جامعية راقية فــى العلوم والفنون مــن جامعــة (ST.ANDREWS)

وفى كل عام كان المرضى يسافر إلى المملكة المتحدة بصفته مسجل الجامعة ليقوم بتكوين لجان المعاينة التى تنظر فى طلبات المتقدمين للعمل كمحاضرين بجامعة الخرطوم. وتزامن فى أحد الأعوام موعد زيارته لانجلترا مع موعد أجازتنا الصيفية فعبّرنا له عن رغبتنا الصادقة.. مارقريت وأنا.. فى استضافته هناك، وكنا سعداء حقا عندما وافق على تحقيق هذه الرغبة.

وفى الـــيوم المحدد لوصوله كنت أقود سيارتى العتيقة طراز (BRAD FOR) إلى محطة السكة الحديد ببلدة (أبرسويث) بويلز لاستقباله.

ربما كان المرضى يتوقع وحق له أن يتوقع سيارة حديثة جميلة المنظر ومريحة. مثل تلك السيارات الأمريكية والألمانية العملاقة التى شاهدنا الكثير منها فى شوارع الخرطوم. وأعتقد أنه علىّ أن اعترف بأن سيارتى العتيقة قد صممت أصلا لكى تسير فقط.. دون أية مراعاة لعنصر الراحة أو الجمال!

فى طريق العودة لمنزلنا الصغير بالقرب من تلك المدينة كنا نتجاذب أطراف الحديث داخل السيارة.. وفجأة.. ولا أدرى كيف بدر ذلك منى؟ وجهت للمرضى سؤالا وددت لو أنى لم أوجهه اليه. سألته لماذا استقل الدرجة الأولى فى القطار مع ان تكلفتها باهظة؟!

بعد فترة صمت قصيرة أجابنى المرضى وهو يحدق بعيداً ويركز بصره على نقطة غير مرئية عند التقاء البحر مع الأُفق اللانهائى. قال: (اه ألاحظت ذلك؟) إذا وجد المكان المناسب المريح فإن الدرجة الثالثة هى خيارى ففيها يحظى. بلقاء الناس وذلك يطربنى كثيرا. لعلك تذكر منزلى بالخرطوم والذى يعج دائما بالضيوف وأطفالهم الذين يلعبون فى حديقة المنزل. ولكننى رجل أسود.. وفى بلدكم عندما يسافر رجل أسود مثلى على الدرجة الثالثة فإن زملاء الرحلة ينظرون اليه على أنه أدنى منزلة منهم! ويستطيع المرء أن يدرك ذلك دون كبير عناء!!

أما إذا استقل الرجل الأسود الدرجة الأولى فإنه يعامل معاملة مختلفة تماما! ويبدو أن أحداً لا يفطن الى لون بشرته! وحتى موظفى السكة الحديد لا يحاولون اجتنابه وتحاشيه. ويتنافس (الحمالون.. تصور.. على حمل امتعته!!)

لم يكن فى صوت المرضى أى أثر للحقد أو الكراهية وهو يجيب عن سؤالى. وأنا موقن بأنه قد أدرك أن مشاعر الصدمة والخجل التى انتابنى قد لجمتنى وجعلتنى أبحث عبثاً عن الكلمات فلا أجدها. فحتى تلك اللحظة كنت أعتقد أن مسألة التمييز اللونى والعرقى هى من مشاكل شعوب أخرى ليس من بينها الشعب البريطانى!!.

قصة تمثالي غردون وكنشنر

إن لتمثالى غردون وكنشز اللذين كانا يحتلان موقعين مهمين بمدينة الخرطوم قبل الاستقلال قصة اكتنفها كثير من الغموض والغرابة. فقد كان التمثالان صورتين(طبق الأصل) منقولتين من التمثالين الأصليين لغردون وكنشنر ولم يكونا هما الأصل كما هو السائد بين الناس!!

قام بصنع تمثال غردون المثال(E. DNSLOW FORD) . وتم عرض التمثال لأول مرة عام ١٨٨٩ ... أى بعد أربعة أعوام من مصرع غردون.. بالمعرض الصيفى للأكاديمية الملكية بانجلترا.

ولأن غــردون كان يعتبر فى نظر البريطانيين بطلا فنيا فإن نقدا فنيا كثيراً وجــه للناحية الجمــالية فى التمثال بدافع من هذه المشاعر العاطفية الطاغية.

كان بين الأسئلة النقدية التى وجهت للمثَّال سؤال يقول: لماذا جعلت غردون على ظهر حيوان متخلف وغير متحضر مثل الجمل؟!! ورد المثَّال على ذلك بقوله(إن السبب فى غاية البساطة. فالجمل كان وسيلة المواصلات المفضلة عند غردون!)

إن أى مشاهد للتمثال أوتى قدراً ولو يسيراً من التذوق الفنى كان لابد أن يلفت نظره ذلك التشامخ الواضح فى وقفة الجمل.كان رأس الجمل مرتفعا إلى أعلى وهذا لا يحدث إلا إذا شدَّ الراكب (الرسن) شداً محكماً يجعل العنق يرتد إلى الخلف فيرتفع الرأس إلى أعلى. وذلك بالضبط هو

مافعله المثّال. جعل اليد اليسرى لغردون تشد (الرسن) شداً محكماً حتى تكون الوقفة المتشامخة للجمل منطقية ومبررة!!

إن التمثال الأصلى لغردون لا يزال قائما حتى اليوم فى المكان الذى أُعد له أصلاً بين المروج والأشجار بفناء مدرسة الهندسة العسكرية (بشاثهام) وكان التمثال المأخوذ منه والذى أُحضر للخرطوم قد نصب أولا عند (زقاق) القديس مارتن بلندن بجوار الصالة الوطنية لعرض اللوحات التشكيلية وتقرر بعد ذلك أن يُرحّل للسودان.

بداية المرحلة الأولى من رحلة التمثال إلى افريقيا انتهت باستقرار التمثال فى قاع التايمز!! فقد اصطدمت الباخرة(S.S CEDARDINE).

التى كانت تحمله بباخرة أُخرى مما جعل حمولتها تسقط منها وتبتلعها المياه! وتصادف أن كانت الباخرة (S.S LESBIAN) قريبة من مكان الحادث وكانت وجهتها الاسكندرية فانتُشِل التمثال من الأعماق ووضع علي متنها.

ومن ميناء الاسكندرية الذى كان يعج بحشود هائلة من العمال، تم نقل التمثال إلى عربة نقل بضائع بأحد القطارات وسط صيحات العمال المدوية وصخبهم. واتجه القطار بحمولته جنوبا ليقطع ستمائة ميل حتى الشلال.

وفى الشلال كانت المحاولة الأولى لنقل التمثال من عربة البضاعة إلى إحدى البواخر محاولة غير موفقة. فقد سقطت هذه الكتلة من (البرونز) المصبوب والتى تزن خمسة عشر طنا إلى الأعماق! وكانت هذه المرة فى

أعماق النيل!! وانتشل التمثال من النهر ووضع على متن الباخرة النيلية التى اتجهت به جنوبا نحو السودان وهى تشق طريقها ضد التيار.

كانت القرى التى تمر بها الباخرة تقوم على كثبان من الرمال الصفراء المتلألئة قبالة جبال ذات لون أرجوانى فاتن، وكان لابد للباخرة أن تمر بمعبد (AMADA) الصغير والمهيب فى ذات الوقت على الضفة الغربية للنيل.. وبأعداد لاحصر لها من(السواقى) التى تديرها الجواميس لتطفىء ظمأ الأرض العطشي لمياه النيل.

وكان لابد لها أيضا أن تمر بمعبد (أبوسنبل) أُعجوبة الزمان وبالتماثيل العملاقة الأربعة المنحوتة فى الصخر، والتى تقبع هناك منذ ثلاثة آلاف عام وهى تنعم كل صباح جديد بالضياء والدفء!

وصل تمثال غردون الى الحدود الشمالية للسودان بعد أن قطع أكثر من ثمانمائة ميل من ميناء الاسكندرية. وبقيت من الرحلة حوالى ستمائة ميل لا أكثر بالقطار لكى يصل التمثال الى الخرطوم بحرى.

وبما أن جسر النيل الأزرق لم يكن قد شيد بعد فى ذلك الزمان، فإن رحلة القطار كانت تبدأ من الخرطوم بحرى وتنتهى فيها وتم نقل التمثال من هناك عبر النيل الأزرق الى الخرطوم.

شيدت للتمثال قاعدة حجرية عالية قبالة القصر الذى لقى فيه غردون مصرعه وبمجرد أن تم تثبيت التمثال عليها لم تستطع التربة الرخوة فى ذلك الموقع من الصمود تحت ثقل تلك الأطنان فانهارت القاعدة وغاصت فى الأرض مما اضطرهم إلى عمل ترتيبات معينة حتى تمكنوا أخيراً من التغلب على المشكلة .. وتم نصب التمثال مرة أخرى!!

هذا ماكان من أمر تمثال غردون. أما تمثال كنشنر فيعود تاريخه إلى فترة لاحقة. ففى عام ١٩١١ كان الفيلد مارشال كنشنر- كما صار يعرف فيما بعد- فى زيارته للسودان لصيد الحيوانات الكبيرة مثل الأفيال والأسود وعلى وجه التحديد ذلك الحيوان النادر(وحيد القرن الأبيض). وكتكريم لسلفه كنشنر بمناسبة زيارته للسودان اقترح عليه خلفه ريجنالد ونجت حاكم عام السودان آنذاك اقامة تمثال له بالخرطوم.

وافق كنشنر على الاقتراح ووجه للاستفادة من (القالب) الذى صنع منه المثَّال (SYDNEY MARCH) تمثاله المقام بكلكتا بالهند. ورغم أن الاستفادة من (القالب) الجاهز لتمثال كنشنر كانت ستقلل النفقات كثيرا إلا أن ونجت كما تحكى إحدى الروايات ذكر أن الخزينة لا تستطيع تحمل نفقات ملء(القالب) بالنحاس المصهور أسوة بتمثال غردون.

وتمضى الرواية فتقول: إن ونجت توصل الى حل بارع لهذه المشكلة المالية. فقد تذكّر ونجت إن عدة أطنان من النحاس فى هيئة (ظروف) نحاسية فارغة كانت قد أُرسلت إلى انجلترا قبل سنوات. وكانت (الظروف) قد جمعت من الذخيرة التى استعملت فى معركة أم درمان!! وحسب توجيهات (ونجت) عملوا على صهر النحاس الموجود فى تلك (الظروف) وقاموا بصبه داخل (قالب) تمثال كنشنر

ذكرت هذه الرواية الغريبة للسيد ثابت حسن ثابت أول مدير سودانى للآثار والمتاحف والذى كان لبعض الوقت مشرفاً أيضا على التماثيل. ضحك السيد ثابت إحدى ضحكاته العميقة التى تميز بها وأجاب بصوت

يذكّر السامع بصوت الفنان بول روبنسون: إذن هذا هو ما قالوه! أنا لم اسمع بذلك أبدا! عندها اشتركنا جميعنا فى الضحك مع هذا المؤرخ الإنسانى.

بعد أن تم تجهيز تمثال كنشنر وأُعدت الترتيبات لنقله للسودان نشبت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ فتعطل ترحيل التمثال حتى عام ١٩٢٠ . وكنشنر قد لقى مصرعه قبل أربع سنوات من هذا التاريخ عندما أصيبت الباخرة التى كان على متنها .. أيام الحرب فى بحر الشمال.

كانت وسائل المواصلات فى ذلك العام- ١٩٢٠- أفضل كثيرا إذا ما قورنت بالعام الذى تم فيه ترحيل تمثال غردون من الاسكندرية عبر مصر ثم من وادي حلفا بالقطار حتى الخرطوم بحرى حيث كان ينتهى خط السكةالحديد.

تم شحن تمثال كنشنر من انجلترا الى قناة السويس فبورتسودان ومن هناك بالقطار إلى قلب الخرطوم عبر جسر النيل الأزرق ذى (العوارض) الحديدية الهائلة (GIRDER BRIDGE).. والذى كان قد شيد مؤخراً.

بعد وصول التمثال لمخزن البضاعة بمحطة السكة الحديد بالخرطوم تسلم مكتب السكرتير الادارى إخطارا روتينا حرره أحد موظفى المخزن يذكر فيه ان هناك طرداً باسمهم تحت التسليم. وكلّف مسؤول بالمكتب أحد السعاة بالذهاب لمخزن البضاعة واحضار (الطرد) على دراجته الحكومية كالطريقة المتبعة فى مثل هذه الأحوال.

وفوجىء الساعى المسكين بأن الطرد الذى جاء لحمله على دراجته لم يكن الا صندوقاً خشبيًا فى غاية الضخامة بداخله تمثال كنشنر على صهوة جواده بحجم أكبر من الحجم الطبيعى بمرة ونصف المرة!!

عند قدومنا للسودان لأول مرة فى عام ١٩٥٧ كان التمثالان لايزالان فى موقعيهما رغم أن قراراً كان قد صدر بازالتهما منذ وقت ليس بالقصير ابان فترة الحكومة البرلمانية برئاسة السيد اسماعيل الازهرى. وقد تم تنفيذ هذا القرار على يد الحكومة التى جاءت للحكم بعد انقلاب عسكرى أبيض وقع فى نوفمبر عام ١٩٥٨ . وفى صفحة من دفتر يومياتها كتبت مارقريت بوتر هذه الأسطر عن ذلك الانقلاب

عاد إليك إلى المنزل من الجامعة كعادته فى كل يوم لتناول وجبة الإفطار. وروى لى أنه علم بأن الجيش السودانى قد استولى على الحكم فى منتصف الليلة الماضية. ولم استطع أن اصدق النبأ. أطللت عبر باب الحديقة على شارع الجمهورية، ومسحت ببصرى كل الشارع. كان كل شىء يسير بصورة طبيعية وفيما، بعد خرجنا على دراجتنا الى المعهد الفنى بالخرطوم.

الشىء الوحيد غير المألوف والذى لفت أنظارنا كان وجود دبابة واقفة على العشب الأخضر خارج مكتب البريد الرئيسى. وكان أحد الجنود مستلقياً على ظهره فوق الدبابة وبدا كالنائم وركبتاه تتجهان الى أعلى. وكانت قبعته ذات الحافة البارزة تغطى كل وجهه!!

أثناء (شاى العصر) ورد نبأ بإحدى نشرات الأخبار من هيئة الإذاعة البريطانية مفاده أن انقلابا قد وقع بالسوادن وعندما ذهبنا لمكتب البريد فى الخامسة والنصف مساء(موعد فتح المكتب) اكتشفنا اختفاء الدبابة والجندى الذى كان على متنها!! وكان هناك الحشد المعتاد من الناس الذين يرغبون فى الحصول على الطوابع! .

انتهى ماجاء بمذكرات مارقريت، وفي الذكرى السنوية الأولى للانقلاب وصفت صحيفة (التايمز) اللندنية حكامنا الجدد بانهم حفنة من (الجنتلمانات!!).

لقد اثبت السودنيون وبجدارة بإنه إذا كانت هناك طقوس ومراسم معينة عند ازاحة الستار فى بعض المناسبات فلابد أن تكون هناك أيضا طقوس ومراسم عند اسداله! وهذا ماحدث بالضبط عند ازالة تمثالي غردون وكتشنر.

فقد بدأت عملية اسدال الستار على تمثال غردون بعد وصول حرس شرف من القوات السودانية مؤلف من مائة جندي. واصطف الجنود المائة ووقفوا فى طابور فى مواجهة التمثال.

كان الجنود يرتدون أزياءهم العسكرية المصنوعة من (الكاكي) بينما وقفت على مقربة منهم فرقة موسيقية عسكرية يرتدى أفرادها سترات بيضاء وتنورات داكنة الزرقة ذات ثنيات طولية وهم يعزفون بعض الألحان الأسكتلندية.

وفى تمام الرابعة والنصف وصل السفير البريطانى السير ادوين شابمان اندروز وتلقى التحية بالسلاح من حرس الشرف. وغمر المكان سكون مطبق.. بعدها أخذت فرقة عسكرية من الجيش تعزف المقاطع الافتتاحية من نشيد (حفظ الله الملكة).

بدأ اللحن هادئا فى أول الأمر ولكنه وصل قمة روعته وقوته عندما كان قارعو الطبول بأزيائهم الموشحة بجلود النمور يضربون فى حماس على

طبولهم، ونافخو الأبواق ينفخون في صخب فى آلاتهم النحاسية المزخرفة ذات الألوان الجميلة.

تقدم نافخو الأبواق وهم يعزفون لحن الوداع، وصدى اللحن يتردد بين أروقة قصر الحاكم العام القريب حيث قتل غردون فى داخله. قوات سلاح المهندسين أخذت تسدل ببطء ورفق الستار الذى يشبه الخيمة والذى كان منصوباً فوق أعلى التمثال وذلك بارخاء الحبال التى كانت تشده حتى غطته تماما.

لقد دارت عجلة التاريخ دورة كاملة وبعد أربعة وخمسين عاماً منذ أن أزاح (ونجت) الستار عن تمثال غردون.. حدث الآن العكس تماما وأسدل الستارهذه المرة وإلى الأبد على التمثال ! وعزف نافخو الأبواق لحن (الانسحاب) وعندما خفتت أصوات أنغامهم وتلاشت فى الفضاء شق أفراد الفرقة الموسيقية العسكرية طريقهم وهم يؤدون نشيدهم الوطنى (NUBA-RIGOAA) «نوبة رجوع» المفعم بالحيوية.

انتهت مراسم اسدال الستار على تمثال غردون وكان لابد من اعادتها مرة أخرى وكان الدور هذه المرة على تمثال كتشنر. كان الموكب بقيادة مدير الخرطوم والمندوب البريطانى، وكانوا جميعهم يرتدون زى التشريفات الأبيض.. وتحرك الموكب نحو النيل الأزرق حيث يقف تمثال كتشنر قبالة وزارة المالية.

وقامت الفرق الموسيقية بأداء نفس الألحان العسكرية التى كان صداها يتردد فى جنبات العقود الحجرية الضخمة لوزارة المالية. وغربى أم درمان

كانت الشمس الغاربة تغمر بأشعتها القانية الرجال لابسي الأردية البيضاء وكذلك زفراد القوات وأشجار النيم واللبخ التي غرست بتوجيهات من كنشنر قبل عشرات السنين.

وبدت أشعة الشمس بحمرتها الشديدة قبيل المغيب وكأنها تشعل النار في الستار الذ كان يسدل تدريجياً فوق تمثال كنشنر حتى اختفى اختفاء كاملاً. وبعد ساعات من ذلك وفي جنح الليل أزيل التمثالان من قاعدتيهما.

لقد كان الاحتفال بحق رائعاً ومثيراً للمشاعر. ووصفت صحيفة (السودان الجديد) اليومية الاحتفال آنذاك بأنه (كان اظهاراً لنبل القصد وبرهاناً على النضج والسلوك المتحضر).(*)

ولابد للمرء من التسليم بصحة كل ماذهبت اليه تلك الصحيفة. فمن خلال الأحاديث التي جرت عقب الاحتفال بيننا وبين بعض قدامى الأصدقاء السودانيين والبريطانيين الذين كانوا من شهوده اتضح لنا جميعا بأن الاحتفال قد أعاد الى الأذهان العديد من الانجازات المشتركة التي تمت بالتعاون بين السودانيين والبريطانيين في المجالات التعليمية والمهنية وزراعة الأقطان وفي كثير من الميادين الأخرى. وقد قاد ذلك إلى نشوء صداقات حميمة واحترام متبادل بين الطرفين.

(*) لم يذكر المؤلف رقم العدد ولا تاريخ صدوره.

(المترجم)

لفترة من الزمن أُخفي التمثالان في فناء داخلي خلف مبنى متحف الآثار القديم. ولكن يبدو رغم أنهما كانا بعيدين عن الأنظار فانهما لم يكونا بعيدين تماما عن الذاكرة. فقد أطلعنا جار صديق ذو صلات هامة على حقيقة كانت خافية حتى على مسؤولي الآثار الذين كان التمثالان في عهدتهم!

وفحوى تلك الحقيقة أن (حفنة الجنتلمانات) كانت وراء وضع باقات من الزهور النضرة بين وقت وآخر أمام تمثالي غردون وكنشنر حيث كانا يقبعان بعد انزالهما. ولما سألنا الجار الصديق عن الدافع لذلك أجاب بابتسامة وهو يقول:

نحن نعلم أن عادة وضع الزهور هي تقليد من تقاليدكم المعروفة منذ أمد بعيد.. وأعتقد أن الواجب يقتضي منا أن نحترم ذلك التقليد. ثم إن السودانيين بطبعهم يحترمون البسالة والشجاعة (!!)[١].

بعد مضي شهرين على إزالة التمثالين قررت الحكومة البريطانية اهداء تمثال غردون الى (مدرسة غردون للبنين) ببلدة (WOKING) وتمثال كتشنر إلى (مدرسة الهندسة العسكرية)(CHA THAM) وقد قبلت المدرستان الهديتين.

---

(١) صحيح أن السودانيين يحترمون البسالة والشجاعة ولكن عندما يتعلق الأمر بالغزاة والمحتلين فيستحيل على سوداني أصيل ان يحترم تلك الصفات عند اولئك!
(المترجم)

وبعد وصول تمثال كنشنر إلى انجلترا واقامته فى مقره الجديد بوقت قصير،، اعتدى أحدهم ليلاً على التمثال وحطم غمدسيفه! وكان ذلك على وجه التحديد فى السابع من مارس عام ١٩٦٠ . وقد تم اعتقال أحد الجنود بتهمة القيام بهذا العمل وتم ايقافه ايقافا شديداً بغرفة الحرس بالمدرسة العسكرية.

قضاء يوم بالقطار الدائرى

كانت شقشقة العصافير بالخارج، وأنا أجلس إلى مكتبى بكلية المعمار جامعة الخرطوم وكذلك تكتكة الساعة الكبيرة طراز(CROMWEL) الموضوعة على المنضدة تذكرنى بانجلترا .. وقد بدأ انتاج هذا النوع من الساعات فى أواخر القرن السابع عشر الميلادى.

وكان بوسعى أن أقرأ بوضوح على ضوء شمس الصباح إسم الصانع المنقوش على ميناء الساعة...(RICHARD WASHINGTON KE-NIEL).

بين لحظة وأخرى كنت أتوقع وصول عبدالباسط لمكتبى عقب عودته من المملكة المتحدة. فقد بعثنا به إلى هناك مع مجموعة من طلاب المعمار لقضاء فترة ستة أشهر فى التدريب العملى بمكاتب المعمار ومواقع البناء.

وكنت أسائل نفسى دائما.. هل ترانا قمنا بعمل الشيء الصحيح بإرسالهم إلى انجلترا؟ لقد كان عليهم أن يتعلموا نظم العمل المكتبى التى تمكنهم أن يلموا بكيفية انشاء وتأسيس مشروعات البناء عمليا. وهذه خبرات هامة وضرورية لكل من يود ممارسة مهنة المعمار، ولهذا كنت فى غاية الشوق للتحدث إلى عبدالباسط، والاستماع إلى ماأفاده أو لم يفده من هذه البعثة.

فى هذه الأثناء كنت اسائل نفسى أيضا.. ترى هل فعلنا كل مايجب علينا فعله من أجل هؤلاء(الأولاد) قبل أن يستقلوا الطائرة إلى انجلترا؟.

حقيقة لقد بدوا واثقين من أنفسهم بصورة مدهشة.لم يكونوا مغرورين أومزهوين.. ولكن بالتأكيد لم يكونوا خائفين . وربما كان ذلك- ولو أنهم لم يباهوا به- عائداً إلى قناعتهم التامة بأنهم من بلد لم ينل فرص التعليم الجامعى فيه الا فئة قليلة ومعظم الأطفال اما أنهم لم ينالوا أى قدر من التعليم على الإطلاق، أو نالوا تعليما أساسيا متواضعا.. وهذا هو ماجعل عبدالباسط ورفاقه يُعدُّون من الصفوة.

وأستطيع القول بأننا فعلنا كل مابوسعنا أن نفعله من أجل هؤلاء (الأولاد) .اخترنا لهم شركات من الدرجة الأولى للعمل والتدريب، وهيأنا لهم السكن المعقول والمريح، ورتبنا لهم خطابات التعريف والتقديم للشخصيات إلتى يمكنهم أن يلجأوا إليها عند الحاجة إلى العون أو النصح. وطلبنا منهم أن يأخذوا حذرهم من البرد القارس.. وهونوع من البرد لم يألفوا مثله طوال حياتهم.. وكذلك الحال بالنسبة للأمطار التى يتكرر سقوطها عدة مرات فى اليوم الواحد وأعددناهم أيضا للتعود على الحياة وسط أناس معظمهم من ذوى البشرة البيضاء.

وحالونا بقدر المستطاع أن نعطيهم صورة وافية عن تفاصيل الحياة اليومية فى انجلترا بكل دقائقها بما فى ذلك موضوع الطعام .. كان كثيرون منهم قد تناولوا العشاء معنا بالمنزل مرات عديدة، وهذا هو ماجعل (مارقريت) تقول لهم إن الطعام الذى سيقدم لكم هناك قد لا يكون أفضل منه بكثير.

عندها أضفت أنا قائلاً: إذا أعجبكم مايقدم لكم من طعام فلا تترددوا في طلب المزيد، ولاتخجلوا من ذلك. وشيء آخر لاتتركوا أي بقايا من الأكل على أطباقكم، كما تفعلون هنا في السودان.. بدعوى أنكم قد امتلأتم. بل من الأفضل أن تطلبوا طعاما اضافيا لتشعروهم بأن طعامهم قد نال رضاءكم!

لقد كانت تلك تقريبا هي توجيهاتنا لهم، والتي اختزنوها جيدا، وعملوا بها خلال الأشهر الستة التي قضوها بالمملكة المتحدة.

عندما دقت الساعة معلنة تمام الثامنة، دخل عبدالباسط مكتبي في نفس اللحظة دون أي تقديم أو تأخير.. ولما أبديت له دهشتي لدقته المتناهية في المحافظة على المواعيد خلافا لما هو سائد بين السودانيين ضحك عبدالباسط، والتمعت عيناه خلف نظارته الطبية ذات الإطار المذهب، وقال وهو يلوح بيده مقللا من أهمية الملاحظة: إنها عادة بسيطة التقطتها من انجلترا.

كنا قد بعثنا بعبد الباسط الى المملكة المتحدة لينال تدريباً عمليا لدى شركة معمار كبرى هي (FARMER AND DARK) التي تتمتع بخبرة واسعة في مجال المعمار عبر البحار خاصة في البلدان الاستوائية.

وذكر لي عبدالباسط بأنه تفاءل كثيرا في اللحظات الأُولى من وصوله إلى الشركة عندما قدموه للمسئول الأول وكان اسمه (ديفيد) أو (داؤود) وهو اسم (الساعي) الذي يعمل بمكتبي بكلية المعمار، وكان الجميع بمن فيهم أنا نرتاح إليه لشخصيته البسيطة المحببة وتهذيبه.

عندما ذكر عبدالباسط اسم (داؤود) تحول انتباهي في ذلك الوقت إلى (داؤودنا) الذى كان فى تلك اللحظة يحمل (سقافة) طويلة ويقوم بازالة الأتربة، والغبار العالقين باحدى النوافذ، وكانت الاتربة والغبار يسقطان على الآلة الكاتبة الموضوعة أسفل النافذة دون أن يفطن داؤود إلى ذلك! وطلبت منه أن يترك النظافة قليلا، ويحضر لى ولعبدالباسط كوبين من الليمون المثلج.

وكان بوسعى أن أراه عبر النافذة المفتوحةبعد دقائق عائدا إلينا وهويمشي بتمهل حاملاً الصينية وعليها الكوبان- بطريقة مرحة- على أطراف أصابع يده اليمنى وقد رفع الصينية الى مستوى أعلى من مستوى كفه.

وأحضر داؤود الليمون. كان الكوبان الكبيران الممتلئان حتى حافتيهما يستقران فى وسط (الصينية) دون أن تنسكب منهما قطرة واحدة! وكان ذلك أكبر برهان على حذق داؤود ومقدرته الفائقة على التحكم وحفظ التوازن، وبعدها كان داؤود يبتسم ابتسامة سعيدة.. هى ابتسامة من استطاع أن يقوم بمثل ماقام به من عمل بارع يحتاج إلى كثير من الحذر والتركيز.. بكل يسر ودون أى تكلف.

حرّك عبدالباسط السكّر الذى كان مترسباً فى قاع الكوب وتجهم وجهه للحظات قبل أن يواصل روايته عن البعثة التى عاد منها مؤخراً. قال عبدالباسط: بعد المقابلة الأولى أحالنى (ديفيد) لأحد مساعديه الذى أخرج لى كمية من الخرائط والرسومات ثم خاطبنى بقوله: هنا كان موقع شباك السجن. عليك القيام بعمل الرسومات التفصيلية للشباك وتصميم الشكل الهندسى له..

وأضاف عبدالباسط مسترسلاً: هذا التصرف أصابنى بالإحباط فحملت الخرائط والرسومات للمستر (ديفيد) وقلت له: لا أعتقد أن البروفسور أليك بوتر قد جعلنى أطير الاف الأميال لكى أصمم شباكاً لسجن.. من المفروض انني جئت هنا لعمل تصميمات لمشاريع كبيرة ومحترمة. وحقيقة يقول عبدالباسط أحسست بأني قد أُهنت فغادرت المبنى على الفور.

وجدت نفسى أستقل أحد القطارات (الدائرية) التى تسير تحت الارض. كل دورة تستغرق ساعة كاملة. جزء منها داخل الأنفاق، والجزء الآخر فى الهواء الطلق. قضيت هناك يوما كاملا وأنا لا أتناول شيئاً سوى الشيكولاتة من الماكينات الكثيرة المبثوثة تحت الأرض.. فهى الوحيدة التى كانت متاحة هناك.. حتى لم أعد أطيق المزيد منها.

داخل القطار كنت أترك مقعدى لكل سيدة كما نفعل فى السودان ولكن بعضهن، ولدهشتى كن يرفضن ذلك، ويفضلن الوقوف، والتعلق بالأطواق التى تتدلى من سقف العربة.. ولما أبديت هذه الملاحظة للرجل الذى كان يجلس إلى جانبى وهو يطالع صحيفة تجاهلنى الرجل تماماً، ولم يرفع بصره عن الصحيفة لحظة واحدة! ومثل هذا لا يمكن أن يحدث فى السودان.

بعدها.. ولا يزال الحديث لعبدالباسط.. عدت فى اليوم التالى إلى المستر (ديفيد) الذى كان سعيداً جداً بعودتى، وكلّفنى بعمل تصميمات لمشروع ضخم ومحترم. وقمت بعمل التصميمات، وكان أجمل مافى الأمر إن

المشروع كان قد نفذ قبل ثلاث سنوات، وكانت مبانيه قد تم تشييدها. ولم أعلم بذلك إلاّ بعد الفراغ من عمل التصميمات، وكانت تلك فرصة عظيمة لمقارنة ذلك مع ماقمت به. وحظيت تصميماتى بملاحظات نقدية قيمة أفدت منها كثيراً.

ولابد لى من أن أذكر بأننى قمت بعد ذلك برسم وتصميم شباك السجن. ولعلى كنت فى حاجة لكى أتقبل أن حصيلتى من العلم كانت قليلة وأن علَى أن أتعلم شيئا من التواضع.

لغز الصوت الغريب!

هبطت الطائرة، ولكن العاصفة الرملية التى حجبت الأرض عن أعيننا عندما كنا نقترب من مهبط الطائرات ونحن فى الجو.. كانت لاتزال محتدمة بعنف شديد.. ولذا فقد انقضى بعض الوقت قبل أن تقع أنظارنا على السيدة (مارقريت شينى) رغم أنها كانت تقف فى انتظارنا بالصحراء علي مقربة من مكان هبوط الطائرة.

لقد كان لطيفًا منها أن تنتزع نفسها من الموقع الأثرى الذى كانت تعمل فيه، وتقطع عدة أميال لكى نتمكن من مقابلتنا. وفى الوقت الذى سرنا فيه عبر طرقات وادى حلفا إلى أن بلغنا ضفة نهر النيل كان كل أثر للعاصفة الرملية قد تلاشى. وكانت الشمس تسطع فى سماء صافية شديدة الزرقة. وعندما عبرنا النهر إلى الضفة الغربية على متن مركب صغير كان يستخدم فيما مضى (كمعدية).. كان النهر ساكنا إلى حد بعيد.

كانت سيارة آل شينى(اللاند روفر) فى انتظارنا على الجانب الآخر من النهر، وبعد دقائق قليلة من نزولنا من المركب؛ كنا نتجه شمالا قبالة الحدود المصرية. وقطعنا خمسة عشرة ميلا من أرض الصحراء الرملية المترامية الأطراف قبل أن نصل إلى قرية (دبيرة) الخالية من السكان[١]، والتى كان علينا أن نبقى فيها لبعض الوقت فى فبراير من عام ١٩٦٤.

---

(١) كان سكان قرية(دبيرة) وبقية القرى الآخرى قد تم تهجيرهم إلى خشم القرية توطئة لتشييد السد العالى.

دوائر الآثار بالسودان كانت تمر فى ذلك الوقت بفترة عصيبة .. إذ أن مناطق شاسعة من الأرض التى يعتقد أن في باطنها كنوزا كثيرة من آثار الحضارات الغابرة كانت ستغمرها مياه النيل بمجرد اكتمال قيام سد أسوان العالى. وكان الوقت المتاح للتنقيب عنها غير كاف. وقد حشدت (منظمة اليونسكو) عددا كبيراً من علماء الآثار من جميع أرجاء العالم وأوفدتهم للعمل فى مواقع عديدة للتنقيب عن الآثار بتلك المناطق.

البروفسور بيتر شينى أستاذ علم الآثار بجامعة غانا كان على رأس فريق من علماء الآثار الذين قدموا من هناك للتنقيب عن الآثار. وكان من بين أعضاء الفريق زوجته (مارقريت)، وهى أيضا عالمة آثار بارزة وان كانت لاتتبع لمؤسسة علمية بعينها.

كان الفريق يعمل فى ذلك المكان النائى على بعد أربعماية وخمسين ميلا فى خط مستقيم شمالى الخرطوم. والتحقنا بهم نحن لكى نقدم ما نستطيع تقديمه من عون.

بعد وصولنا إلى (دبيرة) صعدنا تلا صغيراً لايبعد كثيرا عن مكان إقامتنا. كان فى أعلى التل هرم قديم ممعن فى القدم.. ورغم أنه كان قد فقد قمته بفعل الزمن إلا أنه كان مثيراً للاعجاب . فقد كانت (مداميق) الآجر الذى شيدت به معظم اجزاء الهرم لاتزال باقية فى حالة ممتازة للدرجة التى أمكنتنا من وضع أيدينا على آثار الأصابع والإبهامات والأكف التى تركها البناؤون قبل ثلاثة آلاف عام!!.

من أعلى التل كان بوسعنا مشاهدة القرية بكاملها، وكذلك المنطقة الواسعة التى كانت تغطيها مواقع التنقيب عن الآثار والمنازل الثلاثة التى كانت تشغلها بعثة علماء الآثار القادمين من غانا بما فيها منزلنا، وكان هو الأقرب من الجهة الأمامية.

كان كل القرويين قد غادروا القرية، وقد منحنا ذلك إحساسا بأننا قد رحلنا إلى عالم سرمدى خارج حدود الزمن وسيطرة الإنسان!؟

المنزل الذى خصص لنا كان مشيداً من الطين، وكان مكوناً من طابق واحد، وكانت الغرف مقامة على ثلاث جهات من فناء الدار . أما الجهة الرابعة الخالية من الغرف، فقد شيد عليها جدار شاهق لكى يشكل ساتراً لبقية المنزل.

حول الغرف أقيمت بنايات صغيرة تشبه المقعد المستطيل يطلق عليها اسم (مصطبة)، وكنا نجلس عليها عندما نرغب فى الرسم. وبجوارنا على (المصطبة) كان يقف إناء ضخم من الفخار(زير) مملوء بالماء البارد. ومن المكان الذى كنا نجلس فيه كان بوسعنا أن نرى من خلال فتحة فى الجدار.. كانت على الأرجح بابا فيما مضى.. عدداً من أشجار النخيل، وبعض النباتات الخضراء المتشربة بالطمى ونهراً ضيقاً ذا مياه غامقة الزرقة!

نادراً ما تهطل الأمطار فى شمال السودان وقد أخبرونا بأن شيخاً مسناً من أهالى (دبيرة) ذكرلهم قبل مغادرته الاجبارية للقرية إلى مقر توطينه الجديد.. بعد أن اعتصر ذاكرته المشوشة، ونقب فى حناياها. بأن الأمطار هطلت بغزارة بالمنطقة منذ مايقرب من عشرين عاماً أو نحو ذلك!

لقد وفرت ندرة الأمطار وانتشار الرمال الحارة الجافة فى هذه المنطقة والمناطق المشابهة على النيل وقاية مثالية للمبانى، والمصنوعات على مر الأزمان. وكان من نتائج ندرة الأمطار أيضا صمود المنازل الطينية.. مثلا المنزل الذى كنا نسكن فيه هناك.. لأعوام عديدة، لاسيما إذا تمت تقوية الجدران بخليط من روث الحمير والرمال والماء. أما السقوف فتتكون من عناصر غاية فى الرقة، فقد كانت سقوف غرفنا مصنوعة من جذوع النخل التى تفصل بين كل جذع منها والآخر.. مسافة تبلغ حوالى خمسين سنتيمتراً. وكانت المسافات مغطاة بجريد النخل.

وعندما هبط الظلام توقفنا عن الرسم وحدث انخفاض سريع فى درجات الحرارة فتركنا فناء المنزل ودخلنا إحدى الغرف. كنا بالكاد نستطيع القول باننا داخل غرفة. فقد كنا عندما ننظر الى أعلى نحس بأننا تحت شجرة أكثر من إحساسنا بأننا داخل غرفة!

كان الجريد قد أهمل إهمالاً كبيراً من قِبَل آخر سكان المنزل، ويعود ذلك دون ريب إلى علمهم برحيلهم الوشيك. وكان باستطاعتنا أن نرى من خلال فرجات الجريد.. ضوء القمر ،والسماء الصافية المرصعة بالنجوم!.

خططنا لاغتسال سريع، واستبدال ملابسنا قبل الذهاب إلى آل شينى لتناول طعام العشاء.. وقد كان تفكيراً حكيماً منهم أن بعثوا إلينا (بجردلين) مملوءين بماء ساخن لكى نقوم بخلطه بقدر من ماء (الزير).

كان الصباح ذا المدخنة الزجاجية الموضوع على الأرض فى ركن من الغرفة المستخدمة كحمام يرسل ضوءاً هادئاً ومبهجاً. واغتسلنا، ونحن نقف فى وعاء كبير مطلى بالزنك (طشت). وأكملنا الاغتسال بأن دلقت(مارقريت) جردلا ملينا بالماء فوق رأسي، وعندما جاء دورى لكى أقوم بنفس العمل، وأمسكت (بالجردل) بين يدى.. فى هذه اللحظة بالذات.. سمعنا جلبة غريبة جداً تشبه الأزيز.. بدأت خافتة فى أول الأمر ولكنها سرعان ماأخذت تعلو وترتفع، ولم يخالجنى الشك قط فى أنها كانت متجهة نحونا. وبعدها تحولت الجلبة.. أوسمها كما تشاء...إلى هدير ومرت فوق سقفنا البالى مباشرة!

عندها توارينا! وأخذ الصوت يخفت، ويخفت إلى أن تلاشى تماماً فى البعيد. وخلال ثوان كنا فى فناء المنزل. لم يكن ثمة أثر للرياح أو السحب. أشجار النخيل كانت ساكنة. ولم تكن هناك طيور ليلية أوأى كائن حى. وكان نور القمر وضوء النجوم وبعض الظلال القاتمة منتشرة فى كل مكان!

ورغم أننا لم نستطع معرفة مصدر الصوت الغريب أو كنهه فإننا كنا على ثقة من أن آل شينى سوف يتمكنون من تفسير ذلك. فقد كان (بيتر شينى) مديراً لمصلحة الأثار بالسودان لسنوات عديدة. وعمل كلاهما. مارقريت وبيتر.. فى التنقيب عن الآثار فى كثير من المناطق النائية. ولهذا السبب كان لابد أن يكونا قد اكتسبا خبرة حسنة بكل أنواع الظواهر الشاذة فى الطقس التى يقدمها وادى النيل.

وإضافة إلى ذلك فهما قد عرفا الناس معرفة جيدة، ويتحدثان العربية بطلاقة.. وإذا استعصى عليهما فهم أمر يتعلق بالتاريخ فإنهما كانا يفكان رموزه بقراءة الهيروغليفية القديمة!

بمجرد وصولنا الى منزل آل شينى.. اللذين استمعا إلينا فى هدوء.. أخذ كل واحد منا يحاول استباق الآخر لكى يروى ماحدث. وعلقت مارقريت شينى على ذلك بقولها: لقد ذكرتما بأنكما سمعتما ذلك (الصوت الانفجارى السريع) منذ قليل. أنه لأمر غريب حقا. فنحن لم نسمعه هذه الليلة! وكان الجو هادئا تماماً. أليس كذلك يابيتر؟!

واستطردت مارقريت شينى قائلة: ولكننا سمعنا ذلك (الصوت) مرات عديدة فى كل انحاء السودان. واستطيع القول بأن (الصوت) يبدو أكثر غرابة فى عمق الصحراء. لقد اعتقدنا فى المرة الأولى أنه صادر من أحد أسراب الطيور وأن ذلك السرب لابد أن يكون بالغ الضخامة حتى يمكن أن يصدر كل ذلك القدر من الضجيج. ولكن لم تكن فى الجوار أية طيور كبيرة. إنه لغز لم نتمكن من معرفة كنهه أبداً.

وقد علمنا فيما بعد من صديقتنا الدكتورة (MARIAN WENZEL) المتخصصة فى تاريخ الفنون بأن بعض الحكايات الشعبية تروى بأن مصدر ذلك (الصوت) الغريب، الذى يشبه الأزيز يعود إلى أولئك الفرسان المسلمين الذين يرتدون (الدروع المزرودة) ويشقون عنان السماء وهم على صهوات جيادهم!!!

وتقول رواية أخرى بأن مصدر (الصوت) هو أسراب إناث طيور عملاقة تهبط من السماء لكى تتزوج مع ذكور الضباع!!!

لمدة عشرة أعوام أو أكثر لم نجد تفسيراً لمصدر (الصوت) حتى كان ذلك اليوم الذى زارنى فيه بمكتبى فى (جامعة الملكة) ببلفاست صديقنا القديم، وطالبنا السابق (عبدالباسط). لقد صار (باسط) الآن يبدو أكثر ميلاً إلى التفكير والتأمل. وعندما كنا نتحدث عن مشروع كان قد بدأ فى مباشرته فى ذلك الوقت كانت عيناه الثاقبتان المتفرّستان تنظران إلىّ من خلف نظارته ذات الإطار المذهب..

والمثبتة فى كتلة كثة من الشعر الأسود. وكانت النظارة تشّع من وجهه الشاحب كأنها قد شحنت بالكهرباء!

واتخذ الحديث منحى آخر عندما أخذنا نتحدث عن المرة الأولى التى تعارفنا فيها ببعضنا البعض. قلت له: هناك أمر واحد لم يحالفنا فيه التوفيق. لقد فشلنا فى معرفة ذلك الصوت الغريب، الذى سمعناه قبل سنوات. صوت الأزيز أو مايشبه الصوت الانفجارى السريع! ومضيت فى وصف تفصيلى لما حدث.

وسألت عبدالباسط إن كان يعلم شيئا عن سر ذلك (الصوت) .. وأنا ضعيف الأمل فى الحصول على الإجابة التى أبحث عنها. عندما أجاب عبدالباسط بأنه سمع (الصوت) وبالتحديد فى أم درمان. صعقت بشدة! وجلسنا صامتين لفترة قصيرة يلفنا الكسون إلا من عويل بعيد لسيارة إطفاء! وأرسلت بصرى عبر النافذة نحو الأوراق التى كانت تدور حول نفسها فى دوامة بالخارج.

وقطع (باسط) الصمت قائلا.. نعم.. لقد سمعت ذلك (الصوت) الغريب، وسمعته أمى كذلك. لم أشأ أن أصدق فى بادىء الأمر ماسمعت. ومع ذلك لم يكن عدم تصديقى كاملا! حاولت بعدها أن أحاكى ذلك(الصوت) . وعندما سألت أُمى عن ماذا يكون.. أجابتنى بطريقة غريبة قائلة: انت تسمعه فقط.. ولكنك لاتراه!.

واسترسل عبدالباسط قائلا: (عندما كنت صبياً سمعت بعض الناس وهم يتحدثون عن رجل صالح يدعي (الشيخ قريب الله)، وعندما تذكره أمي فإنها كانت تضيف إلى اسمه لقب (الطيار).. وتقول إن من يستغيث به عند الكروب واجد لامحالة العون والمخرج!

كان هذا الشيخ رجلاً تقياً ورعاً مشهوداً له بالصلاح والتقوى، وقد توفى قبل أعوام بعيدة، ولا أعرف على وجه التحديد متى كان ذلك؟ ويعتقد مريدوه العديدون بأنه لايزال حيا يرزق ! وللشيخ مسجد بأم درمان وبالقرب منه توجد القبة، والضريح الذى دفن فيه..

لم يكن شيئا غير مألوف أن حديث (باسط)..مثلما هو الحال مع السودانيين الشماليين.. تغير اتجاهه من مساره الغيبى إلي مسار مختلف أكثر دنيوية وواقعية. فقد واصل (باسط) حديثه قائلا:

(عندما كبرت صرت أؤدى صلاة الجمعة فى بعض الأحيان بمسجد الشيخ قريب الله.. وذلك عندما لا أتمكن من إدراكها بمسجد أم درمان فقد كانت الصلاة بمسجد الشيخ قريب الله تقام عادة بعد موعد إقامتها بمسجد أم درمان بحوالى نصف ساعة. وهناك كنت أصلى بين مريديه.

ولكن لابد لى من أن أقر بأن الصلاة هناك فيها الكثير من المشقة فأنت لاتركع فوق سجادة وثيرة أو(برش) من النوع الناعم، ولكنك تركع فوق حصيرة خشنة، لكى تتلاءم مع الروح السائدة للتواضع والخضوع. وعليك عندما تركع أو تجلس أن تتخذ وضعاً غير مريح، وفى غاية الأدب والتهذيب).

رغم أن هذا الحديث كان ممتعاً وشيقاً، فإنني اكتشفت بأننا قد ابتعدنا كثيراً عن لغز(الصوت الغريب)، فقررت أن أُعيد (باسط) مرة أخرى إلى ذلك الموضوع. قلت لباسط: إذا كان الشيخ هو الذى يصدر ذلك الصوت عند طيرانه.. فلماذا يصدره وكيف يفعل ذلك؟!.

أخذ (باسط) الأمر فى صبر وأناة قائلا:(لا أحد يعطيك إجابة واضحة عن الكيفية التى يتم بها الطيران،وكل ما يقولونه هو: (استدعه عند الحاجة وسوف يلبى نداءك!).. وليس من المفترض بأن تدرك ما إذا كان الشيخ نفسه هو الذى يطير مثل طائر ضخم.. أم أن الطيران يتم بصورة أخرى. أحيانا يستمع الرجال إلى صوت(الطيران) وهم فى حلقة (الذكر).

ولما استفسرت (باسط) عن معنى كلمة (ذكر). أوضح لى بأن المعنى الحرفى للكلمة يعنى أحد الطقوس التى يتمايل فيها الرجال تمايلاً موقعاً وهم يذكرون اسم الله واسم الشيخ الذى يتبعونه. واثناء انهماكهم فى (الذكر) يبلغ الذاكر ودرجة من الوجد والانجذاب الصوفى .. فينشدون ويرددون بصورة مستمرة (لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله .. لا إله إلا الله).

أطبق (باسط) شفتيه إطباقاً محكماً ثم اطلق صوتاً منغماً.. وبعد لحظة أو اثنتين تحول ترنمه الى إنشاد قوى.(حى قيوم.. حى قيوم) ومن المفترض أن يساعد هذا على التركيز كما يقول (باسط)، ولكننى استنتجت بأن باسط لايستحسن (الذكر) فى مجمله. كشخص تربى وسار على طريق معتقد قويم فإنه ينظر إلى (الذكر) بقدر معين من الريبة والشك.. فقد علق قائلاً: (إن (الذكر) على وجه التقريب هو أداء جسدى.. وفى نظرى.. هستيرى إلى حد ما(!).

مضت فترة توقف قصيرة قبل أن يواصل (باسط) بعدها: (حى قيوم.. حى قيوم).. إلي أن بلغ الانشاد أوجه. ومرة أخرى حمل الينا هواء الخريف الرطب. العويل المتذبذب لمزيد من سيارات الإطفاء، دون سبب منطقى وجدت نفسى ألاحظ كيف أن إيقاعاتها كانت تكمل أحيانا إنشاد (باسط) وتتعارض معه في أحيان أخري!

أخذ (باسط)يفكر ملياً.. وبعد أن حرر نفسه من الاستغراق فى التفكير. قال: حقيقة أنا لا أجد بأساً فى (الذكر) فربما كان عضواً مساعداً على تأدية الشعائر الدينية. وبعض الناس يميلون إليه من هذه الزاوية.

وجاء دورى فى التفكير والتأمل الروحى، فأوردت أمثلة لاحصر لها عن التسامح الذى وجدناه عند السودانيين.وقد آمنت بأن هذا هو السبب الذى جعل من مهمة تدريسهم أمراً ممتعاً ومصدراً عظيماً للسعادة.

بعدئذ اخترق أفكارى صوت عبدالباسط.وكانت نبراته على غير المألوف قوية وقاطعة، وهويخاطبنى قائلا:(ارجع إلى أصول الإسلام وستجد أن

الإسلام ليس وضع خطأ تحت ليس.. مسألة حركات جسدية. إن جوهره هو تلك الصلة التعبدية الحميمة التى تربط المسلم بربه. أما الحركات الجسدية فهى ثانوية، وتمثل إضافات وحوافز بالنسبة إليها. وهذا هو كل ما أستطيع قوله).

لقد لاحظت كيف أن طريقته اللطيفة الحييَّة فى المخاطبة قد استبدلت بأخري صارمة ومتجهمة! ورغم أننا لم نجد تفسيراً للغز (الصوت) فإننا اكتشفنا أن البحث نفسه قد قدم لنا قدرا من التنوير. وبطريقة أو بأخرى بدا لنا أن لغز (الصوت) قد أصبح غير ذى أهمية نسبيا فصرفنا النظر عنه واكتفينا بإيداعه ركنا منزويا من ذاكراتنا، ووضعنا عليه ديباجة تقول.. (متسعصٍ على الحل)، وربما (غير قابل للتفسير!!) ولكن، وبرغم ذلك فعندما زرنا السودان فى فترة لاحقة بعد حوالى أربعة أعوام كان إغراء معرفة سر(اللغز) لا يزال قوياً للدرجة التى جعلتنا نبحث باهتمام عن مكان مسجد وقبة الشيخ قريب الله الطيار، وبدون عون صديقنا الحميم الدكتور (حليم عوض) كان الأمر سيصبح عسيرا جدا علينا لمعرفة مكانهما.

ومثلما يفعل أى صديق مخلص كان دكتور حليم يلِّح بين حين وآخر على تقديم مساعداته لنا وقت الحاجة. وقد قام فى أحد الأوقات بطلاء السقوف الشاهقة لمنزلنا طراز القرن الثامن عشر بأيرلندا الشمالية. وفى سنوات لاحقة في (Blaenau Festinion) كلّف نفسه عناء نقل (صخور الأُردواز) التى تستخدم في السقوف من مقلع للحجارة (بويلز) فى يوم غزير المطر.

لقد عرفنا دكتور حليم لأول مرة كما عرفه زملاؤه بجامعة الخرطوم أكاديمياً ذا ذكاء لا جدال فيه. وقد حازت أطروحته لنيل الدكتوراة عن مصممي (هندسة البيئة) [٢] البريطانيين في القرن الثامن عشر الميلادى على ثناء أساتذته الروس عندما قدمها لهم وناقشها معهم بنفس لغتهم. وكان موضوع (هندسة البيئة) هو الموضوع الملائم تماما بالنسبة له.. لأن حديثه.. مثل تلك الأعمال الهندسية التى ابتدعها BROWN و HLIM-PHERY REPTON كان يحمل بين طياته مغزى خفيا!

وعلى سبيل المثال ماذا كان يعني دكتور حليم عندما قال عن أساتذته الروس: (بأن الكثير من المعلومات التى قدمتها لهم كانت تبدو جديدة عليهم .. ولكن من الناحية الأخرى لم أغفل إيراد بعض الأشياء القليلة التى تخلق المباغتة والدهشة!.

وتساءلنا ترى هل تبين أساتذته الروس حاسة المزاح الدائمة، التى كنا نقرأها فى تألق عينيه وفى قسمات وجهه المفعمة بالحيوية؟!

وكيف كانت ردود أفعالهم إزاء عادته فى السماح لسيل من الأفكار والملاحظات البارعة بالتدفق من بين شفتيه. مثيراً بذلك ليس دهشة مستمعيه فحسب، ولكن دهشته هو نفسه!!

وهل لاحظوا كيف كان ميالاً للقفز دون سابق إنذار.. من مستوى فى الحديث إلى آخر؟.. تلك السمة التى تذكر المرء بمصممي (هندسة البيئة) الذين كان يعجب بهم كثيرا، والذين كانت لهم طريقة مشابهة فى خلق تغييرات مفاجئة داخل تصميماتهم الهندسية!

(٢) هى فن تحسين وتطوير البيئة (الشوارع والمبانى) لكى تكون أكثر جمالاً واتساقاً.

لقد تطور الاعجاب الذى كنا ومازلنا نكنه لدكتور حليم إلى صداقة متينة وقد أثبتت لنا الأيام فى كثير من المواقف بأنه يقوم بأداء أى عمل يوكل إليه على أفضل وجه، وهذا هو ما فعله تماما عندما طلبنا منه أن يأخذنا إلى مسجد وقبة الشيخ قريب الله.

قادنا دكتور حليم باقتدار داخل سيارته فى أكثر أنحاء أم درمان انعزالا. كانت سحب كثيفة من الغبار تتصاعد من إطارات سيارته، وهى تتقدم ببطء فوق طرق غير ممهدة بين مئات المنازل الطينية ذات الجدران العالية. وأثناء ذلك تفادينا الاصطدام بالحمير، ودرنا بحذر حول الأطفال المنهمكين فى اللعب، وتحركنا فى تؤدة قرب مصارف المياه العميقة متجنبين السقوط فيها. كما أبعدنا برفق قطعان الماعز، والضأن عن طريقنا. وأخيرا استطعنا ان نشاهد (قبة) الشيخ قريب الله وقد برزت فوق أسطح منبسطة.. وبجانبها ارتفع برج رفيع مطلى باللون الفضى. كان هو مئذنة مسجد الشيخ قريب الله.

وقفنا فى الساحة الخارجية البالغة النظافة للمسجد، ونحن نمعن النظر فيما حولنا بينما كان دكتور حليم منهمكا فى حديث طويل مع (الإمام) وعدد من مريدى الشيخ. وعندما فرغ من حديثه عاد إلينا وبادرنا بقوله: (إن هؤلاء القوم يتبعون طريقتهم الخاصة فى التدين ونحن نطلق عليها اسم (الطريقة الصوفية). فهم يقرعون الطبول، ويؤدون الأناشيد التى هى على الأرجح بعض الأقوال المأثورة للشيخ قريب الله الطيار. وهذه الليلة ليست فقط هى عشية يوم الجمعة ولكنها أيضا عشية (أول السنة الهجرية)..

واسترسل دكتور حليم قائلا :(إن السمة الرئيسية لتصميم هذا المسجد مثل بقية المساجد الأخرى.. هى ساحة كبيرة بداخلها غرفة واسعة مخصصة لتأدية الصلوات. وفى وقت لاحق من هذه الليلة سوف يجتمع القوم للتفاكر والتشاور فى هذا المسجد وربما انخرط المريدون فى حلقات الذكر).

عندها هتفت: (الذكر!!) ثم أردفت متسائلاً: ألا يسمع القوم ذلك (الصوت الغريب) أثناء انهماكهم فى (الذكر) ؟! استغرق حليم فى تفكير عميق قبل أن يجيب. وكنت أحس بإنه كان فى تلك اللحظات يصارع لإيجاد طريقة يمكنه بها التعبير عن تلك الأفكار التى لايمكن أن تدرك بالكلمات!

قال حليم:(يجيب على سؤالك هذا أحد مريدى (الشيخ) يقول المريد: (نعم.. ينتابك ذلك الإحساس وأنت مستغرقا فى (الذكر) وفى غمرة الإنهماك فيه.)

عندها عادت بى الذاكرة إلى الوراء..إلى تلك الملاحظة التى أبدتها والدة (باسط) ذات يوم وهى تعلّق على لغز الصوت الغريب قائلة: (إنك تسمعه ولكنك لاتراه!)

بعد برهة من الاستغراق في التفكر قالت (مارقريت) مخاطبة الدكتور حليم: ولكننا لم نكن منهمكين فى (الذكر) كما أننا لم نكن نمارس أى نوع من الشعائر الدينية عندما سمعنا ذلك (الصوت الغريب)!

رد عليها حليم قائلا، وفى صوته أثر للمفاجأة وربما الصدمة:(أن مثل تلك الطقوس يجب أن ينظر إليها على أنها خطوات تمهيدية أساسية لتجلى الخوارق. أن كل طفل يولد مسلما بالفطرة،.. وسيحاسب كل امرىء وفق نواياه.)

فيما يبدو كانت دهشة حليم نفسه بقدر دهشتنا بعد أن أضاف فجأة: (بوسعكم القول بأن (حساء البصل)، الذى كانت تعده (مارقريت) له صلة بهذا الأمر!!)

ونحن نترنح من أثر هذه الملاحظة التى أبداها دكتور حليم تبين لنا شيئا فشيئا بأنه كان يستعيد إلى الأذهان ذكريات منزلنا السابق بالخرطوم حيث كان (حساء البصل) هو الطبق المفضل لدى المجموعات المتعاقبة من الطلاب الذين كانوا يتناولون طعام العشاء معنا عند زيارتهم لنا بالمنزل.

واصل حليم حديثه مرة أخرى قائلا::(لقد كنا أسرة واحدة، وجماعة واحدة نعمل سويًا ونأكل سويا، ونضحك سويا، ونتقاسم كل شيء معا.. ونحن في السودان نحب كل ذلك ونعشقه. إذن لماذا تحرم مثل هذه الجماعة المتآخية والمتحابة من فضل كرامات الأولياء والصالحين؟!!

كانت الإجابة على السؤال تتم بسؤال آخر وحذوت حذوه فى هذا المضمار، ونحن نواصل حديثنا داخل سيارته التى كانت تقف فى ظل الجدار الخارجى لفناء المسجد..

قلت لحليم: فى أى مرتبة من التسلسل الهرمى للعاملين بالمسجد يقف أولئك الرجال، الذين كنا نتحدث إليهم قبل قليل. هل هم موظفون كبار بأى شكل من الأشكال؟!

أجاب حليم :(إنهم ليسوا موظفين، ولكنهم على الأصح تلاميذ، ومريدى الشيخ قريب الله الطيار، وقد جاءوا إلى هنا على الأرجح وهم أطفال وسيمضون أيامهم هنا كمريدين للشيخ الذى تضم هذه القبة ضريحه ورفاته. لقد نذروا أنفسهم لخدمة الاسلام.. وهو نفس الهدف الذى كان (الشيخ قريب الله) قد كرس حياته من أجله).

غريزيا اتجهنا ثلاثتنا نحو المسجد. فى أعلى القبةالتى كانت ترقد تحتها رفات الشيخ.. كان (هلال) ذهبى يتلألأ ويتوهج تحت أشعة الشمس الموشكة على الغروب.. وكان ذلك قبالة خلفية أخذت تتزخرف فى كل لحظة بألوان أرجوانية غامقة.

ومن المسجد أرسل حليم بصره بعيدا، وأخذ يضيّق عينيه العسليتين، وهو يتحدث بنبرات متأنية قائلا: (إن ذلك (الصوت) هو شيء تسمعه فقط. ومن الأفضل ألا تدقق وتحلل وتبحث عن تفسير مادى لهذا الشىء!

فسطوع الضوء، وحركة الثوب الأبيض، وذلك الصوت الذى يشبه الأزيز.. كل هذه الأشياء تحدث أحيانا وهى حقيقة!.

أخبرني يا جدي!

بعد مضى سبعة عشر عاماً على مغادرتي السودان عدت إليه مرة أخرى بدعوة من بعض طلابى القدامى، وكنت فى ذلك اليوم أجلس مع أحدهم وهو بالتحديد محمد محمود حمدى نفس الطالب حمدى الذى سلّم علبة المرهم للرجل الذى كان يركب جملا، ويشكو من آلام بظهره؟ خلال رحلتنا الدراسية للمديرية الشمالية.

كان حمدى قد أصبح الآن معمارياً كبيراً..ناجحاً ومحترماً، وقد قام بتنفيذ وتشييد العديد من المبانى العملاقة والمساجد ومجمعاً كاملاً لجامعة بجنوب السودان.

كان سكون منتصف النهار بالخرطوم، والذى يبعث فى الجسم مزيجاً من النعاس، والحذر قد هيأ لنا (شاشاة) بيضاء.. لم نستطع مقاومة عرض ذكرياتنا فى تلك الرحلة عليها. وعند تذكرنا لبعض الطرائف التى حدثت لنا فى الرحلة كنا نضحك من جديد كأننا نضحك لأول مرة. وبين الفينة والأخرى كان يقطع السكون صوت ضربات مطرقة على كتلة خشبية آت من بعيد.

استعدنا العديد من الذكريات وتحدثنا وضحكنا كثيرا ثم رويداً رويدا خمدت ضحكاتنا، وتوقف تدفق الذكريات، وغمرنا هدوء وسكون لذيذان. وفجأة.. واصل حمدى الحديث مرة أخرى وأخذ يعدد الفوائد العظيمة التى جناها هو وبقية الطلاب من تلك الرحلة.. قائلا :[انت تعلم كم كانت جميلة ورائعة.. اهرامات نوري.. إننى أذكر كيف كنا نستمتع

بمشاهدتها ليلا ثم نعود فى الصباح لنملأ أعيننا من سحرها. وعندما أقمنا معسكرنا بالقرب منها كان من أندر المشاهد رؤية الشمس وهى تشرق خلف الأهرامات، وترسل أشعتها فتلامس كل الرمال المتموجة، وتكسوها بلون بهيج] .

واسترسل حمدى قائلا: (اعتقد أنه كان شيئا عظيما لجميع الطلاب الذين رافقونا فى تلك الرحلة أن يعلموا بأن أسلافنا أرادوا أن يتركوا لنا أعمالا ذات مستوى رفيع. لقد ازداد احترامنا وتقديرنا لبلادنا أكثر وأكثر عندما اكتشفنا ذلك الاهتمام الكبير الذى كان يوليه أولئك الأسلاف للتشييد من أجل إغناء بلادنا وتجميلها، ولقد ساعد ذلك على خلق روح الاعتزاز والثقة بيننا ومدنا برصيد وافر من التعزيز المعنوى. وفى تلك الرحلة .. ولا يزال الحديث لحمدى..

كنا أسرة واحدة مترابطة ومتحابة. اكتسبنا الحماسة والمعرفة من بعضنا البعض واكتشفنا الكثير من المعلومات المفيدة سويا. ولم يكن سهلا أن يتم مثل هذا التقارب بين مجموعة من الشباب .. إن لم يكونوا جميعهم ينحدرون من أصول بدوية) .

إننى اعتبر صدور مثل هذا الكلام من شخص مثل حمدى لايسعى إلى التفلسف.. مقدمة مؤثرة لما سيقوله عن فوائد تلك الرحلة. لقد عبر عن أفكاره بأسلوب واقعى واضح ومثير للإعجاب. وأكمل حمدى حديثه قائلا:

نحن نستخدم الآن في أعمالنا المعمارية بعض التصميمات، التى استقينا فكرتها الأساسية من تلك المبانى القديمة بروعة خطوطها وزخرفها. إنها جميلة وجديدة فى نفس الوقت. فهى ثمرة لتمازج العديد من الثقافات. لقد انتشرت تلك الأفكار والتصميمات المتنوعة وانبثق منها فى اعتقادى مايمكن أن نسميه (أسلوبنا الخاص). ولما قلت لحمدى: ربما بالتحديد (الطابع القومى).. وافقنى حمدى على ذلك.

وبما أن حمدى كما سبق، وذكرت قد صار من كبار المهنيين بالسودان.. فقد كان يرى لزاما عليه، وجزءا من واجبه أن يتيح الفرصة لبعض طلاب كلية المعمار للتدريب العملى بمكتبه بالخرطوم. وعندما سمعنا بأن أحد هؤلاء الطلاب، وهو (الهادي يوسف على) سيقضى فترة ستة أشهر بالمملكة المتحدة لزيادة وإثراء خبراته العملية طلبنا منه أن يمكث معنا بضعة أيام بمنزلنا فى وسط (ويلز) وقد قبل الدعوة.

وعن لقائى بالطالب الهادى يوسف لأول مرة كان مفاجأة لى إصراره عند مخاطبتى بقوله: (ياجدى)! وقال الطالب فى تبرير ذلك وهو يوجه حديثه لشخصى: (لقد ساعدت حمدى وزودته بذخيرة وافرة فى المعمار حتى أصبح واحداً من أكبر وأفضل المعماريين السودانيين. ،وتعلّم حمدى على يديك الكثير. انه ولدك.. وأنا الآن أتلقى التدريب بمكتبه وهو يقوم بدوره بتعليمى، ولذلك فأنا أعتبرك جدى!).

تأثرت جدا لحديثه. ولم أعلق إلا بكلمة واحدة فقط هى (رائع)!

لم أستطع أن أجادل منطقه القوى، ولم أحاول ذلك خشية أن أفسد لحظة هى من أسعد اللحظات التى عشتها طوال تدريسى للمعمار مدة أربعين عاما.

وفي فترة إقامته بيننا زار الهادى معى كاتدرائية القديس داؤود التى ترقد في أحضان منخفض مورق.. كثير الشجر يحميها إلى حد ما من العواصف الهوجاء التى تهب من سهول (بمبروكشير).

أُعجب الهادى بموقع الكنيسة، ومظهرها الخارجي، ودلفنا إلى داخلها لكى نشاهد سقفها المصنوع من البلُّوط الأيرلندى فى القرن الخامس عشر الميلادى.

أثناء وجودنا داخل الكنيسة مرت بنا بعض السيدات المسّنات واللاتى توحى ملابسهن المحلِّية الصنع بأنهن قرويات.. وأخذن يرسلن نظرات مليئة بالفضول نحو الهادى (بجلابيته) البيضاء الناصعة وعمامته الكبيرة المستقرة فوق رأسه.

وفي نفس اللحظة كان الهادى يوجه إلى سؤالا بصوت مسموع وهو يشير إلى السقف: (أخبرنى ياجدى ماذا تفعلون بتلك الألواح الخشبية الكبيرة التى تتدلى فوق الرؤوس بهذه الصورة المخيفة؟!)

لقد كنت منتبهاً إلى أن عشرين زوجاً من العيون كانت مسددة نحوى- وعشرين زوجاً من الآذان كانت ترهف السمع لكى تلتقط مايمكن أن تنبس به شفتاى .. وأجبت على سؤال الهادى بقولى: سؤال وجيه يا حفيدى.

بعدها ابتعدت السيدات، ولم أكن واثقاً تماماً عما إذا كان الهادى قد فطن إلى الأسئلة الكثيرة التى كانت تدور فى رؤوسهن. وفجأة التفت إلىّ الهادى ضاحكًا وهو يقول: يا للأسف لو كنت تضع (طاقيتك) السودانية على رأسك لكان ذلك شيئا رائعاً...

حصار سواكن

قبل أن تطأ أقدامنا أرض سواكن كنا نعلم بأنها (مدينة أشباح!) ولكن من خلال التجربة فقط أمكننا أن ندرك بعض ما تضمنه هذا التعبير. وكان من الطبيعى أن نزور هذا المرفأ القديم خلال الأشهر الأولى من قدومنا للسودان، وكنا نحاول مشاهدة أقصى ما تمكننا مشاهدته من المدينة ومبانيها.

كان وقوع سواكن على جزيرة صغيرة قرب الساحل السودانى للبحر الأحمر.. محاطة ببحيرات مرجانية قد جعل منها مكانا آمناً لرسو السفن. وكان ميناؤها فى أيام ازدهاره مركزاً تجارياً مزدحماً بالحركة.. والنقطة الرئيسية التى ينطلق منها وإليها المسلمون الأفارقة الذين يقصدون الأراضى المقدسة الإسلامية، ويعبرون منها البحر الذى تفصله عنها اليوم فى (الخريطة) فإنك واجد اسمها ولكن بعد الاستعانة بعدسة مكبِّرة!!

لم تكن مياه (ميناء سواكن) الضحلة قادرة على استقبال السفن الكبيرة(عابرة المحيطات) حتى بمستوى أواخر العصر (الفكتورى)، وقد تمكن ميناء بورتسودان الذى أنشىء فى العقد الأول من القرن العشرين من الاستيلاء بسرعة على كل الحركة التجارية التى كانت موجودة بميناء سواكن. وفى الوقت الذى ذهبنا فيه إلى هناك كانت سواكن مهجورة تماماً، وحتى الحجيج الذين كانوا يغامرون بالسفر بحراً عبر الطريق التقليدى إلى مكة صاروا يبحرون الآن.. كما يبدو .. من مدينة (القيف) الصغيرة على البر الرئيسى والتى يربطها بسواكن الطريق الذى أقامه الجنرال غردون.

أصدقاؤنا فى الخرطوم بشرونا بأننا سنجد فى المبانى التى بسواكن روائع من فنون المعمار. ونبهونا إلى أن كثيراً منها كانت خرائب، ولكنهم أكدوا كذلك بأن قدراً كبيراً منها بقى بحالة جيدة بدرجات متفاوتة. ونبهونا أيضاً بوجود الأشباح هناك وقد استنتجنا نحن.. بأنه ما دام سكان المدينة قد رحلوا فلابد حينئذ من أن تدخلها الأشباح لتحل محلهم!.

كان (باسط) يسخر من حكايات الأشباح. فقد قال بطريقته الخاصة فى الحديث: إننى أسمع الكثير من تلك الروايات ولكننى لا أصغى إلى قائليها وأوقفهم عند حدهم.فأنا لا أؤمن بوجود الأشباح!

إن عبدالباسط كعهده دائماً لا يثق فى أى أمر يكون فيه أثر للخرافة. وبرغم ذلك فقد كانت لديه حكاية غريبة خاصة به تتحدث عن كيفية تحول شيء صعب التصديق إلى حقيقة لاتقبل الجدل!! فعندما كان فى الثامنة عشرة أوالتاسعة عشرة من عمره ذهب مع ابن عم له فى مثل سنه إلى منطقة مهجورة من مدينة بورتسودان بمواجهة البحر حيث كان يقوم مقهى منعزل وعدد من أعمدة النور بالطرقات.

وذكر (باسط) بأنه خاطب ابن عمه هناك قائلا:(وأنا فى أم درمان سمعت رواية غريبة عن هذا الجزء من الساحل تقول: بأن قططاً سوداء تخرج من البحر فى هذا المكان. وذلك شيء لايمكننى تصديقه. لأن القطط لاتعيش إلا على اليابسة!).

ولكن لم يمض وقت طويل على هذا الحديث قبل أن يرى الصبيّان عدداً من القطط السوداء وهى تمشى داخل المياه الضحلة .. أثناء المد والجزر.. وتغامر بتلقف غنائم رائعة من المحار!!

وعلّق عبدالباسط على ذلك قائلا بطريقة فاترة:(إنه شيء مشوّق). ولكننا أكدنا له بأن الأمر ليس مشوقاً فقط، ولكنه مذهل إلى حد بعيد. وبأننا سوف نركز انتباهنا في سواكن على هذه الظاهرة ومثيلاتها من الظواهرالشاذة.

هيأت لنا الجامعة.. مارقريت وأنا.. الإقامة في مبنى (المحافظة) بسواكن وهو مبنى ضخم شُيِّد على الأغلب حوالى عام ١٨٨٦. وكان المبنى عند أول إنشائه مقراً للحاكم، وبعض المكاتب الإدارية التابعة له.. ثم تم تحويله إلى (استراحة) خلال فترة الحكم الثنائى. ورغم أن آثار البلى كانت قد أخذت تبدو على المبنى إلا أنه كان لايزال سليماً على وجه التقريب عندما كنا هناك قبل حوالى خمسة وعشرين عاماً.

كان موقع المبنى رائعاً. فقد كان يطل على المرفأ القديم الذى كانت المراكب الشراعية المكتظة بالحجيج تقلع منه إلى جدة عبر المياه ذات (الزرقة الداكنة)، والتى يطلق عليها خطأ اسم (البحر الأحمر)!

إن التسهيلات التى وفّرتها لنا(إدارة الجامعة) خلال إقامتنا هناك كانت كأحسن ما يكون. وكان الماء يحمل إلينا على ظهور الحمير عبر الطريق الذى يربط الجزيرة بالبر الرئيسى. وكذلك كان (طاهينا) يجيء عبر نفس الطريق ليعّد لنا طعام الفطور والعشاء، وبعد أن يفرغ من كل ذلك، كان يعود مرة أخرى من حيث أتى.. ومنذ تلك اللحظة وحتى صباح اليوم التالى كانت الجزيرة بأكملها تصبح ملكاً خالصا لنا!

كان الليل قد حل عندما قمنا بأول جولة لنا داخل الجزيرة .. ولكن البدر المكتمل فى تلك الليلة بدّد الظلام وأحاله إلى نهار .. بضوئه الساطع! ومن منطقة السوق فى وسط الجزيرة كانت الطرقات والأزقة تتشعب وتغطى كل المساكن والمبانى الأخرى.

الحواجز التى كانت مقامة لوقاية الميناء، وكذلك الأرصفة الممتدة فى البحر ،والتى كانت يوماً ما تحيط بأجزاء واسعة من الجزيرة انهارت وتقوض أكثرها داخل المياه. ومن فوق الأنقاض أخذنا نحدّق بإعجاب ودهشة فى أعماق البحيرات الضحلة التى كانت مياهها الصافية تكشف عن الشعب المرجانية التى بداخلها بينما كانت بعض الظلال الكثيرة المتحركة تحت الماء توحى بوجود الأسماك!

كانت المدينة كلها.. على وجه التقريب .. قد شيدّت من الأحجار المرجانية المستخرجة من البحر، والتى كانت تقطع فى شكل مكعبات قبل استخدامها فى البناء.. وكانت صفوف الحجارة المرجانية المكونة للجدران.. (ترصّع) بعد ارتفاع كل أربعة أو خمسة أقدام من البناء بجذوع مستديرة توضع بصورة ظاهرة فى خط أفقى فى سطح الجدران. وهذه الطريقة رغم بساطتها فهى فعالة فى تقوية البناء، ودعمه خلال عملية التشييد. ومع ذلك فإن مثل هذه الجدران لا يمكن لها أن تبقى اذا لم تتم تقويتها بالجص أو على الأقل طلاؤها بالجير فى فترات متقاربة. ولهذا السبب فإن مدينة سواكن بعد أن أُهملت لمدة ربع قرن.. كانت تتداعى بكاملها.. وباطراد.وكانت كتل من الأنقاض والركام، تسد بعض الدروب الضيقة التى غامرنا بالتجول فيها.

العديد من المنازل في سواكن كانت تتمتع (بالمشربيات) الأنيقة ذات الستائر الجميلة المزينة بالنقوش، والتي كانت تمكنّ ساكنات تلك المنازل من الأطلال على حشود السابلة التي كانت تصطخب في الطرقات.. دون أن يراهن أحد!

كان تأثير الأتراك على تصميم كثير من المباني واضحاً.. خاصة على بوابات المنازل بعتباتها الحجرية المقوسة، وفي الكُوى المزخرِفة للغرف التي كانت جدرانها الخارجية قد انهارت.

قالت مارقريت: ونحن في طريق العودة إلى مقر إقامتنا بمبنى المحافظة: أتمنى أن نرى هنا بعض تلك القطط السوداء الغريبة التي حدثنا عنها (باسط). ولم يمض وقت طويل على قولها هذا حتى فوجئنا برؤية مجموعة منها مكونة من ثلاث قطط من صائدات الأسماك!

كانت القطط متينة البنيان.. وكانت تسير في كبرياء في طابور، وقد انتصبت أذيالها إلى أعلى، وفي فم كل منها سمكة مكتنزة رائعة! كنا نعلم من قبل بأننا لسنا وحدنا تماما في هذه الجزيرة .. وأصبح لدينا الآن الدليل على صحة ذلك!!

داخل مبنى المحافظة كان استكشاف الأشياء محدوداً في تلك الليلة إذ كنا نعتمد في الإضاءة على مصباح صغير يعمل بالكيروسين .. ويضيء بعد أن يتم ضغط الهواء فيه. وحينئذ كان يصدر منه (هسيس) مزعج وينشر ضوءاً أخضر شاحباً لايتعدى مداه ذراعاً واحدة! ومع ذلك فقد أوفى بالغرض وأمكننا اكتشاف صندوق صغير يحتوى على صور فوتوغرافية ووثائق. وكانت اكثر الصور إثارة للاهتمام تلك التي كتب عليها بأنها للقائد السوداني المهيب (عثمان دقنة) الذى تم أسره في النهاية في (واربية) في الثالث عشر من يناير عام ١٩٠٠.

(هسيس) المصباح المتواصل كان يقطعه بين حين وآخر صوت مكتوم يشبه ارتطام شيء ما بالأرض.. وكان ذلك دون شك هو صوت سقوط المباني القديمة. لقد أحببنا تلك الليلة لما وفرته لنا من هدوء مطلق وعزلة. وأخذت (مارقريت) في نقل الصورة برسمها على الورق وكتابة التعليق المصاحب لها.

تظهر الصورة مجموعة من الناس الذين اختيرت مواقعهم فيها بعناية فائقة.. حسب أهمية كل واحد منهم... بنفس الطريقة، التي نجدها في الفنون النيلية القديمة!

أبرز موقع في الصورة كان لرجل بدين في كامل زيه العسكري بما في ذلك الحزام العريض للكتف بجيوبه المليئة بالرصاص. ويوضح التعليق بأن الرجل هو (التركي) الذي أسر عثمان دقنة. أما عثمان دقنة نفسه فكان يقف في الخلف على مسافة أبعد إلى حد ما، وقد أبقى يده اليمنى وراء ظهره في محاولة لإخفاء حقيقة تكبيله بالأصفاد، وتقييده إلى شخصية عسكرية تافهة تقف في خلفية الصورة!! وفوجئت عندما علمت من التعليقات التي نقلتها (مارقريت) بأن عثمان دقنة بعمامته المميزة ووجهه الطيب، وحاجبيه الكثين، ولحيته التي تشبه لحية (سنتاكلوز).. كان قائدا مبرزا في القتال وينتمي إلى القبيلة التي اجتاحت يوماً ما (المربع) البريطاني في إحدى المعارك!

وبينما انهمكت (مارقريت) في الرسم أخذت أنا في قراءة أكداس المقتطفات، والمذكرات التي كانت قد أعدتها بعد إطلاعها على سلسلة

من المجلدات التى تحمل عنوان (السودان فى رسائل ومدونات). لقد كان شيئا رائعاً بالنسبة لمارقريت أن تكتشف بأن المواد التى كانت بالصندوق تكّمل بصورة مدهشة المعلومات التى كانت قد جمعتها من قبل.

معظم الوثائق المصاحبة للصور الفوتوغرافية كانت عبارة عن سجلات الدفن بمقابر سواكن في الفترة بين عام ١٨٨٤ وعام ١٩٣٢ .. وكانت تتضمن الأسماء والجنسيات والمهن وأسباب الوفاة. وشيئا فشيئا بدا لنا. وبطريقة غريبة .. وكأن البينات المستقاة من الصور والسجلات قد نفخت الروح، وأعادت الحياة الى الخرائب المهجورة التى كانت تحيط بنا!

وقررنا.. بأنه إذا كان طلابنا غير مدركين لتراثهم المعمارى بسواكن فمن الواجب أن يمنحوا الفرصةليصبحوا أفضل إلماما به. ومن ثم فقد شرعت على الفور في وضع (تمرين) أطلقت عليه اسم (حصار سواكن) ! وقد كان (رتشارد ويك) المدفون فى المقبرة التى تحمل الرقم ٢٠٧ هو الشخصية الرئيسية فى (التمرين).

كان (رتشارد ويك) رساماً ضمن أفراد الهيئة الخاصة بالفنون التصويرية، وكان يبلغ آنذاك من العمر أربعة وعشرين عاما، عندما أصيب بطلق نارى أودى بحياته، وهو يقف قرب الحواجز الواقية من المياه أثناء فترة الحصار الشهير.

بعد إلمامى بهذه المعلومات عن شخصية الفنان (رتشارد ويك)، وبينما كانت (مارقريت) منهمكة فى الرسم.. حاولت الانتقال إلى الماضى على أجنحة الخيال.. إلى سواكن التى كانت قائمة قبل خمسة وسبعين عاما. وكتبت فى مذكراتى شيئا من هذا القبيل:

ترى أية مشاهد ساحرة رأتها عينا (رتشارد).. وأية لوحات غريبة رسمتها ريشته ؟!. سواكن (الابنة الشرعية للبحر).. بجدرانها المرجانية المطلية بالجير الأبيض، وذلك الشارع الذى تشغل معظمه(صالونات الحلاقة)، والحوانيت ذات الزخرفة الرائعة، والمطلية باللونين الأحمر والأخضر، وكذلك حشود التجار والجمال والمساجد والمآذن والقصور.

ولابد أن الفنان (ريتشارد ويك) قد شهد لحظة وصول الجنرال (سارتورياس) مصحوباً بزوجته وربيبته. ولابد أيضا أنه رأى في وجود الناس ما أثاره مظهر المرأة والفتاة الأوروبيتين وهما فى زى القرن التاسع عشر. وغرابة الملابس الانجليزية المبهرجة التى كانتا ترتديانها.

وفى عهد كذلك كانت سفن صاحب الجلالة «WOOD LARK RANKER» وايضا السفينة «CODUETTE» المزودة بالمدافع ترسو جميعها فى الميناء. وربما جعله هذا يقوم بعمل بعض الرسوم لعملية (عرض القوة)، التى كانت تجريها السفن الحربية ليلاً بإطلاق القذائف والتى بدت وكأنها لم تكن للطمأنة، ولكن لإعطاء سبب جديد لبث الذعر بين السكان والجنود المحاصرين داخل المدينة!!

ثم جاء لب (التمرين) وكان على هذا النحو:(تخيل مشهداً من داخل المدينة المحاصرة، وفى ذلك المشهد.. إذا كان ذلك ممكنا.. زوجة وربيبة الجنرال (سارتورياس). أو (تخيل مشهداً آخر تنطلق فيه القذائف على المدينة فى ليلة مقمرة. ثم قم برسم أحد المشهدين).

كنت أعلم بأن طلابنا لن يعوزهم الحصول على المادة المطلوبة للتمرين. فإضافة إلى الرسوم التى أنجزناها والصور الفوتوغرافية التى كانت بحوزتنا فإن بوسعهم العثور على نسخ من الصور الفوتوغرافية التى تظهر فيها بعض السفن الكبيرة التى كانت مستخدمة فى ذلك العهد، وكذلك على عدد وافر من الصور الزيتية التى توضح أزياء السيدات فى القرن التاسع عشر. وهذا فرع من فروع المعمار اعتقدت بحق بأن طلابنا سيجدونه آسرا بالنسبة إليهم!

وعندما تملكّنا التعب دلفنا إلى الغرفة المجاورة وانزلقنا داخل حقائب النوم الخفيفة واضجعنا فى راحة لذيذة على (عناقريبنا)..وهى أسرة ذات تصميم خاص، وتستخدم بصورة واسعة فى جميع أرجاء السودان واستغرقنا سريعا فى النوم. ولا ندرى كم انقضى من الوقت قبل أن يحضر الشبح!!

كان البدر قد اختفى وكنا قد قمنا بإطفاء المصباح فى ذلك الظلام الحالك السواد قبل أن نتأكد من موضع علبة أعواد الثقاب، أو موضع المشعل اليدوى (البطارية). وفى غضون ذلك كان الشبح يذرع المكان جيئة وذهاباً خارج غرفة النوم!!

أخذت أمشى باضطراب فى الظلام، وأنا أحاول العثورعلى الباب لكى أرى... أو لكى لا أرى.. الزائر المتطفل!! وباءت محاولاتى بالفشل... وربما كانت محاولاتى تعوزها الحماسة والجدية! وبدلاً عن ذلك اكتشفت مكان وجودحقيبة نومى، فحشرت نفسى فيها مرة أخرى! ولم يحدث أى شيء

على الإطلاق. ولابد أن النعاس كان قد غلبنا.. وتبخرت كل الأفكار المتعلقة بالأشباح بمجرد أن أطل الصباح البهى بضوئه المشرق..

بعد بضعة أيام كنا نتمشى على رصيف الميناء قرب مرسى المراكب الشراعية.. مارين بخرائب (محلج الاقطان) حتى وقعت أبصارنا عبر البحيرة الضحلة.. بالجانب المواجه.. على بقايا مبنى (النُزُل). وفى الواقع كان هذا المبنى.. ويضم متجراً وورشة.. عبارة عن (خان) لاستقبال وإيواء قوافل الجمال مثل تلك التى ما زلنا نشاهدها حتى اليوم، وهى تشق طريقها إلى البحر الأحمر قادمة من غرب السودان البعيد.

كانت بقايا (النزل) فى ذلك الوقت بحالة حسنة إلى حد ما، برغم أن الكثير من الأبواب، والنوافذ كانت قد اختفت أو تشوهت بفعل البلى. وكانت طوابقه الأربعة لا تزال قائمة!

لم نكتشف بأننا لم نكن وحدنا بالجزيرة إلا بعد أن أمضينا بعض الوقت، ونحن نحدق فى تركيز شديد على تلك الكتلة الضخمة المتداعية التى انعكست صورتها على صفحة البحيرة!

كان مركب صغير ملىء بشباك صيد السمك راسياً فى حافة المياه، وعلى مقربة منه جلس رجل مكتئب استنتجنا بأنه لابد أن يكون صاحب المركب. وألقينا التحية على الرجل باللغة العربية قائلين: السلام عليكم! فرد الرجل التحية ثم أخذ يتحدث معنا بالانجليزية! ... وطلب منا الجلوس معه فجلسنا. وسرعان ماعلمنا بأنه (صياد سمك) من بورتسودان، وقد اقتسم معنا شاكراً ماكان معنا من (الجبن)، ومن ثمار المانجو.. وبعدها استرسل فى سرد حكاية غريبة.

بدأ الرجل يروى كيف أنه وقع صريعا فى بورتسودان فى حب فتاة لم تبادله نفس المشاعر، وباءت بالفشل كل محاولاته لاكتساب ودها. وقد جعله هذا يصاب باليأس فلجأ إلى (ساحر) أو (منجمٍ) بالسوق طالبا منه إعطاءه (وصفة) فعالة تعمل على استمالة قلبها إليه!! وعندها قال له (الساحر): عليك باصطياد خفاش كبير من النوع الآكل للفاكهة.. (وهذا النوع شائع فى بعض المناطق بالسودان).. وتجفيفه بتعريضه لأشعة الشمس ثم (سحنه). وأضاف (الساحر) بأنه سيمزج (المسحوق) النا تج من ذلك .. مقابل مبلغ من المال.. بمادة سحرية معينة من إعداده هو. وكان صائد السمك واثقاً ثقة تامة بعد أن طمأنه (الساحر) من أن الوصفة سوف تحقق الهدف المنشود إذا تم استخدامها كما ينبغى!ولما سألناه عما إذا كان قد قام بتنفيذ ذلك أجاب قائلا: نعم بالطبع. وقد دفعت للساحر مبلغا كبيرا من المال!. ومن نبرات صوته، ومن الكآبة التى كانت تخيم على سيماه استنتجنا بأن الأمور لم تسر على مايرام. ومضى هو لكى يروى لنا ماحدث.

كان الساحر قد أعد بالطبع المادة(السحرية) المعينة وقام بمزجها بالمسحوق. وكان لدينا انطباع بأن(المادة) التى أعدت على ذلك النحو.. لابد أن تكون لزجة ومقرفة، وذات رائحة كريهة إلى حد ما وكان (الساحر) عندما قدم (العلبة) المحتوية على (المادة) للصياد قد حذره من أن تأثير المادة القوى لن يقتصر على إغواء الفتاة وحدها.. إذ أن أى (شخص)يلامس تلك المادة سوف يقع فى حبه بجنون!!

اعتاد الصياد دائما على الإعلان عن وصوله إلى منزل (فتاته) بقرع الباب قرعا متكررا معينا.. كانت الفتاة تميزه. وبرغم أنها كانت تكبح جماح حبها بعناد صارم بحيث لا يبدو منها أى تجاوب فإنها فى كل مرة كانت تقوم بفتح الباب لدى سماعها لذلك القرع! وفى ذلك اليوم كان الصياد فى قمة الانفعال بسبب توقع ماسوف يحدث. وقد جعله هذا غير قادر على الانتظار إلى أن يحين موعد زيارته المعتاد لمنزل فتاته فى المساء.

دهن الصياد كفيه ومعصميه بمقدار وافر من تلك المادة السوداء اللزجة قبل أن يقرع الباب فى ذلك الصباح (قرعه الإيقاعى) المعتاد. ولكن كانت النتيجة فى هذه المرة هى مغادرته المكان بصورة عاجلة وحاسمة خلافا للمرات السابقة. ويعود السبب فى ذلك إلى حضوره إلى منزل الفتاة فى أول النهار بدلا عن حضوره فى آخره كما كان يفعل دائما.

قرع الصياد الباب ولكن الأمور اتخذت منحى آخر مرعبا. لم تفتح الفتاة الباب، ولكن بدلا عن ذلك انفتح الباب فجأة، وبعنف. ووجد الصياد نفسه أمام خادم عملاق ضخم الجسم! حياه الخادم صائحاً: (السلام عليكم) ! واتبع ذلك بأن أمسك يدى الصياد بكلتا يديه، وأخذ يضغط عليهما بكل قوة حتى ملأت المادة (السحرية) اللزجة يديه وذراعيه!!

أُصيب الصياد برعب هائل عندما تخيل النتيجة المروعة التى سيترتب عليها هذا التصرف وفقاً لتحذير (الساحر) فانطلق هارباً من المكان بأقصى سرعة ولم يتوقف إلا بعد وصوله إلى مركبه ! ولم يجرؤ على العودة إلى هناك مرة ثانية فاتخذ طريقه جنوبا إلى سواكن.

(كان الخادم العملاق بشعاً بحق) فقد أرسل الصياد نظرات مليئة بالكآبة عبر مياه البحيرة الزرقاء وارتعد جسده من الرعب!

قبل أن نفترق اتفقنا مع الصياد على اللقاء مرة أخرى فى اليوم التالى.. وربما لتناول الطعام معا بمبنى المحافظة، ولكن عندما عدنا لم يكن هناك أى أثر للرجل أو لمركبه! ولم توفر لنا الرمال التى لم تكن تحمل آثار أقدام انسان أى دليل يقودنا إلى معرفة الجهة التى توجه إليها!

أمعنا النظر فى البحيرة، وحدقنا بعيدا فى الجانب الخارجى من الميناء حتى دمعت أعيننا من تأثير الضوء الساطع الذى كانت الشمس تنشره على المكان.. ولكن لاشىء ألبتة!

عندما عدنا إلى الخرطوم كان (باسط) فى انتظارنا. ولم نضع وقتا لكى نخبره بأننا رأينا القطط.. وبأننا رغم عدم مشاهدتنا لأى شبح فإننا بالتأكيد سمعنا اقدام وقع أحدهم! واضفنا بأن لدينا أيضا حكاية عن السحر والشعوذة!

أصغى إلينا (باسط) بهدوء.. وأهمل موضوع الشبح ولكنه ركز على قصة (صياد السمك) قائلا: إن كل ما وقع لذلك (الصياد) هو نتيجة لسوء طالعه الذى جعله يستشير دجالاً شريراً. ويقال إن معظم هؤلاء هم من النيجيريين. (كنا نعلم من قبل بأن النيجيريين قد اشتهروا بممارسة السحر للدرجة التى كان بمقدورهم فيها التأثير على نتائج مباريات كرة القدم!!.

واسترسل (باسط) قائلا: ولكن هذه الممارسة تعتبر وثنية ومن ثم يرفضها الإسلام. وبالنسبة للسودانيين فإن من الخزى والعار عندهم التعامل مع فئة الدجالين.

بعد أن أصدر (باسط) حكمه مستخدماً (مصطلحات) قضائية ملائمة.. الحقه بفقرة إضافية استخدم فيها كلاما عاما قال فيه: يحاول المشعوذون بالتهديد إقناع الناس بقواهم السحرية، ولهذا الأسلوب تأثيره (السايكلوجى) الفعال فى النفوس. ولكنى وبكل صدق لا أؤمن بهؤلاء المشعوذين.

واستنتجت .. أنا.. بأن (باسط) إذا كان لايصدق حكاية (وقع أقدام) الشبح فلابد بالطبع ألا يؤمن بوجود الأشباح أصلا. ولدى (باسط) تفسير لمعظم الأشياء.

فجأة ومضت فى ذهن (باسط) فكرة ما فخاطبنى بقوله: ربما يهمك أن تستمع إلى حكاية تتعلق بعمتى! واجبته قائلاً: رائع .. يا (باسط) ..ولكن أترك حكايتك لمرة قادمة فلدى الآن مفاجأة صغيرة لك وللطلاب الآخرين وهى مشاركتكم لنا فى اقتسام شىء من (التاريخ)، ومن جمال مدينة سواكن ! إنه (تمرين)، وقد أطلقت عليه اسم (حصار سواكن).

.. وعندها سلمت نسخة من (التمرين) لكل واحد من الطلاب.

الزائر الغريب الذي اقتحم مكتبي

كان من غير المتوقع أن يحضر إلى مكتبى أى زائر فى ساعات الصباح بين السابعة والتاسعة.. أما أن يندفع أحد الغرباء مقتحما مكتبى فى مثل ذلك الوقت حيث الهدوء، والسكينة، والتركيز فلم يكن واردا على الإطلاق. ولكن رغم كل شيء فإن ذلك هو ماحدث تمامًا فى ذلك الصباح، وفى ذلك اليوم المعين.

كنت أصارع أكواما من (استمارات) الطلاب المرشحين للقبول بكلية المعمار وأنا استنشق رائحة كحول (الميثانول) التى تشربت بها الأوراق أثناء عملية النسخ. وكنت فى تلك اللحظات أعيش حلماً جميلا. ... مفتونا بالإجابات البارعة التي أجاب بها بعض المتقدمين على الأسئلة....

وعلى سبيل المثال كان هناك سؤال يقول: هل لأحد أفراد أسرتك أو أقاربك صلة أو علاقة بمهنة المعمار أوصناعة البناء؟ وكانت إجابة الطالب سيد عبدالله الرضى، والتى خطها بوضوح على هذا النحو: إن صلتى الوحيدة بمهنة المعمار وصناعة البناء هى عيناى هاتان!!

لم أكن منتبهاً لدخول الزائر الغريب لمكتبى . فهو قد برز أمامى فجأة ودون أى مقدمات.. ربما كان سبب عدم انتباهى يعود إلى استغراقى واعجابى بإجابة الرضى، أوإلى الكمية الكبيرة التى استنشقتها من كحول (الميثانول) .وقد يعود ذلك الى الحذاء ذى النعل الأسفنجى السميك الذى كان ينتعله الزائر، والذى لا يحدث أى صوت!!

عندما رفعت رأسى من الأوراق التى أمامى.. وقع بصرى على رجل أوروبى قوى البنيان يرتدى بنطلونا قصيراً فضفاضاً (شورت) يصل إلى أسفل الركبة. وقد خلق ذلك تناقضاً بين اسم البنطلون الذى يسمى (القصير) وحقيقة ماكان يرتديه الرجل!!

أما طريقة ارتدائه القميص فقد قلبت رأسا على عقب الفكرة التى كانت فى رأسى طوال العمر عن ارتداء القمصان بإدخالها فى البنطلون القصير عند الخصر.

كان الرجل يرسل قميصه الفضفاض خارج (الشورت). أما القبعة التى كان يعتمرها، فقد كانت هى الأخرى غريبة ذات حافة كبيرة ناتئة إلى الأمام! وخاطبنى الزائر الغريب قائلاً: اعتقد أنك المسئول عن هذا المبنى.. لقد تركت لنفسى حرية معاينة بعض معروضاتكم!

كان صوت الغريب رقيقاً هادئاً، وكأنه بذلك يلطّف الصورة العدوانية التى خلقها مظهره وملبسه. وقلت فى نفسى ماذا يعنى هذا الرجل؟ أن كلية المعمار ليس لها معرض وليس لها كذلك أى رسومات أو خرائط تحت العرض فى أى مكان آخر...

وومضت فى ذهنى فكرة مضحكة، وهى أنه ليس لدينا شىء نعرضه يستحق الاهتمام والإعجاب أكثر من (ساعى) مكتبنا (داؤود)!!

كان داؤود جالساً أمام الباب، وهو يضع لنفسه طاقية صوفية تقيه زمهرير الشتاء. ومتى ما احتجنا إلى خدماته فإنه يتخلص سريعا من طاقية الصوف ويدخل علينا نشطا تسبقه ابتسامته الدائمة والتى تعدى الآخرين بالابتسام!

وانتبهت على صوت الزائر الغريب: وهو يقول حقيقة كنت أتوقع أن أجد العديد من المومياءات، والقليل من الأوانى الفخارية الأثرية المكسورة!!

وفى هذه اللحظة فقط اتضح لى الأمر بكل جلاء. فقد كان الرجل يعنى بحديثه متحف الآثار القديم، والذى كان مبناه الضخم الجميل يقف.. ولا يزال.. ملاصقاً لمبنى كلية المعمار المتواضع!

إن اعتقاد الرجل بأننى المسؤول عن المتحف جعله يتحدث معى بقدر كبير من اللباقة والحصافة. فلو كان مكانه شخصا آخر لا يتمتع بمثل ما يتمتع به هذا الرجل من قوة الملاحظة ربما كان سيسألنى قائلا: أين سأجد مدير المتحف؟!

وبدأت أميل إلى هذا الرجل المجهول فخاطبته بقولى: دعنا نجلس؛ يبدو أنك من المهتمين بالآثار. وأجاب بنعم.. ،وقد توصلت أنت إلى ذلك من الوقت الذى قضيته بمتحفك!.

واندفع الرجل فى حديث طويل متدفق. وتمنيت أن يتوقف لحظة حتى يمكننى أن أصحح له فكرته الخاطئة عن هويتى. وبعد مضى وقت ليس بالقليل أتيحت لى هذه الفرصة! أوضحت له مهنتى التى من أجلها قدمت لهذه البلاد، وهى أن أعطى ما يمكن أن يفيد منه السودان، وما يمكن أن تتمتع به الخرطوم من مباهج المعمار. ودار الحديث عن المعابد والاهرامات والقباب والتماثيل.

وعندها وجدت نفسى أخاطبه بقولي:(النوبة) بلاد جميلة عليك أن لاتفوتك مشاهدتها. وأجابنى الرجل على الفور:(شىء غريب حقا انك ذكرت النوبة. فهى على وجه التحديد المكان الذى أتحرق لرؤيته. وفى الحقيقة لولا (النوبة) لما كنت هنا!!.

فى ذلك الزمان كان القليل قد بذل للتنقيب وإماطة اللثام عن النفائس الأثرية التى تزخر بها بلاد النوبة، وكان نذر يسير منها قد صور وطبع فى كتب تخلد هذا التاريخ المجيد. وهذا هو ماجعلنى أتعجب من رغبة الرجل الغريب الملحة فى زيارة أرض النوبة. إذ أن مثل هذه الرغبة لاتصدر إلا من رجل له إلمام طيب بتاريخ هذه البلاد.

وكان غريبا حقا أن يتكبد مثل هذا الرجل، الذى لايعلم أى شيء عن النوبة ولم يسمع بها.. عناء قطع مئات الأميال لمشاهدة (النوبة) التى تقع فى ركن قصى من القارة الأفريقية!!

إن السبب الذى جعل ذلك الرجل يتعلق (بالنوبة) دون أن يعلم عنها شيئا لسبب فى غاية الطرافة. فقد رزق الرجل وزوجته طفلا واتفق على تسميته اسما فريداً ومتميزاً وبطريقة فى الاختيار لم يسبقهما إليه أحد.

أحضرا الأطلس الكبير وفتحا عشوائياً إحدى الصفحات ومرا بأيديهما معاً عبر الصفحة دون أن ينظرا إليها ثم توقفا عند نقطة معينة اكتشفا فى ما بعد أنها تحمل إسم (النوبة) وكانت كلمة (النوبة) مبيّنة فى خارطة عنوانها (افريقيا.. شمال خط الإستواء).

وأسميا المولود (نوبى) نسبة الى منطقة (النوبة). ويعتقد الزوجان أن طفلهما لابد أن يكون الوحيد فى العالم الذى يحمل هذا الاسم.. وكان هذا مصدر سعادة لكليهما!!

تحويل مبنى اتحاد الطلاب القـــديـــم إلـــى متحف

كان إحساسى بالرضا يغمرنى وأنا أكاد اختفى داخل الكرسى الوثير الذى كنت أجلس عليه بمكتب السيد حسن البحر المهندس المقيم لجامعة الخرطوم. وكنت على ثقة من أن السيد حسن لابد أن يكون قد ضغط على الزر الكهربائى الخفى واستدعى (الساعى) ذا الجلباب الأبيض الناصع ليحضر لنا أكواب الليمون المثلّج الممتع وأقداح الشاى و(كنكات) القهوة على الصينية الفضية الأنيقة.

واثناء انتظارى لهذه المنعشات كنت استمع فى سعادة إلى شقشقة أعداد لاحصر لها من العصافير التى كانت ترسل انغامها الموسيقية الحلوة فتختلط فى الهواء الساكن مع الأزيز الرتيب الذى كانت تصدره مروحة السقف المعلقة فوق رأسى.

حقيقة.. لقد كانت تلك من اللحظات التى كما تقول أحد التراتيل: (كل مشهد فيها يسر ويُبهج). كان إحساس مريح ينبع من أعماق بعيدة فى نفسى، إذ وجدت اننى بعد اسابيع قليلة من وصولى للسودن أُمارس المعمار عمليا إلى جانب تدريسه بالجامعة.

فقد كلفت بتحويل مبنى اتحاد الطلاب القديم إلى متحف للتاريخ الطبيعى. ولا يدرى سوى الله ماذا كان يشغل ذلك المبنى من قبل. ومن حسن الطالع أن التعديل المطلوب كان ضئيلاً جداً.

وكان مما يبعث على الارتياح أنه لم يكن مطلوباً إزالة المبنى من الوجود. فالمبنى كان طرازاً فريداً فى نوعه.. ليس فى الشكل فقط ولكن فى مادته أيضا.

كانت جدرانه من الحجر المربع المنحوت ذى اللون القرنفلى، وكان سقفه من الأنابيب الفخارية الحمراد. وأحاطت بالمبنى من كل جانب النباتات النضرة، والأشجار المزهرة المتعددة الألوان وقد ميّزه كل ذلك عن بقية مبنى العاصمة المثلثة، ولكن هذا لم يمنع المبنى من التلاؤم والانسجام مع مبانى إدارة الجامعة الجذابة والتى تقع فى الجوار.

كانت المهمة التى أوكل إلّى تنفيذها مهمة محببة. ومما زاد فى قربها إلى نفسى أنها كانت ستجعلنا على اتصال دائم مع حسن البحر. فقد كان حسن صديقا للجميع.. وبدون استثناء وقليلون من الزملاء هم أولئك الذين لا يعرفون عن حسن سوى جانب الموظف الدءوب المنضبط ولايعرفون جانبه الآخر . جانب الانسان الطيب المرح الذى يحب كل الناس والذى يضحك من القلب ويهتز جسده كله ويميل برأسه ذى الشعر الأشيب القصير الى الخلف عندما يصل قمة الانشراح.

خلف مكتب حسن كانت هناك لوحة كبيرة تكاد تغطى كل الجدار.. وكان واضحاً أنها لأحد الفنانين الهواة. كانت هذه اللوحة تلفت انتباهى دائما بلمساتها وخطوطها القاطعة. ولم يكن هناك أدنى شك فى أن هذا الفنان كان يريد ايصال الفكرة التى تملكته واستحوذت على ذهنه إلى الناس.

ولا أنكر أن الفنان رغم قصوره الفنى قد نجح فى ايصال تلك الفكرة كانت اللوحة من بدايتها حتى نهايتها تحكى عن قصة رهيبة وبشعة.

فى جانب من اللوحة كان جنود بيض.. انجليز دون شك.. فى أزياء عسكرية من القرن الماضى يضربون بقسوة رؤوس رجال سود بكعوب البنادق، وفى الجانب الآخر من اللوحة كان الرجال السود قد أثخنوا الجنود البيض بالجراح وأجبروهم على الفرار من المعركة، وقد تلطخت أجسادهم بالدماء والأوحال. وفى وسط اللوحة بين مشهدى العمليتين كانت اسلحة القتال تتكدس وتملأ المكان.

كنت لا أزال جالسا بمكتب حسن البحر أسبح مع ألحان العصافير وأشعة الشمس المتكسرة، والأحاسيس الورودة التى تغمرنى بفيضها، وقد مددت قدمى لابعد مدى وأنا انتعل (مركوبى) البرتغالى الجميل والذى يطلق عليه طلبتى مداعبين أسماء عديدة!

كان حسن يعمل بجهد واضح للفراغ من الأوراق التى أمامه تمهيداً لبدء الحديث عن المهمة التى جئت من أجلها. وكانت اللوحة الزيتية الكبيرة خلف حسن تتوهج وهى تفيض حياة وحركة بكل مافيها من عنف وحقد قديمين.

لم يكن حسن من اولئك الذين يجلسون الساعات الطوال خلف مكاتبهم يؤدون أعمالا روتينية. بل كان مولعاً لحد بعيد بالعمل الميدانى.. وكانت له خبرة لاتضاهى فى عالم المقاولات ولديه ذخيرة وافرة فى هذا المجال. وقد أدخلته هذه الخبرة فى مأزق حقيقى.. اذ قُدِّم له عرض مغر للمشاركة مع أحد المقاولين بخبرته ومهارته لإعداد بعض قنوات الرى لزراعة القطن فى مشروع الجزيرة.

وهنا أطلت سحابة صغيرة فى كبد سمائنا الصافية.. لأننى أعلم جيدا أنه إذا ترك حسن العمل معنا وذهب إلى مشروع الجزيرة؛ فإن الحياة بعده فى الجامعة ستفقد كثيرا من رونقها وغناها. وسنكون نحن أصدقاؤه فى غاية التعاسة.

ولسعادتنا ورغم العرض المغرى الذى قُدِّم فإن حسناً اعتذر عن عدم قبوله وقال: أنه لن يترك الجامعة ولن يتركنا مهما كانت المغريات، وقد كان وبقى حسن معنا بالجامعة.

كان مبنى اتحاد الطلاب القديم من الداخل مظلماً وبارداً نسبيا بسبب نوافذه المغلقة طوال الوقت منعاً للحرارة وأعين المتطفلين! وغطى الغبار كل شيء داخل المبنى.

وكانت المقاعد والمناضد (والعناقريب) المحطمة قد وضعت جميعها فى أُكوام هائلة على الأرض.والمدهش أن عطراً حلوا كان يملأ هذا المكان المهجور! فبين الركام كان يرقد (الحُقْ) إناء العطر الرائع.

لفت نظرى جزء من (الحق) كان قد برز تحت الحطام وأثار فضولى. وعندما تم اخراجه وأُزيل عنه الغبار، وجدت نفسى أمام عمود صغير من الخشب يشبه المغزل مخروطاً بعناية فائقة. وكانوا واضحا أن هذا العمل قد أبدعته يد فنان ذى مقدرات فنية هائلة وعقلية محكومية ومشبَّعة بحب الجمال.

فكما فى الزخارف البارزة بالمعابد اليونانية القديمة كان كل عنصر من عناصر الزخرفة فى (الحُقْ) شيئا مكتملاً وتاماً فى حد ذاته. ومثلما كان

للتقصير والتمويج وربع الدائرة فى الطراز الكلاسيكى للزخرفة نقطة انطلاق ونقطة انتهاء فإننا نجد نفس الشيء فى زخرفة (الحُقْ) مع اتساق محكم دون أى قدر من التنافر.

وبلا أدنى شك فإن هذا الصانع قد أبدع (وحدة انسجام) كانت ستنال رضا واعجاب أكثر النقاد الايطاليين تشددا فى القرن السادس عشر الميلادى!! وكلما بحثنا تحت الركام اكتشفنا بعض الأجزاء المكلمة (للحق).. حتى بلغ العدد فى النهاية ثلاثة أذرع صغيرة مخروطية الشكل وأربعة أكواب خشبية. ومع كل كوب غطاء يحكم قفله.

إننى أبحث عبثا عن الكلمات لأصف هذا الفن الرفيع فلا تسعفنى .. لم يكن من العسير ملاحظة أن الأجزاء كانت تتوافق بيسر مع بعضها وتشكل فى النهاية الجسم الرئيسى (للحق) وقد تفرعت من منتصفه افقياً ثلاثة أذرع صغيرة.. فوق كل ذراع كوب من أكواب العطر. ولم نعثر على الذراع الرابعة فبقى مكانها شاغرا.

كان (الحُقْ) يتألق جمالاً بلونه الذى تكوّنه خطوط حمراء وسوداء وبرتقالية.. وأخيرا... هذا هو (الحق) ! قالها حسن البحر ثم أردف: إن الذى تراه هو (إناء الطيب) عند السودانيين منذ قديم الزمان.

وتحتفظ المرأة السودانية بعطورها فيه تماما مثلما تحتفظ المرأة عندكم فى أوروبا بعطورها داخل تلك القوارير الأنيقة. وكانت هذه (الأوانى) فى الماضى متوافرة بسوق أم درمان. أما الآن.. وأضاف حسن فى أسى فقد أوشكت على الاختفاء!

وتحفظ في (الحُق) عادة تشكيلة منتقاة من العطور. منها أعواد الصندل واللبان والمحلب. وعند تعريض بعضها للنار فإن عطراً آخاذاً ساحراً يفوح منها.

اندفعت مسرعا إلى منزلنا بشارع الجمهورية وأنا أحمل (الحق) بعناية شديدة بين ذراعَيْ مارقريت على الكنز الثمين الذى عثرت عليه مؤخرا!!

وفى صباح اليوم التالى بعد تناولنا لوجبة الفطور بالمنزل سمعنا عبر بستان البرتقال والقريب فروت الذى يفصلنا عن الطريق العام أصوات أياد تصفق. وكانت هذه الطريقة هى الوحيدة فى تلك الأيام لأعلان حضور زائر فى بلد لم يكن قد زُود بعد بأجراس الأبواب!

كان الزوار هم حسن البحر وبصحبته اثنان من معاونيه وكان حسن يحمل طردا صغيرا..مد يده لى بالطرد وهو يقول:(كان (الحُق) غير مكتمل. فهو ينقصه ذراع واحدة ليرتفع عدد الاذرع إلى أربع. لقد كلَّفت أحد الصناع المهرة بخرط هذه الذراع.. وقد صنعها بنفس المواصفات والمقاييس ولكن ربما، ليكون اللون ملائما تماما، وهذه مشكلة بسيطة. فما رقويت وهى فنانة تشكيلية بارعة يمكنها معالجة ذلك دون عناء.)

كان كل واحد من معاونى حسن يحمل طردين صغيرين وهذا مالم نلحظه من قبل. حمل حسن الطرود الأربعة برقة ووضعها بين يدى.. مارقريت وهو يقول: (إنها عطور! والآن يمكنكم أن تضعوها فى الأكواب الأربعة (للحُقْ). كل نوع فى كوب منفرد.

وبالفعل عملنا بفكرة حسن ووضعنا كل نوع من العطور داخل كوب منفصل، ومع كل عطر قصاصة من الورق توضح اسم العطر وطبيعته ومازلنا نحتفظ(بالحق) ومحتوياته حتى اليوم!

رحلة وسط رمال الصحراء حتى الدبة

قبل أن نبدأ رحلتنا الدراسية الى المديرية الشمالية تزودنا إلى جانب أشياء اخرى بخرائط (طوبوغرافية) للمناطق التى كنا سنزورها. وكانت الخرائط التى تحصلنا عليها من مصلحة المساحة السودانية تحمل فى أعلاها كلمات (السودان الانجليزى المصرى) وقد تم إعدادها فى عام ١٩٣٣ اى قبل أكثر من خمسة وعشرين عاما من تاريخ الرحلة.. ولكن رغم هذا البعد الزمنى فإن الخرائط كانت مفيدة لنا ونافعة اذ لاتغيير يذكر يمكن أن يحدث للمعالم الطبيعية لسطح الأرض خلال مثل هذه الفترة.

كانت الخرائط قد أعدت بصورة متقنة حوت الكثير من الوصف والرسومات الدقيقة للمعالم الأرضية من هضاب وأودية وأنهار وغيرها كما أن بعض المواقع على الخرائط كانت عليها تعليقات مقتضبة مثل (لا يوجد ماء فى هذا المكان) أو(لم يتم مسح هذه المنطقة بعد) أو(منطقة غير مأهولة).

إن تولّى مسؤولية اصطحاب خمسة عشر طالبا من طلاب كلية المعمار إلى أماكن جرداء قاحلة كتلك التى تغطيها خرائط المساحة لأمر ليس سهلا على الإطلاق. فزيارة تلك الأماكن على وعورتها وقسوتها كانت جزءا هاماً وضرورياً لدراساتهم ودراساتنا أيضا. وكان لزاما علينا ان نزور ونطلع على بعض المبانى التاريخية الرائعة بشمال السودان وأن- نبحث عن السر الكامن خلف روعتها وجمالها.

كانت البصات والقطارات هى وسائل الترحيل الشائعة بين السودانيين ولكنها لم تدخل أبداً تلك المناطق التى كنا ننوى زيارتها لأنه لم تكن هناك

اى طرق يمكن أن تؤدى إليها. وبسبب ذلك وجدنا ان لامفر.. من أن نستقل الشاحنات الكبيرة. فحتى المركبات القوية المتوافرة لدى وزارة الأشغال» كانت أحيانا مشقة كبرى فى اجتياز تلك المسالك الوعرة.

مجموعتنا كلها كانت تتكون من أربعة وعشرين شخصاً، فإضافة إلى الطلاب الخمسة عشر كانت هناك مارقريت وشخصى وعالمة الجغرافيا البريطانية الأصل آن قراهام. وكانت آن تقوم آنذاك بالتحضير لعمل دراسات عليا بجامعة الخرطوم. وكانت هى(مرشدنا) و(دليلنا) خلال الرحلة! وكان معنا أيضا الطهاة الثلاثة الذين اعارتهم لنا الجامعة والمراسلة الوفى(داؤود).

وبعد دراسة متأنية للخرائط أخذنا نستعد لبدء الرحلة. وكانت مارقريت تتفحص بعناية شديدة جميع (قِرب) المياه المربوطة ربطاً محكماً على جانبى الشاحنتين. وعند اكتشافها لأدنى تسرب للمياه كانت تقوم على الفور باستبدال القرب التى يتسرب منها الماء باخرى سليمة.

كنت آن قراهام تستقل الشاحنة التى فى المقدمة وكانت تتناقش مع السائق دسوقى الأمين عن أماكن توفر المياه. وكان نقاشهما فى هذا الصدد مفيداً لأُبعد حد. فهما لم يخطئا قط فى تحديد مكان وجود الماء فى أى معسكر من المعسكرات التى كنا نقصدها.

بمجرد أن اختفت معالم مدينة أم درمان وجدنا أنفسنا فى سهل انتشرت فيه حشائش صفراء جافة بارتفاع مستوى الخصرممتدة الى الجنوب الغربى. وكان منظرها يشبه بصورة تكاد تكون مطابقة حقلاً من حقول

القمح فى انجلترا وقد جف زرعه بفعل أشعة شمس الصيف التى تسقط فوقه من علو منخفض ثم عصفت به الرياح!.

على الجهة اليمنى من طريقنا كان يقف جبل المرخيات.. وبعد أن اجتزنا ذلك السهل بحشائشه المصفرة العطشى بدأنا ندخل أرضا رملية... وحجرية متموجة كانت الجبال تتخللها فى بعض المواقع. وكان من المدهش حقا أن نتكشف وجود مقهى فى هذا القفر الخالى من البشر ومن كل أثر للحياة.

لم يكن هناك مايدل على أن دابة أومركبة أو انساناً قد مر بهذا الموضع. وكانت للمقهى لافتة قديمة مثبتة في واجهتها مكتوب عليها بحروف عربية باهتة(قهوة عمر الحسن). ودارت فى رؤوسنا اسئلة عديدة.

ترى من هم هؤلاء (الزبائن) الذين يتوقع ارتيادهم لهذا المقهى؟ وما هى الوسيلة التى يمكن أن يستقلوها للوصول اليه؟ أن توقع وصول رواد الى مكان كهذا ليبرهن على مدى التفاؤل المطلق وغير المحدود الذى يتمتع به رجل الأعمال الصغير الذى يملك المقهى!

انتهى اليوم الأول من رحلتنا فى منخفض غير عميق سمى (وادى المقدّم).. وكانت بالوادى مقادير كافية من المياه التى تستخرج من آباربعيدة الغور وهذا هو ماجعل الوادى مكاناً ملائما لتجمع الرعاة وماشيتهم.

بعض الشجيرات والنباتات الصغيرة كانت تنتشر هناوهناك ولكن لمدى محدود. أما بقية الأرض فكانت أرضاً صخرية جرداء لايرى فيها شجر ولا زرع حتى أقصى نقطة فى الأفق البعيد.

عبر الأرض الرملية والصخرية المتموجة والتى أصبحت مألوفة لنا، كنا نشق طريقنا فى اليوم الثانى من الرحلة. وأفضى بنا ذلك الى مساحة من الأرض امتزجت فيها ألوان الصخور المتنوعة مع ألوان الرمل والحصى فنتج عن ذلك المزيج لون يذكِّر المشاهد بأوراق الخوخ!.

وقبل أن يحل المساء نصبنا خيام معسكرنا فى بقعة واسعة ذات أرض منبسطة شديدة الاستواء. ولم يكن يحد من رتابة استوائها سوي .. حفنة من التلال الصغيرة التى كانت تشاهد من البعد بصعوبة على ضوء الشمس الغاربة! وكان هذا الموقع وسط الصحراء مثيرة للرهبة يسودها صمت وعزلة كاملان.. وهناك اكتشفت مارقريت المسؤولة عن توزيع الماء أن استهلاكنا من المياه كان أكثر من المتوقع. وعندها كان لابد لطلابنا من التيمم بدلا من الوضوء لتوفير الماء للشرب.

وكان حسن بدوى وهو من أكثر طلابنا ورعاً وتقوى يحرص على الوضوء فى كل ليلة بقدر ضئيل جداً من الماء قبل أن يخلد إلى النوم ويسلم أمره إلى حفظ الله ورعايته.

ولأن الطلاب لم يألفوا المبيت داخل خيام فى مثل ذلك الجو البارد فقد تدثروا بعدد كبير من (البطاطين). بطانية فوق أُخرى، ولم يكتف بعضهم بذلك فقام بالإغارة على الشاحنتين وأخذ أى شئ ينفع كدثار! وفى الصباح أخبرنى الطالب محمد محمود حمدى أن موجة البرد جعلتهم يثرثون طوال الليل متناولين شتى المواضيع دون أن يعرف النوم إلى جفونهم سبيلا.. وكان من ين ماقالوه أن عالمة الجغرافيا البريطانية آن قراهام كفتاة لهى مقدامة وشجاعة لحد بعيد فقد أمضت ليلتها خارج الخيام وتحت النجوم مباشرة.

كان ذلك الصباح هو صباح اليوم الثالث لرحلتنا وكنا قد قضينا ليلتنا وسط الصحراء تلفها الرهبة ويكتنفها الصمت والسكون.. وأعد لنا الطهاة الثلاثة سليمان وصالح ومحمد طعاماً شهياً تناولناه بتلذذ ومتعة ثم استأنفنا رحلتنا بعد ذلك.

كنا كلما توغلنا شمالاً زادت نسبة الرمال الناعمة وغير الثابتة والتى كانت عجلات الشاحنتين تغوص فيها وتتوقف تماما عن الحركة.. وهنا تبدأ عملية الحفر والدفع وازاحة الرمال وماكينتا الشاحنتين تدوران بقوة دون أن تتقدما خطوة واحدة إلى الأمام.

ورغم أن السائقين دسوقى وآدم ومحمد قد أظهروا مهارة واضحة.. فى اختيار الطرق المناسبة وسط هذه المنطقة ذات الرمال (الغادرة) فإننا كنا نحتاج فى كثير من الأحيان إلى سواعد كل أفراد المجموعة لإخراج الشاحنتين من المواقع الأكثر صعوبة..

عندما بلغنا الدبة كان النهر العظيم قد أُنهكه التعرج والتنقل من الشرق إلى الغرب فاستأنف انسيابه فى خط مستقيم شمالاً صوب البحر الأبيض المتوسط على بعد ألف ميل وعلى مسافة أطول من تلك إذا كان القياس بالأميال البحرية.

كان للقرى التى تقع بجوار النهر فى هذه المنطقة طابعاً فى التشييد، يثير اهتمام المشتغلين بالمعمار. وعلى سبيل المثال وجدنا ان الأسواق كانت تتكون من أُعمدة مطلية باللون الأبيض اسنقر فوقها سقف من الألواح الخشبية الموضوعة فى شكل أفقى.

وكانت القباب مبنية من الطين أو الطوب الأحمر وكانت لبعضها أضلع ذات تصميم هندسي غريب. أما مآذن المساجد فكانت تتميز بأشكال معمارية جميلة ومتنوعة.

وبقرب هذه المنطقة أيضا كانت تنتصب كنيسة دنقلا العجوز المقامة على صخرة عالية ومنعزلة. ويبدو أن جدران الكنيسة الضخمة والمنحدرة الى الخلف قد نحتت من نفس الصخرة التي تقف عليها منذ نحو اثنى عشر قرنا خلت!

كان ذلك أول اتصال مباشر لنا مع المباني التي جئنا اصلا لمشاهدتها ومع الأخرى التي لم نكن نتوقع وجودها. وكان السرور بادياً على وجوه طلابنا وهم يرسمون المباني باهتمام كبير ليسجلوا على الورق اكتشافاتهم المثيرة..

ولم يكن أحد يلقى بالاً للمصاعب الثانوية مثل لمعان الأوراق المزعج تحت أشعة الشمس الساطعة أو الجلوس الشاق على ركبة واحدة، والرسم فوق الركبة الأخرى أو اتساخ الأوراق والرسومات بالتراب وذرات الرمل. فقد كانت مثل هذه المصاعب الصغيرة تُزال علي الفور بضحكة صافية صادرة من القلب. وبرزت رغبة جماعية عند الطلاب بإقامة معرض كبير لهذه الرسومات بعد العودة للخرطوم.

في إحدى القرى وجدنا الأهالي يضعون على رؤوسهم أقنعة غريبة من قماش شفاف تغطى وجوههم وتتدلى حتى تصل الى أسافل أعناقهم وتجعل من المتعذر تبين ملامحهم من خلال ذلك النسيج وزاد بعضهم فى غموض ورهبة تلك الأقنعة بصبغها باللون الأحمر أو الأخضر!

كانت موجات هذه الحشرة تملأ كل الفتحات التى فى وجه الانسان. العينين والأذنين والأنف والفم. وبعد أن تبين لنا بجلاء ووضوح الغرض من ارتداء هذه الأقنعة قمنا بدورنا بطلب عدد منها لكل أفراد الفريق. وحمتنا الأقنعة من هذه الحشرات المزعجة ولكنها جعلتنا لانسمع بعضنا البعض بوضوح ولانميز الشخص الذى كنا نتحدث إليه!!

واكتسب المكان من خلال الأقنعة لوناً مثيراً وغريباً وفى ماعدا ذلك فإن مشاكل ارتداء القناع كانت قليلة، وخاصة بعد أن برعنا فى فن رفع القناع من الأمام مع كل لقمة عند تناولنا للطعام!!

كان الموقع الذى وقع اختيارنا عليه ليكون مقراً لمعسكرنا يرقد تحت أقدام اهرامات نورى ذات الأبهة والفخامة. وكان وصولنا للمكان مع بداية حلول الظلام. وكانت الأهرامات العملاقة تبدو متشحة بالسواد قبالة... سماء كان ضوء النهار قد انسحب منها قبل قليل أمام زحف بدر مكتمل النمو.

كان الموكب المهيب للبدر يشق طريقه وسط جموع حاشدة من النجوم التى كانت تتوهج فى روعة لايمكن أن يرقى إليها خيال سكان المدن!!

حولنا وتحتنا دون شك كانت ترقد رفات اولئك الذين أنشأوا (نبتة) أقدم عاصمة لأقدم مملكة عرفها السودان والتى كان الملوك السودانيون يحكمون منها النوبة وكل مصر منذ حوالى سبعة قرون قبل الميلاد..

إن المكان الذى نقف فوقه كان ذات يوم قلب المملكة النابض بالحياة وبالبشر وقد أصبح الآن مدينة هائلة للموتى.. لاشىء فيها سوى الرفات! وسيطر ذكر الموت والموتى على تفكير المراسلة (داؤود) بصورة جعلته يرتعد ويبلغ منه التوتر مبلغاً عظيما خوفا من ظهور الأشباح! ولم تمكن تهدئته إلا بعد اعطائه جرعة مضاعفة من (الأسبرو) والذى يحمل طلابنا دائما كميات كبيرة منه!!

مارقريت وأنا كنا قد ألفنا فى ذلك الوقت إحدى العادات النبيلة التى طبع السودانيون عليها ويجدون سعادة عظيمة عند ممارستها وتنبنى هذه العادة أساسا على تأدية خدمة (مستحيلة) دون أن يطلب أحد منهم ذلك وفى فترة زمنية وجيزة لايمكن تصديقها! وهذه الخدمة يمكن أن تأخذ ألف شكل وشكل وفقاً للظروف..

وقدم لنا السيد عبدالله ممثل الحكومة فى إقليم (نبتة) نموذجا رائعا لهذا المظهر القومى السودانى المحبب. جئنا اليه فجأة ودون سابق اخطار أو موعد طالبين منه ونحن نعتذر أن يتيح لنا الفرصة لمشاهدة متحف مروى الصغير الذى كان مغلقا فى ذلك الوقت..

.. طيّب الرجل خواطرنا وضحك فى ود ليجنبنا الاحراج وقام على الفور بفتح المتحف واطلاعنا على محتوياته القيمة..

لم يكتف السيد عبدالله بذلك بل أمدنا بسرعة فائقة- ولا ندرى من أين- بمركب كبير لنعبر فوقه مع أصغر شاحنتينا إلى الضفة الشرقية للنيل. وكان أى تعليق منا بأننا ربما نغرق مركبه يتسبب فى انفجارات متتالية من الضحك. كانت روح المرح الطفولى التى يتمتع بها السيد عبدالله تلائم

طبيعتى تماما. وفى الحال انتقلت عدوى الضحك إلى بقية الفريق فكنا نجيب على كل قهقهة بقهقهة مثلها!

لحسن الحظ كان احتمال الخطر ضيئلا. فلو حدثت (الكارثة) بأن يغرق المركب... فإن ذلك كان سيقع قبل أن نتوغل داخل المياه العميقة. ومضى كل شيء على أفضل وجه. قام دسوقى بقيادة الشاحنة بطريقته الواثقة التى لاتخطىء إلى متن المركب. ولحسن الحظ أيضا استطاع دسوقى رغم تخلصه من (القناع) الواقى من الحشرات أن ينجز المهمة بنجاح وأن نشق طريقنا إلى الضفة الشرقية فى سلام.

اعتقد أن المقهى الذى يعنيه البروفسور (أليك) هو (مقهى أُم الحسن) وليس عمر الحسن! ويقع هذا المقهى فى نفس المكان الذى ورد وصفه على مسافة عدة كيلومترات شمالى أم درمان ويرتاده المسافرون بالبصات والشاحنات إلى دنقلا والمدن والقرى التى تقع جنوبيها.

عندما مر (أليك) وطلابه بالمقهى كان ذلك فى عام ١٩٥٨ وكان الطريق آنذاك غير مطروق إلا لأعداد محدودة جدا من الشاحنات لاتكاد تترك أثراً على الأرض.وهذا هو ماجعلهم يندهشون لوجود مقهى فى ذلك الموقع. أما الآن فإن عشرات البصات والشاحنات تمر بالمقهى يوميا وهى تقل مئات المسافرين الذين يمتلىء بهم المقهى ويفيض!.

الحشرة هى حشرة (النمتى) وكانت قبل سنوات منتشرة بصورة وبائية فى تلك المناطق وحتى أقاصى شمال السودان وكانت تشكل كابوساً مزعجاً للناس والدواب على حد سواء. وبعد استعمال مبيدات معينة أمكن القضاء عليها تقريباً وصارت الآن لاتتسبب فى اية مضايقات تذكر.

السفر عبر الصحراء النوبية

مازلت أذكر أول رحلة لنا بالقطار إلى وادى حلفا.، كان ذلك قبل أكثر من ربع قرن. بعد أن اجتاز القطار جسر النيل الأزرق واتجه شمالا لفتت انتباهنا بين حين وآخر تلك الأعواد الطويلة المغروسة فى الأرض والتى تحمل فى أعلاها رايات صغيرة متعددة.

لقد كانت تلك الأعواد براياتها المرفرفة تبدو فى الصحراء المترامية الأطراف كأشباح هزيلة تتراقص فى الفضاء! وكانت المسافات التى تفصل بين المناطق المأهولة شاسعة ومتناهية فى البعد.

وعندما دخلنا (الصحراء النوبية) كنا نمتع أبصارنا بجمالها، وروعتها وبذلك البحر اللانهائى من الرمال، وقد تناثرت فوقه جزر الصخور الزرقاء الساحرة. كنا نشاهد كل ذلك من نوافذ عربة الطعام ذات الطابع (الادواردى) المريح والتابعة لسكك حديد السودان!![1]

وبعد أن قطع القطار مايقرب من الستمائة ميل أصبحنا على مشارف وادى حلفا.. وبدت لنا مدافن المدينة مختلفة عن مثيلاتها فى بداية رحلتنا. لم تكن هناك أعواد تحمل فى أعلاها الرايات.. ولكن كانت هنالك هضبات صغيرة من التراب فوق القبور مغطاة بالحصى.، وعند موضع الرأس والقدمين كان هناك عود صغير مغروسا فى الأرض وآنية خزفية جميلة مملؤة بالماء!

---

(١) إن صفة الادواردية هذه يقصد بها المؤلف فيما يبدو فترة حكم ادوارد السابع لانجلترا (١٩٠١-١٩١٠) والتى كانت تعتبر فترة ازدهار ورفاهية!!

كانت وجهتنا (سمنة شرق) التى تبعد حوالى أربعين ميلا جنوبى وادى حلفا. وأمدنا السيد حسن دفع الله مفتش المركز آنذاك بسيارة (لاندروفر) كانت خير عون لنا فى تجوالنا. وعلى مسافة حوالى نصف ميل فى نهاية منخفض رمى لاحت لنا قلعة عالية مبنية بالقرميد ومعبد مهيب مشيد بالحجارة. وقدنا السيارة فوق رمال ثابتة حتى وصلنا إلى المنخفض.، ومن ثم أخذنا فى التسلق حتى بلغنا القمة.

كان أمامنا مشهد مثير للغاية. كانت الفعلة الهائلة التى شيدت قبل حوالى أربعة آلاف عام تقف شامخة وصورتها الجانبية تشبه تلك الصور (المُسْلوته) السوداء التى تُنفّذ بالمقص! وهناك أسفل الموقع كانت المياه الفضية لنهر النيل تصطخب وتُزيد عند ارتطامها بالصخور الملساء ذات اللون الأسمر.

وحان موعد وجبةالغداء فكان أنسب مكان لتناولها، هو داخل المعبد فقد ملئت جدرانه بعشرات النقوش والرسوم التى تصور أنواعا مغرية من المأكولات والمشروبات والتى كانت تبدو أكثر اثارة للشهية من تلكم (السندوتشات) التى كنا نتناولها!!

كان من بين تلك الرسوم المحفورة فى الجدران ذات اللون الأصفر الشاحب رسم لدجاجة مكتنزة أخرجت لتوها من الفرن! وكانت أيدى الرجال المنحوتين فى الصخر منذ آلاف السنين ممتدة إلى هذه المآكل اللذيذة كأنها تحاول الوصول إليها! وكان جميع أولئك الرجال يتخذون الأشكال الجانبية.. ذلك الأسلوب فى النحت الذى كان هو المفضل عند المثَّال المصرى القديم..

بعد وصولنا إلى وادى حلفا كنت أتمشى ليلا مع مارقريت فى شوارع المدينة ذات الاضاءة الخافتة بعدتناولنا وجبة عشاء دسمة من أسماك النيل.. وفجأة أحسست بدوار يداهمنى وبأن الشارع أخذ يبدو أكثر اتساعا وبأن جدران المنازل على الجانبين أخذت فى الانكماش والتقُّلص وأنا أحاول الاستناد عليها!!

كان مشهد مدينة حلفا فى تلك الأُمسية غريباً وغير مألوف.. إذا كان أشبه مايكون بلوحة تشكيلية شديدة الغموض وجاءنى صوت مارقريت فى تلك اللحظات مشحوناً بالتوتر والقلق:

أخشى أن يكون ماتعانيه هو نتيجة لتناولك طعاما!

وتكررت نوبات الدوار يوما بعد الآخر، وأحيانا ساعة بعد أخرى.. وكنا آنذاك بالقاهرة. وبرغم تكرار نوبات الدوار قررنا مواصلة السفر جواً إلى أثينا. حيث كان الهدف الأساسى من رحلتنا هو مشاهدة كنوز المعمار الإسلامى فى (ISFAHAN) وهناك زادت حدة نوبات الدوار فقالت (مارقريت) فى تصميم:

أرى أنه من الأفضل مواصلة السفر إلى لندن بأسرع مايمكن.

وقد كان. وهناك بذل طبيب بريطانى كبير جهودا مضنية حتى شفيت تماما مما أصابنى.، وانقضى الشهر الذى كان قد حدده الطبيب لشفائى فعدنا إلى السودان حيث تواصل الحياة فى الخرطوم ايقاعها المتميز المعتاد... اجتماعات اللجان التى لانهاية لها ومتعة القاء المحاضرات فى ساعات الصباح الأولى تحت أشجار الفريب فروت. وتناول وجبة الفطور فى (غابة السنط) ومراجعة وتصحيح الخرائط والرسومات.

وفى المساء وبعد أن يفرغ الطلاب من العشاء.. يعزف عمر الأقرع على العود أنغاما حلوة.، ويغنى الأمين مدثر بصوته (التينور) [1] أغنيات عاطفية عذبة.، ويقدم بولس صليب بهدوئه المعهود . ولدهشتنا .. نشيدا حماسيا عنوانه (لتحيا مصر وليحيا السودان).

وبعد مضى عام كامل من اصابتى بذلك الداء الغامض كنت ضمن عدد من المدعوين على مائدة السفير البريطانى بالخرطوم. وكان بين الحضور شخص لم أتبين وجهه تماماً إلا بعدحين. لقد كان الشخص هو: الطبيب البريطانى الكبير الذى تولى علاجى من المرض الغريب. كان يدو شاحباً ومنطوياً على نفسه. لقد تبادلنا المواقع بكل تأكيد!

وكما سافرت أنا إلى المملكة المتحدة طلبا للعلاج فقد قدم هو إلى السودان سالكا الطريق المضاد لينعم ويستشفى بشمس السودان الساطعة أبدا.. ولكن وبكل أسف فإنه لم يحظ باسترداد عافيته.

وذات يوم وأنا جالس تحت أشجار البرتقال بمنزلى، وبعد أسابيع قليلة من لقائى بالطبيب الانجليزى الكبير على مائدة السفير البريطانى إذ بى اطالع نعيه فى (طبعة التايمز) لما وراء البحار.

وهكذا.. يدو أن الكلمة الأخيرة قد قيلت فى هذه الحكاية الصغيرة عن اثنين من المسافرين اللذين كانا يتجولان حول النيل باحثين عن الصحة!!

---

(١) التينور أوسط الأصوات وأقدرها على التنغيم والتلوين وطبيعته خفيفة رنانة وحركته سريعة.. حسبما جاء فى كتاب (فن الالقاء) لعبد الوارث عسر صفحة (١٠٢).

العودة إلى السودان بدعوة من طلابنا

فى شتاء عام ١٩٧٨ وجه عدد من طلابى السابقين بقسم المعمار الدعوة إلى مارقريت وشخصى؛ لزيارة السودان وبأن نكون ضيوفهم فى فترة إقامتنا بينهم.. وكان ذلك بعدمضى أكثر من عشرين عاما، على تأسيس الكلية.ولايمكن لأى إنسان لا يعرف السودانيين معرفة حقة أن يتصور ماتتضمنه لفظة (دعوة) فى عرفهم وماتعنيه كلمة (ضيافة) فى قاموسهم. ولم يكن بوسعنا إلا أن نلبى الدعوة.

وفى الساعات الأولى من ذلك اليوم.. الثلاثين من نوفمبر عام ١٩٧٨.. وبالتحديد فى الخامسة صباحا هبطت طائرتنا على أرض مطار الخرطوم. وكنا لانزال نرتدى ستراتنا الثقيلة بقلنسواتها.. والتى كنا نتقى بها زمهرير الشتاء الانجليزى عندما قدمت لكل منا قائمة مطبوعة بعناية على الآلة الكاتبة وهى تحوى برامج الدعوات المختلفة وأماكنها.

كان الطقس فى الخرطوم حاراً فى ذلك الصباح.، رغم حلول فصل الشتاء.. مما جعلنا نقرأ البرنامج بصعوبة من خلال عيوننا الملتهبة بالعرق. كانت القائمة طويلة وزاخرة بالعديد من الدعوات. حفلات استقبال وغداء وعشاء، ونزهة نيلية على سطح باخرة استؤجرت خصيصا من أجلنا.، ورحلات خلوية لجبال فى أطراف العاصمة وجولات فى بعض مزارع الفاكهة وزيارة لمتحف السودان القومى، وعدد كبير من حفلات الشاى.

لم يكن تشييد متحف السودان القومى قد قطع شوطاً بعيداً عند مغادرتنا للسودان فى عام ١٩٦٣ .. ورغم انه لم يكتمل فى ذلك الوقت إلا

أن القدر الذى انجز منه كان كافيا لكى يجعلنا نميزه بسهولة بمجرد أن وقعت أنظارنا عليه.

كان المشهد الخارجى للمتحف رائعاً الى حد بعيد، وهو يشمخ على شاطىء النيل الأزرق على مسافة غير بعيدة من جسر النيل الأبيض العتيق.

من بين الكنوز النفيسة التى يضمها المتحف كانت تلك اللوحات (الجصّية) الفريدة التى كانت مرسومة على جدران الكنائس النوبية المسيحية فى الفترة من القرن الثامن وحتى القرن الحادى عشر.. وقد رفعت من الجدران حتى لاتغمرها مياه النيل عند اكتمال بناء السد العالى.

ومثل كل اللوحات الجدارية (البيزنطية) كانت اللوحات غنية ومترفة فى رسمها وفى تلوينها. وقد اكتشفنا فى بعض الأشكال التى باللوحات لمسات إنسانية واضحة لم نجد مثيلاً لها فى أى مكان اخر.

ورغم أن أكثر محتويات المتحف كانت فاتنة وساحرة.، إلا أن قمة سعادتنا اكتملت عندما التقينا فى ساحة المتحف بأحد (معارفنا) القدامى وهو يحتل مكانه الدائم فى الحديقة المحيطة بالمبنى..إنه معبد سمنة شرق ولا أحد سواه!!وكنا قد رأينا المعبد لأول مرة قبل أعوام فى موقعه الأصلى قبل أن يتم نقله إلى هنا، واعجبناايما اعجاب باللوحات التى بداخله .

لم يكن هناك وجه للمقارنة ين موقعه الحالى المتواضع، وبين موقعه القديم فوق صخرة عالية تصطخب تحت قدميها مياه النيل فى عنف بفعل الشلالات الهادرة. ولكن مايعزّى النفس أن المعبد قد انقذ ولم يكن مصيره مثل مصير الصخرة الهائلة التى كان يقف عليها أو مصير القلعة الرهيبة

التى كنت تجاوره والتى شيدها الملك (سنسرت) الثالث وقد غمرتهما المياه بعد قيام السد العالى واختفتا الى الأبد فى جوف النيل.

وتذكر الكتابات المنقوشة على اللوحة الحجرية بالقلعة، وهى من اعداد المكتشفين الأثريين (البرت تومكنز) و (أميليا ادواردز) أن الملك (سنسرت) الثالث كان رجلا فظاً وقاسياً لم يتورع عن الاستيلاء عنوة على الأموال والممتلكات والنساء والأرقاء. ولم يكتف بذلك فكان يخرب ويدمر ابار الماء ويحرق المحاصيل والمزارع!!

قضينا أسبوعين كاملين بالخرطوم كنا محاطين خلالهما من طلابنا الأوفياء بكل ألوان الكرم الفياض وحسن الوفادة. وفى نهاية فترة اقامتنا جاء الحفل الذى لايمكن أن ينمحى من الذاكرة أبدا.

جلسنا جميعنا على موائد مستطيلة رصت على شكل حرف (يو) بالأنجليزية. وعلى مدى ساعتين كنا نتحدث ونحن نلتهم مقادير من الكيك الشهى والبسكويت الفاخر والفاكهة الطازجة والبيبسى كولا والقهوة والشاى.

وعندما بدأت الخفافيش فى الطيران على علو منخفض وهى تتخبط فوق رؤوسنا وقف طالب المعمار السابق والدكتور حاليا عبدالحليم عوض وهو يمسك بإحدى يديه طرداً صغيراً وباليد الأخرى(مايكرفونا) كان موضوعا على المائدة منذ بداية الحفل..

لا استطيع أن أتذكر كل ماقاله حليم عوض.، وهو يقدم الهدية فقد كنت فى غاية التأثر فى تلك اللحظات. ولكن ما لايمكن أن أنساه هو صوته الذى كان مليئاً بعاطفة صادقة. وبمشاعر ودية يستعصى وصفها.

بدأت فى فض الطرد الذى كان مغلّفاً بورق أخضر ناعم وجميل لأجد بداخله لوحة حجرية أنيقة عليها رسم جانبى بارز لشخص يقف رافعاً كلتا يديه. ولم تكن اللوحة غريبة بالنسبة إلّى. وبجانب اللوحة وجدت بطاقة صغيرة تحمل هذه الكلمات: (هذه اللوحة مهداة من جميع طلاب المعمار السودانيين الى البروفسور جون الكسندر بوتر منشىء ومؤسس قسم المعمار بجامعة الخرطوم بمناسبة زيارته للسودان بصحبة زوجته السيدة مارقريت خلال الفترة من ٣٠ نوفمبر وحتى ١٦ ديسمبر من عام١٩٧٨).

وكانت اللوحة المهداة صورة طبق الأصل من اللوحة الأصلية المنحوتة على البحر الرملى عند مدخل بوابة (سمنة شرق). وتمثلّ اللوحة رسما للمعمارى الذى قام بتصميم المعبد، والذى يعتبره السودانيون (معماريهم) الأول.. حيث كان يمارس مهنة المعمار قبل حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة عام!

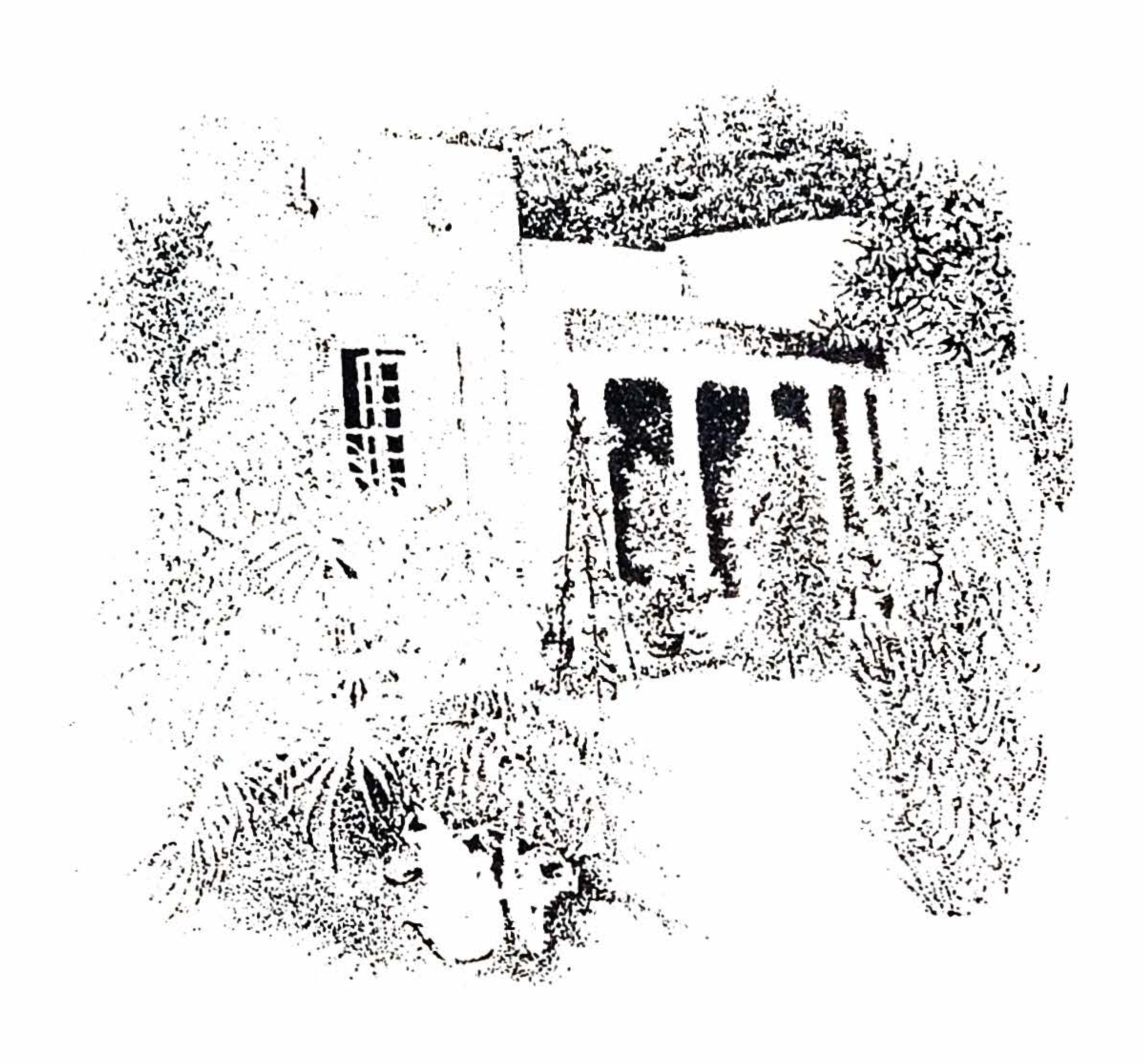


صورة جانبية للمعمارى السودانى

الأول الذى عاش قبل ٣٥ سنة والذى صمم معبد سمنة شرق» .



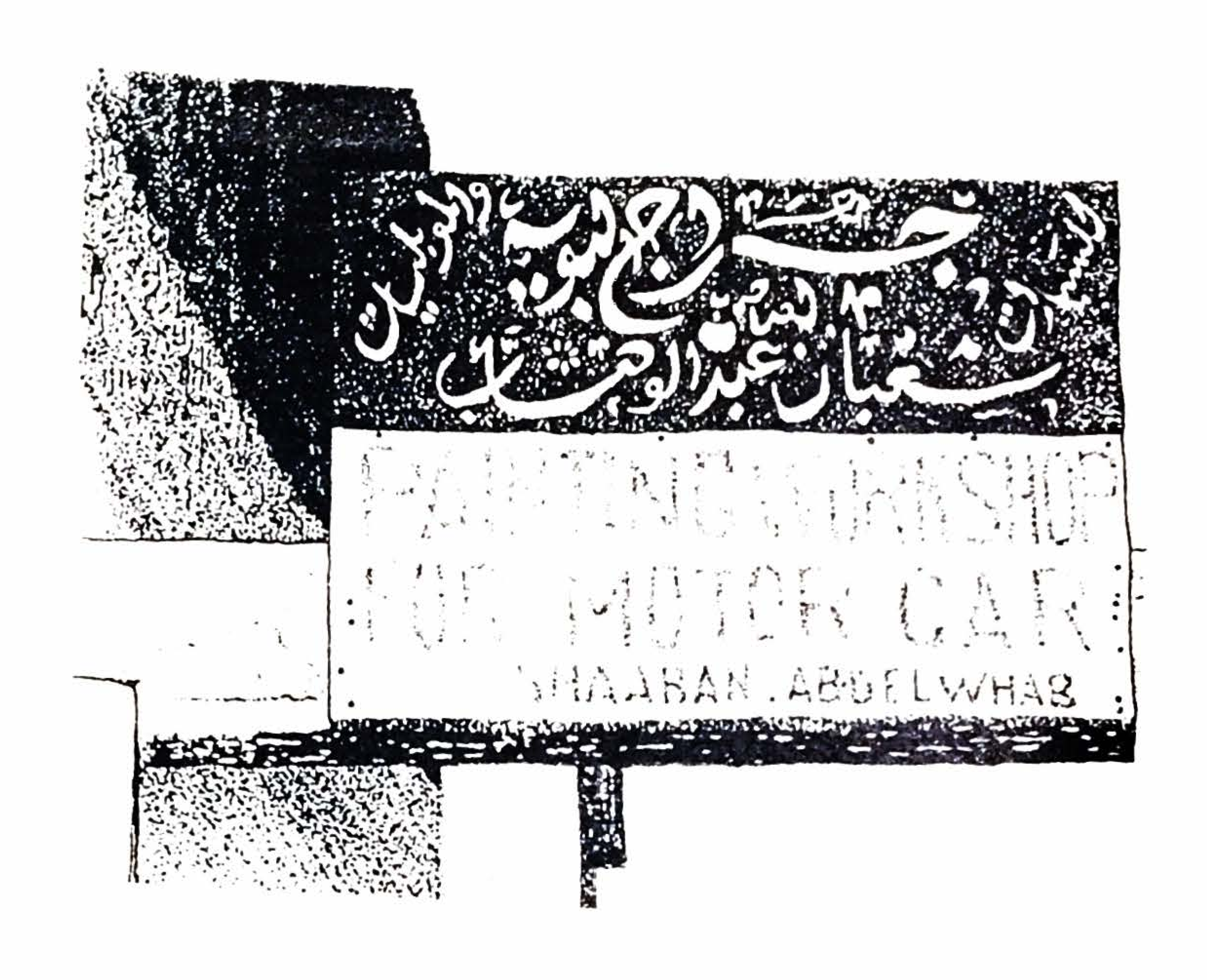
السراية الصفراء حيث كان يقيم آل بوتر عند أول قدومهم للسودان.



مسكن آل بوتر الأخير ١٧ شارع الجمهورية



لافتة صالة عرض بومبى بازار للسجاد والأبسطة



لافتة جراج شعبان لطلاء السيارات



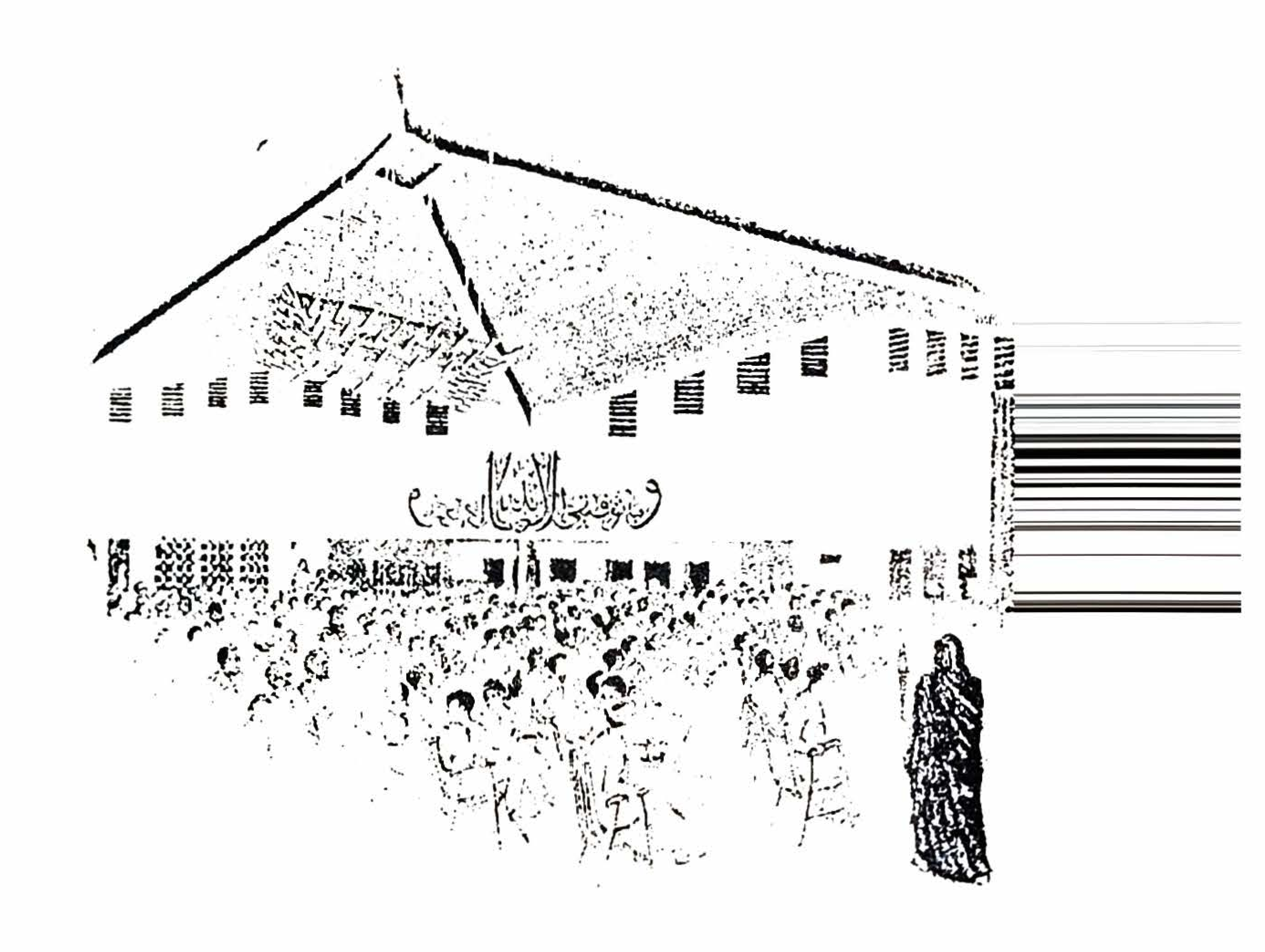
لافتة لمصنع موبليات خيزران بالخرطوم



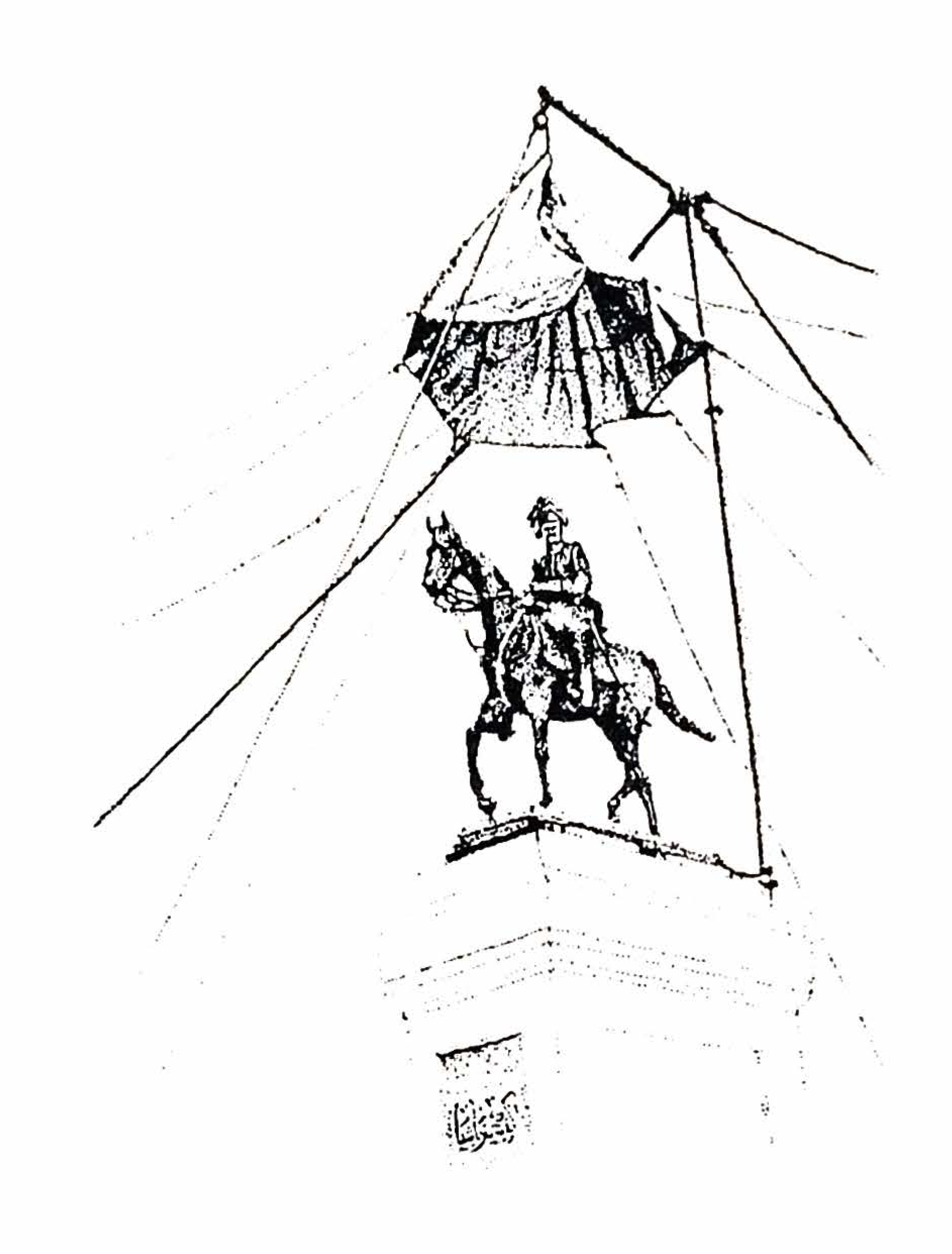
مار قريت داخل مسجد بتركيا وهى تنقل
على الورق بعض الخطوط الموجودة بداخله



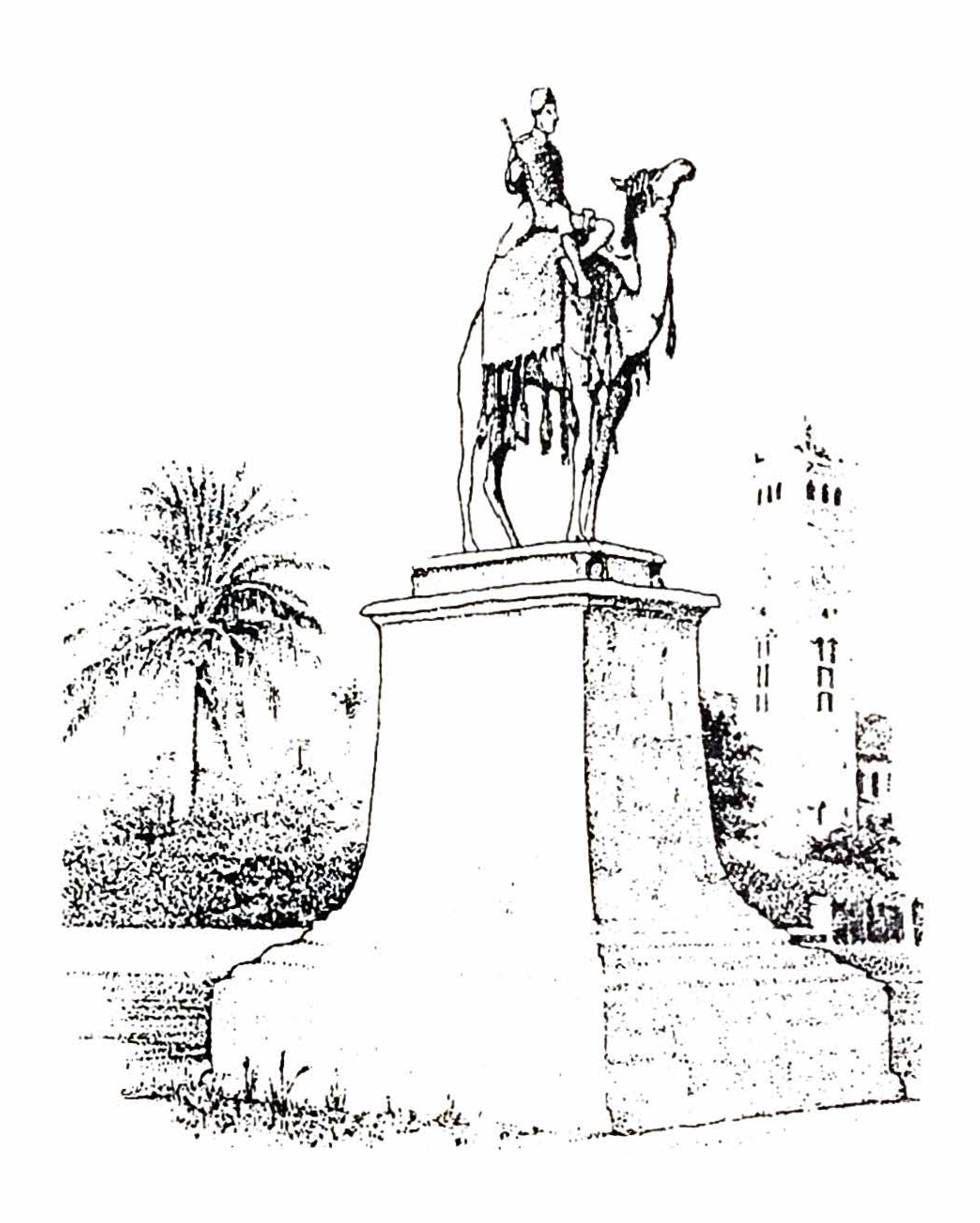
مبنى جامعة الخرطوم



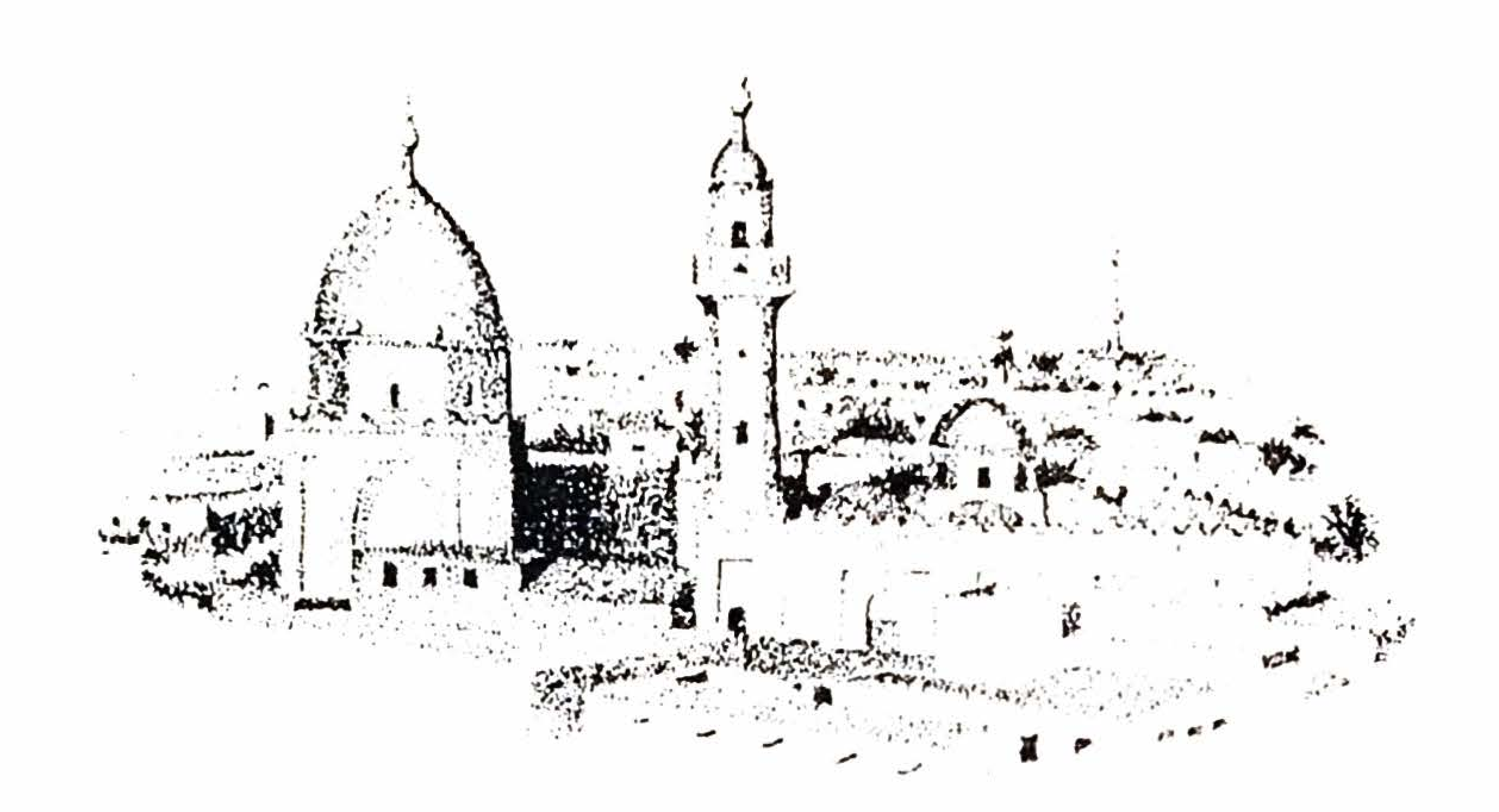
قاعة الامتحانات بجامعة الخرطوم من الداخل
عشية افتتاحها للمرة الأولى.



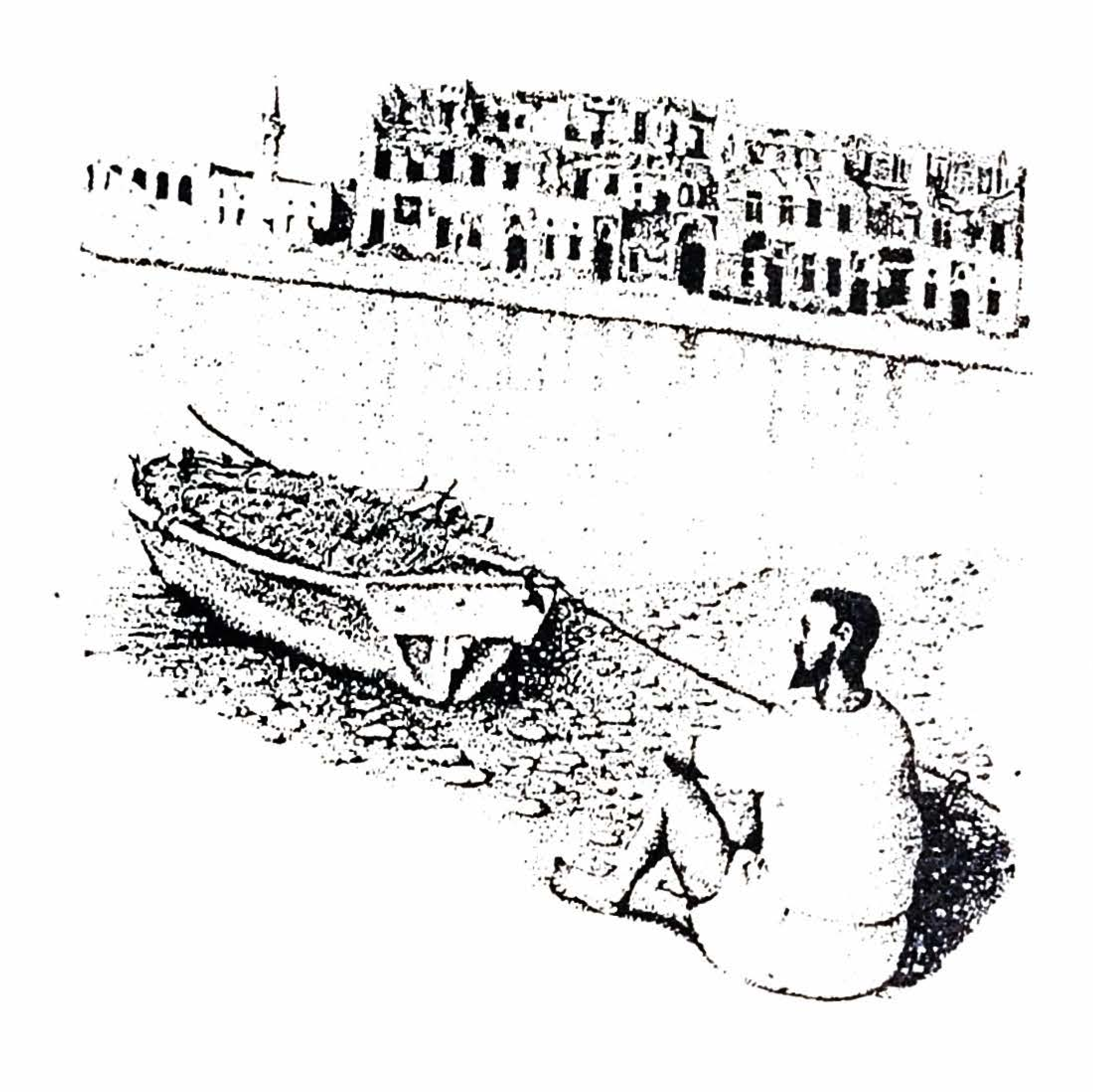
تمثال كتشنر



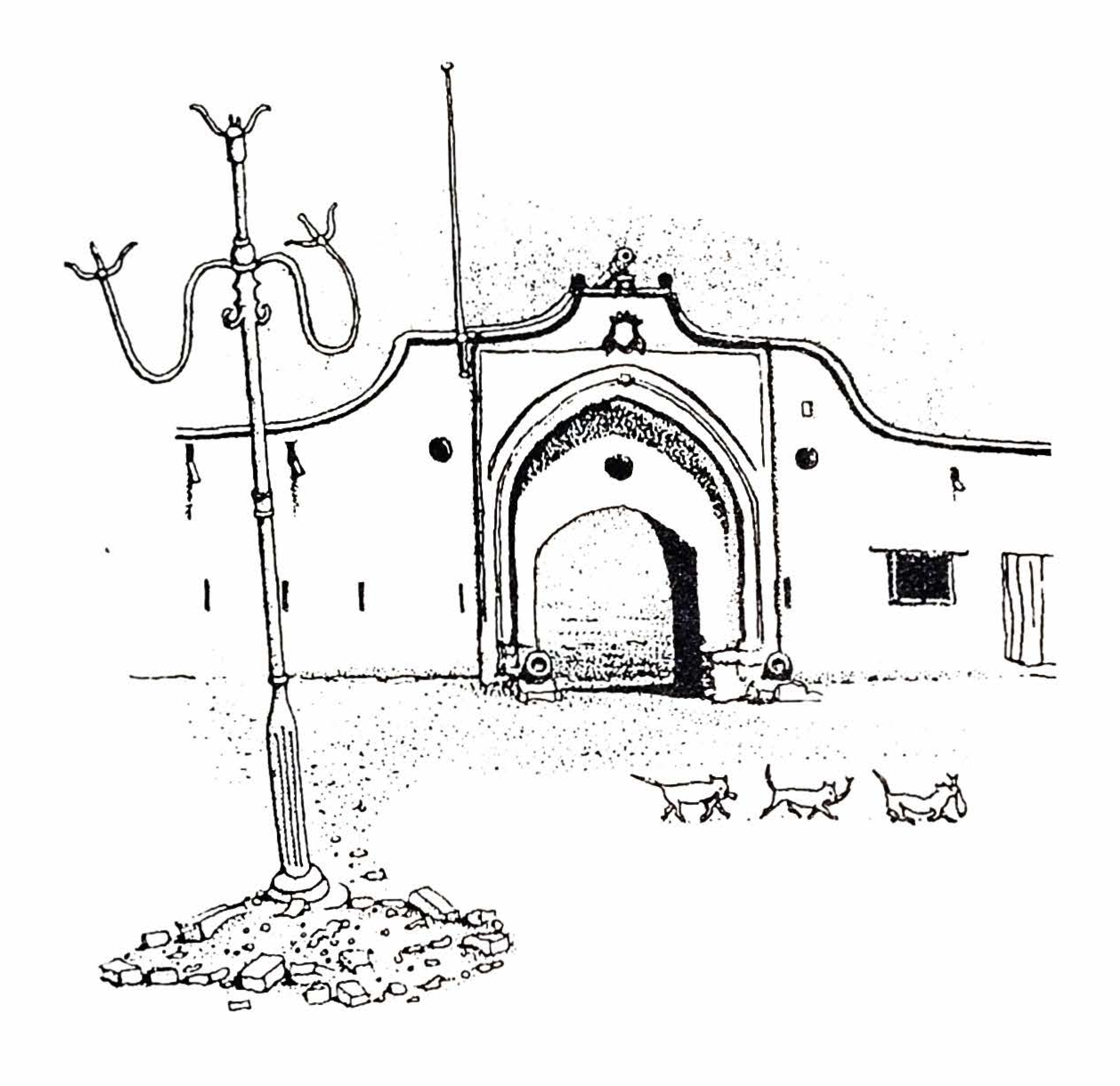
تمثال غردون



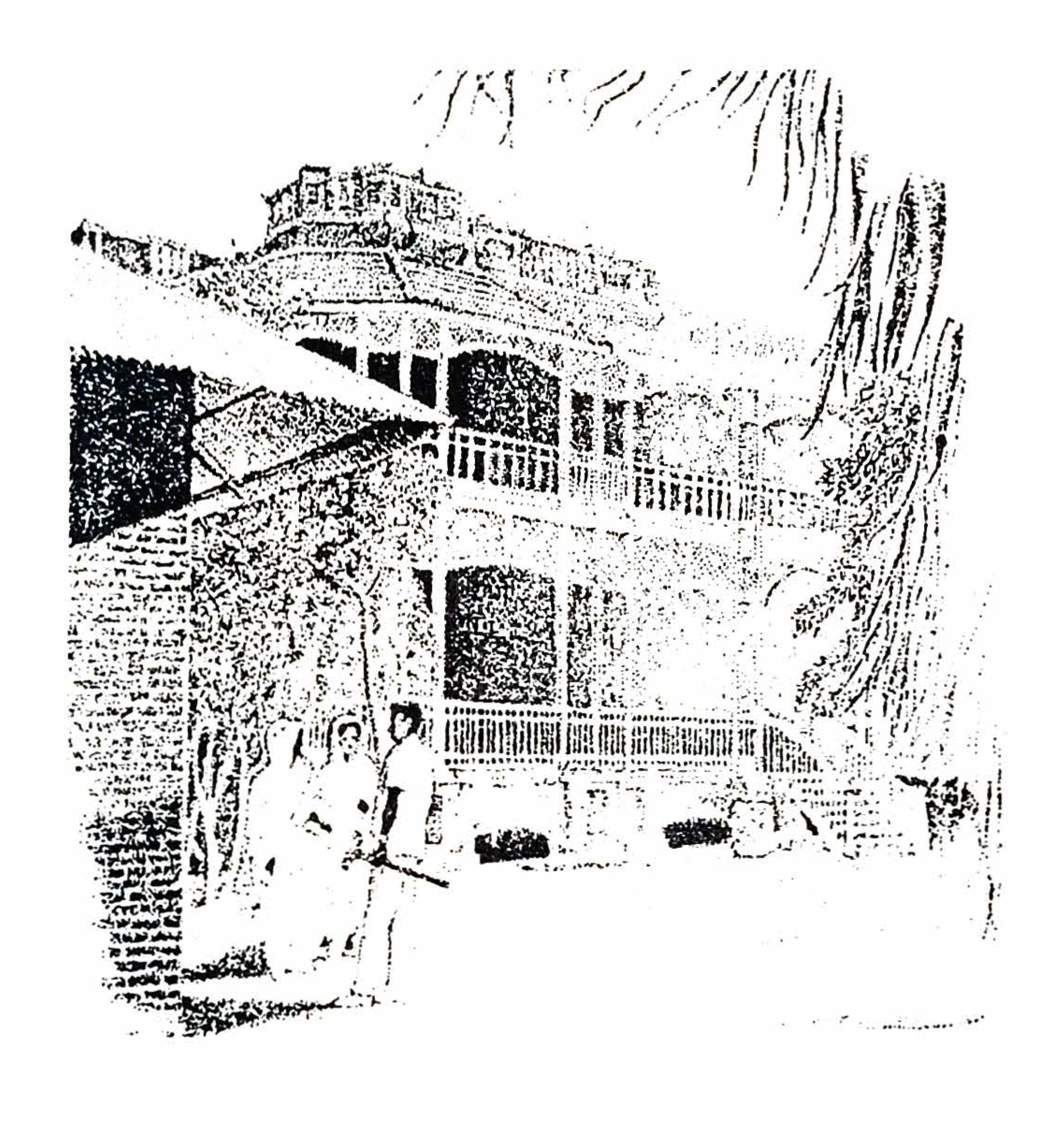
مسجد الشيخ قريب الله بأم درمان



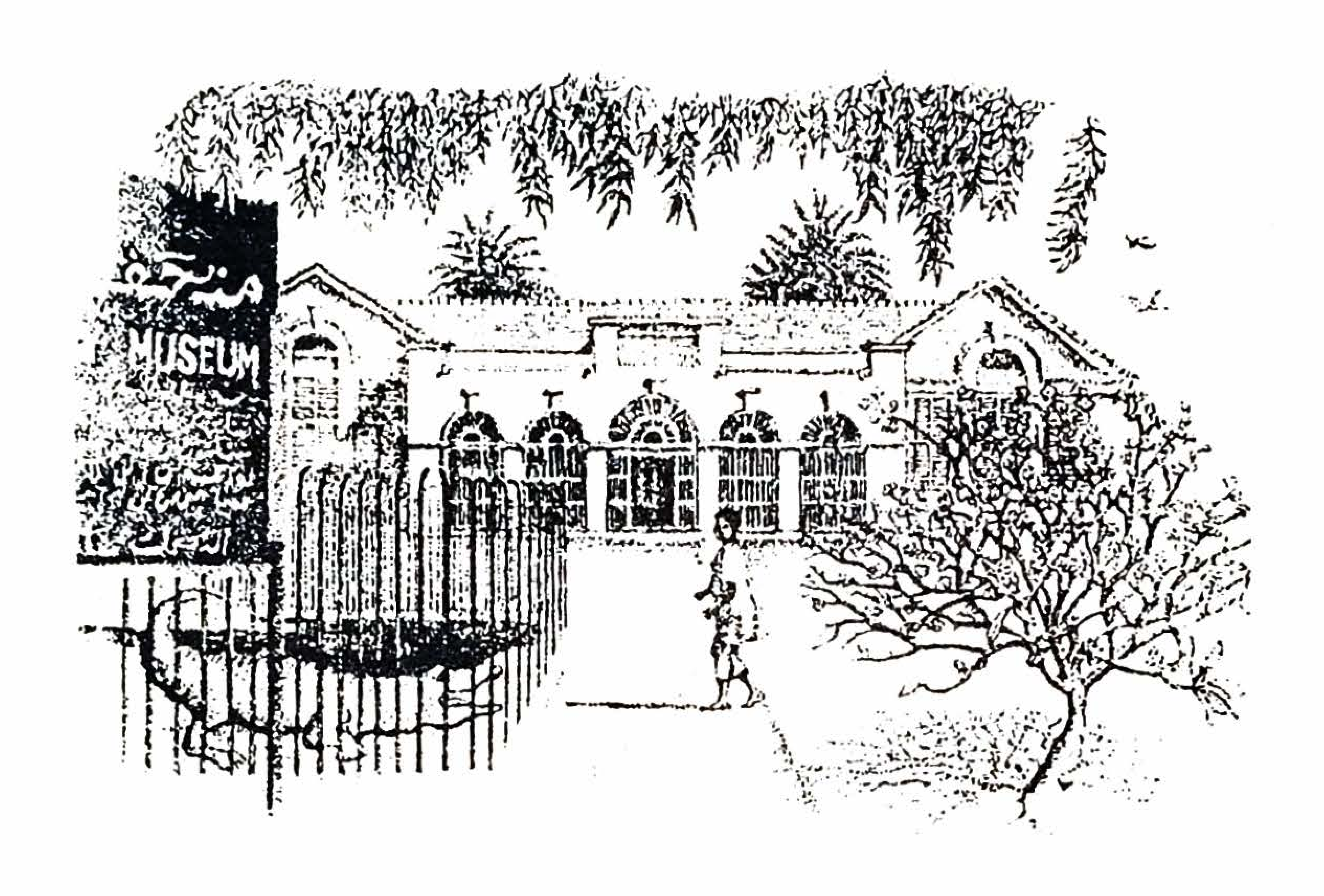
الصياد الذى أعطاه أحد السحرة
مسحوقاً يجلب الحبيب!



قطط فى مدينة سواكن وفى فم كل
واحدة منها سمكة مكتنزة.



مبنى متحف الآثار القديم المجاور
لكلية المعمار



مبنى اتحاد الطلاب القديم بعد تحويله إلى متحف للتاريخ الطبيعي

كل شيء ممكن
سنوات في السودان

أحسن الأستاذ الزبير على صنعاً بتعريبه الجيد لكتاب (كل شيء ممكن: سنوات فى السودان) لمارقريت وأليك بوتر البريطانيين. فالكتاب من أمتع وأصدق ما قرأت من أدب الرحلات، والمذكرات، التى خلفها الأوربيون عن سودان وادى النيل. وهو واحد من سلسلة من المؤلفات التى بدأت تظهر منذ مطلع القرن الثامن عشر، على أثر توغل بعض الأوربيين فى السودان فى إطار عملية استكشاف إفريقيا، لمعرفة خصائصه الجغرافية، وإمكاناته الاقتصادية، وروائعه الأثرية، ولإشباع روح المغامرة، وأخيراً وليس آخراً بغية التمهيد لفتح طريق لبلاد الحبشة المسيحية.

يوسف فضل حسن